في معرض الكتاب المصري : في وجه اسرائيل والتطبيع

أثارت موافقة الحكومة المصرية على اشتراك اسرائيل في معرض القاهرة الدولي للكتاب هذا العام موجة من السخط والاستنكار في الأوساط الثقافية خاصة والشعبية عامة ، في مختلف أقطار الوطن العربي .

وقد اعتبر اشتراك العدو الاسرائيلي في هذا المعرض استئنافاً لخطوات التطبيع بين مصر واسرائيل في الوقت الذي تتصاعد فيه الجرائم البربرية للصهاينة وتدين فيه المنظمات الدولية عنصرية اسرائيل وأساليبها الإرهابية .

وحين ذاع نبأ هذا الاشتراك بادرت دور النشر الوطنية المصرية الى اعلان مقاطعتها معرض الكتاب ، واتخذت الأمانة العامة لاتحاد الناشرين العرب في جلسة عقدتها بمدينة تونس قراراً بضرورة مقاطعة المعرض، وابرقت الى الهيئة المصرية العامة محتجة والى اتحادات الناشرين مطالبة بالتزام المقاطعة.

وقد غابت معظم الدول العربية عن المعرض لدى افتتاحه ، وقاطعته عشرات دور النشر المصرية والعربية . وقد مثل اتحاد الناشرين العرب في مقاطعة المعرض الدكتور سهيل ادريس نائب الأمين العام للاتحاد وشارك في الأسبوع الثقافي الذي اقامته نقابة المحامين المصريين واللجنة الثقافية في نقابة الصحفيين المصريين . كما شاركت دار الآداب ومركز دراسات الوحدة العربية ودار عويدات في المعرض الموازي الذي أقيم في نقابة المحامين واشتركت فيه دور النشر العربية المعارضة.

وكانت هذه القضية مناسبة كبيرة للقيام بتظاهرات ثقافية وشعبية ضد التطبيع ، كان بعض أحداثها إحراق العلم الاسرائيلي عدة مرات في باحة المعرض، وانسحاب دور النشر الوطنية التي شاركت في اليوم الأول فقط في سوق العرض، ثم انسحبت احتجاجاً على تراجع السلطة المصرية عن وعدها بإغلاق أجنحة العرض بعد ثلاثة أيام من الافتتاح ، ومنها جناح اسرائيل .

وقد رأت « الآداب » ان تخصص ملفاً لهذه القضية يضمّ الوقائع والندوات والمقالات التي صدرت قبيل المعرض وأثناءه وبعده .

ازمة . . .

اصبح من المؤكد ان اسرائيل سوف تشترك بجناح خاص بها في معرض القاهرة الدولي للكتاب يأتي اشتراكها نتيجة ضغوط امريكية كشرط لزيارة كبار المسئولين المصريين لأمريكا خلال الأشهر القادمة . . وعلمت « الأهالي » ان د . عز الدين اسماعيل رئيس الهيئة العامة للكتاب حصل على اجازة واعتكف بمنزله « لأنه لايستطيع من منطلق وطني الموافقة على ذلك » . ويستعد عدد من الكتاب والمثقفين العاملين بالهيئة والمشرفين على اصدار مجلاتها « فصول، ابداع ، عالم الكتاب » لتقديم استقالة جماعية واصدار بيان بذلك . كما قررت عدد من دور النشر الوطنية في مصر مقاطعة المعرض واصدار بيان بأسباب المقاطعة .

ناقشت الامانة العامة لحزب التجمع في اجتماعها الأحد الماضي الموقف من اشتراك اسرائيل وقررت العمل على تنشيط حركة مقاومة التطبيع واصدار بيان تفصيلي بذلك . واستنكرت لجنة الدفاع عن الثقافة القومية ـ لجنة جبهوية ـ السماح لاسرائيل بالاشتراك وقالت ان هذا يعني عودة الحكومة لتنشيط سياسة التطبيع ، ويؤدي الى مقاطعة عدد من دور النشر المصرية والعربية للمعرض وفشل الأهداف المرجوة منه .

سبق لاسرائيل ان اشتركت في المعرض عام ١٩٨١ من خلال جناح شركة ادكو انترناشونال التي قررت عدم المشاركة هذا العام في المعرض بعد نجاح المثقفين المصريين والقوى الوطنية في اقصاء اسرائيل خلال العامين الماضيين .

«الأهالي » العدد ١٦٩ تاريخ ٢ يناير ١٩٨٥ .

فليكن الاحتجاج شاملاً!

كتبت فريدة النقاش الكلمة التالية حول مشاركة اسرائيل في معرض الكتاب :

ماذا سوف يفعل المثقفون الوطنيون المصريون في مواجهة اشتراك اسرائيل الرسمي في معرض القاهرة للكتاب هذا العام؟ سؤال يتردد في كل الأوساط المهتمة! منتظرا اجابته .

ومنذ زيارة السادات للقدس ، وتوقيع اتفاقيات كامب ديفيد بعد ذلك حرصت الدولة الصهيونية بكل الوسائل على اختراق صفوف المثقفين المصريين للوصول عن طريقهم الى الشعب المصري كله ، وهو الشعب الذي مارس مقاطعته الصامتة لاسرائيل وعدم الاعتراف الضمني بها رافضا التطبيع بدرجات متفاوتة .

والآن وفي ظل تنشيط التطبيع وبعد أن نجحت اسرائيل في انشاء مركز اكاديمي لها في مصر لم يتعامل معه الا الضالعون في مشروعات شركات الانفتاح والمؤسسات الأجنبية المشبوهة ، ينتظر الرأي العام اوسع احتجاج من المثقفين المصريين من كافة التيارات الفكرية والانتماءات الاجتماعية ، فاسرائيل عدو للوطن لا لفلسطين وحدها ، فهي تحتل جزءاً من اراضي مصر ، وتفرض عليها اتفاقيات تنتقص من السيادة وتخضعها للاستراتيجية الكونية للولايات المتحدة الأمريكية . . وتنزع سلاح سيناء . . الخ .

وطالما لعب المثقفون الوطنيون في مصر منذ بدء نهضتها الحديثة أدواراً رائدة مبدعة الهمت الشعب وحركت قواه ضد كل مظاهر الغزو الأجنبي مقنعا او سافرا ، فانصت الشعب لندائهم وسار خلف رايات النضال التي رفعوها في ازمنة الشدائد المتعاقبة . . وهذا واحد منها .

ويتجمع المثقفون المصريون في عدد من الهيئات والمنظمات الديمقراطية من نقابات واتحادات وجمعيات وروابط يستطيعون من خلالها ، ومع ابتكار اشكال جديدة لعملهم المشترك ان يمنعوا باحتجاجهم المنظم الشامل لا وجود اسرائيل في معرض الكتاب فحسب بل يهمون في اسقاط اعاشة كل اشكال الوجود الصهيوني في وطننا .

«الأهالي العدد ١٧٠ تاريخ ٩ يناير ١٩٨٥».

انسحابات . . .

وقع خالد محيي الدين الأمين العام للتجمع ، وفؤاد سراج الدين رئيس حزب الوفد وابراهيم شكري رئيس حزب العمل واحمد الصباحي رئيس حزب الأمة، على بيان للاحتجاج على استئناف خطوات التطبيع مع اسرائيل ، والسماح لها بالمشاركة في معرض القاهرة الدولي السابع عشر للكتاب .

وقع على البيان ايضا، حتى الآن محمد عبد السلام الزيات رئيس اللجنة المصرية للدفاع عن الحريات، واحمد الخواجه نقيب المحامين ، وصلاح جلال نقيب الصحفيين ، وسعد الدين وهبة رئيس اتحاد النقابات الفنية ، وأمينة شفيق امين صندوق نقابة الصحفيين ود . صالح رضا نقيب الفنانين التشكيليين ، وفتحي محمود رئيس اتحاد عمال التجارة العرب ، ود . لطيفة الزيات رئيس لجنة الدفاع عن الثقافة القومية ، وابراهيم طلعت رئيس جمعية انصار حقوق الانسان بالاسكندرية ، ومحمد فهيم امين سكرتير نقابة المحامين ، ونبيل الهلالي عضو مجلس النقابة ، ومحمد سلماوي رئيس اللجنة الثقافية بنقابة الصحفيين ، ود. أشرف البيومي عضو مجلس ادارة نادي هيئة التدريس بجامعة الاسكندرية ، وسعد حماد امين عام المنظمة العربية لمكافحة الاستعمار ، ود. السيد الغريب رئيس اللجنة العربية لتخليد القائد عبد الناصر، ومحمد عراقي أمين عام اتحاد الفلاحين ، ومن أعضاء مجلس الشعب احمد طه ومحمد عيد، وأحمد مجاهد ، ومن الفنانين عبد الله غيث ومحسنة توفيق ود. سعيد النشائي عضو مجلس ادارة نادي هيئة تدريس القاهرة.

كان مصطفى كامل مراد رئيس حزب الأحرار هو الوحيد من بين رؤساء احزاب المعارضة الذي امتنع عن التوقيع .

من المنتظر ان يوقع على البيان خلال الساعات القليلة القادمة عدد آخر من الشخصيات السياسية وممثلي النقابات المهنية والعمالية .

وأكد مؤتمر نوادي هيئات التدريس بكافة الجامعات المصرية ، يوم الخميس الماضي ، على قرار سابق بمقاطعة التعامل مع اسرائيل ودعا الأساتذة والمدرسين والمعيدين الى الالتزام بمقاطعة الجناح الصهيوني في المعرض كشكل من أشكال التعبير الرافضة للتواجد الاسرائيل في مصر باعتبار اسرائيل الدولة المعتدية دائماً المهددة للسلام والأمن المصري والعربي .

واعلنت عدد من درر النشر المصرية انسحابها من المعرض بعد الاعلان عن مشاركة اسرائيل فيه . وهي دور الشروق والاعتصام والمختار الاسلامي ومنشأة المعارف والنهضة المصرية والنهضة العربية ونهضة مصر والكتاب المصري والفكر والانجلو وغريب والمعرفة . سبق ان اعلنت الانسحاب دور المستقبل العربي والموقف العربي والثقافة الجديدة وشهدى والوفاء والغد والف .

ووافقت نقابتا الصحفيين والمحامين على اقامة معرض بديل للكتاب في مقريهما المتجاورين بشارع عبد الخالق ثروت . وبدأ أحمد فهيم أمين سكرتير نقابة المحامين في تلقي طلبات دور النشر التي ترغب المشاركة بالمعرض. ومن المقرر تنظيم امسيات وندوات ثقافية يشارك فيها كبار المثقفين والمفكرين أثناء المعرض البديل .

وينظر القضاء المستعجل في الأسبوع القادم ، دعوى عاجلة رفعها عدد من المحامين الديمقراطيين ، ضد مشاركة اسرائيل في المعرض، تستند الدعوى الى الاتفاقية الدولية للحقوق المدنية التي وقعتها مصر والتي لا تجيز اقامة علاقات مع دول عنصرية أو الترويج لها .

ووجه كل من النائبين محمد عيد واحمد مجاهد طلب احاطة لوزير الثقافة حول دعوة اسرائيل للاشتراك في معرض الكتاب رغم انتهاكها لكافة المواثيق وقرارات الأمم المتحدة وحتى اتفاقيات كامب ديفيد .

مقاطعة عربية

وأعلن اتحاد الناشرين ، في مؤتمر طارىء عقده بتونس ، مقاطعة المعرض. وقررت العراق والكويت انسحابها منه كما اصدرت عدد من دور النشر المصرية بيانا تعلن فيه انسحابها من المعرض وتطالب بعدم اشتراك اسرائيل فيه (تمشيا مع السياسة الرسمية في مصر بتجميد العلاقات لعدم التزام اسرائيل بالقرارات الدولية . . وانهاء المعرض بعد الثلاثة أيام الأولى

المخصصة للعرض فقد ليفتح بعد ذلك مباشرة سوق الكتاب حيث يعرض الناشرون المصريـون والعرب . ووقـع البيان دور النشـر: الشروق والمستقبل والثقافة الجديدة وشهدى والغد والعربي والموقف العربي ومطبوعات القاهرة .

المعروف ان اشتراك اسرائيل يلقى معارضة واسعة . وعلى غير العادة حصلت اسرائيل على الموافقة بـاشتراكهـا من خلال وزارة الخـارجية وليس عن طـريق الهيئة العـامة للكتـاب المشرفـة عـلى المعـرض. وتسلمت سلطات الأمن المصريـة منذ اسبـوع الجنـاح الاسرائيلي لحـراسته وسط تـذمر وضيق العمـال القائمـين باعـداد امكنة المعرض.

«الأهالي، العدد ١٧١ تاريخ ١٦ يناير ١٩٨٥».

المعرض «الرسمي» . . .

شهد معرض القاهرة الدولي للكتاب مظاهرات شعبيـة واسعة يومي الجمعة والأحد الماضيين احتجاجـا على السمـاح لاسرائيـل بالاشتراك في المعرض.

اشترك فيها شباب الأحزاب والقوى السياسية الوطنيـة وشباب الجمـاعات الاسـلامية والنقـابـات والهيئـات الـرافضـة لاشتـراك اسرائيل ، كما شارك فيها عدد من الشخصيـات العامـة واساتـذة الجامعات كما أقبل رواد المعرض على المشاركة فيـهـا رغم محاولات اجهزة الأمن الفاشلة لتحجيم المظاهرات .

وقد احرق المتظاهرون أعـلام اسرائـيـل ، ورفعوا اعـلام مصر وفلسطين كما رفعت صور الزعيم الفلسطيني ياسر عرفـات وصور المسجد الأقصى، وكذلك عشرات اللافتات التي تـطالب الشعب المصري باعـلان رفضـه للتـطبيـع ومقـاطعـة الجنـاح الصهيـوني بالمعرض، كما وزع على المـواطنين عشـرات الآلاف من البيانـات والنـداءات التي أعدتهـا القوى السيـاسية والـوطنيـة المشـاركـة في المـظاهرات تعلن فيهـا رفضها لاستئنـاف التطبيـع مـع اسـرائيـل ووقوفها ضـد الغزو الثقـافي والفكري الصهيـوني للعقل المصـري العربي .

وقد عقد المتظاهرون مؤتمرا سياسيا شعبيا ـ في يومي التظاهر ـ القى فيه ممثلو القوى المشاركة بيـانات بـمطالبهم التي تلخصت في مطالبة الحكومة المصرية بـطرد السفير الاسـرائيلي من مصـر وقطع العـلاقات من الكيـان الصهيوني، ورفض كـل محـاولات تـطبيـع العلاقات معه ، وعودة مصـر لتلعب دورها القيـادي بين شعـوب الأمة العربية وعدم الخضوع للضغوط الأمريكية وهيمنة الامبريالية العالمية ، والوقوف الى جانب منظمة التحرير الفلسطينية في كفاحها النضالي، لاستعادة ارض فلسطين والقدس المحتلة .

وكانت الحكومة ــ ممثلة في وزارة الثقافة والهيئة المصرية العـامة للكتاب ـ قد اخلّت بالاتفاق الذي عقدته معها دور النشر المصرية والعربية، ونشرته الصحف صباح الأحـد قبل المـاضي لاخـراج الحكومة من المأزق الذي وضعت نفسها فيه بموافقتها على اشتراك اسرائيل، وهو الاتفاق الـذي تعهدت الحكـومة بمقتضـاه ان تعيد تنظيم المعرض ليقتصـر اشتراك اسـرائيل فيـه على الأيـام الثلاثـة الأولى ـ المخصصة للعرض فقط على ان تغلق صالة العرض بعد ذلك وترحل اسرائيل ثم يفتح سوق الكتاب من الجمعة ٢٥ يناير لتشتـرك فيه دور النشـر المصـريـة والعـربيـة ، ومنهـا دور النشـر المقاطعة. . .

الا ان هيئة الكتاب وزعت مساء يوم الخميس المـاضي ـ اليوم الأخير من ايام العرض ـ دعوات على اجنحة الـدول المشاركـة في صالة العرض تفيد باستمرار فتح الصالة من السبت الماضي وحتى اليوم ـ الثلاثاء ـ مخالفة بذلك اتفاقها مع دور النشر. .

وقد علمت « الشعب » ان هذا التراجع من جانب هيئة الكتاب والحكومة سببـه ان السفارة الأمـريكية بـالقاهـرة قدمت ـ لـوزارة الخـارجية ـ احتجـاجا عـلى اغلاق صـالة العـرض بعد ٣ أيـام ، بـدعوى أن صـالة العـرض مكملة لصالة البيع ، وان المسئولين المصريين لم يخطروهم بهذا التنظيم الجديد للمعرض إلاقبل افتتاحه بيوم واحد ، وطالبت بفتح صالة العرض (سراي رقم ٣) ـ والتي بها جناح اسرائيل ـ طوال ايام المعـرض، مما يعني استمـرار وجود اسرائيل فيه !!

كما قدمت سفارتا انجلتـرا وفرنسـا احتجاجـين آخرين لـوزارة الخارجية ـ عقب الاحتجاج الأمريكي ـ بهما نفس المطالب . . .

كما قام الجناح الأمريكي والجناح البريطاني بأخذ موافقة اجنحة عدد من الدول الغربية الأخرى ومنها فرنسا والمانيا لتقديم طلب جماعي الى رئيس هيئة الكتاب لتمديد فتح صالة العرض.

وعقب هـذه الضغـوط والمحـاولات اعـطى وزيـر الثقـافـة ـ بالتنسيق مع وزارة الخـارجيـة ومكتب رئيس الـوزراء ـ أوامـره باستمرار فتح صالة العرض للدول المشاركة ، بما فيها اسـرائيل رغم الاحتجاجات الشعبيـة الواسعـة والاتفاق الـذي تم مع دور النشر المصرية والعربية !!

وبعد قرار الحكومة باستمرار فتـح جناح اسـرائيل في المعـرض قـررت عدد من دور النشـر المصريـة والعربيـة اغـلاق اجنحتهـا ومقـاطعـة المعـرض، حيث غـادرت جميـع دور النشـر اللبنـانيـة المعرض، كما غـادرته دور النشـر المصريـة : المستقبـل العـربي ، شهدى ، الثقافة الجديدة ، الموقف العربي ، بالاضافة الى منظمة التحـرير الفلسـطينية التي اغلقت جنـاحها بـالمعـرض منـذ مسـاء الخميس الماضي.

كـما قام عـدد كبير من دور النشـر المصريـة بتعـطيـل البيـع في اجنحتها لمدة ٣ ساعات يوم الأحد الماضي أثناء قيـام المظاهـرات امام جناح اسرائيل . . .

وقد رفضت ادارة امن المعرض السماح لدور النشر التي اغلقت ابوابها بالخروج بمحتويات الأجنحة من معروضات وكتب .

ولقد واجه كمال حسن علي رئيس الوزراء مظاهرة كبيرة اثناء زيارته لجناح اسرائيل بمعرض الكتاب عند افتتاحه له يوم الثلاثاء الماضي . . .

وهتف المتظاهرون بعروبة فلسطين ورفعوا الأعلام الفلسطينية فغادر رئيس الوزراء الجناح بعد اقل من دقيقة تاركا السفير الاسرائيلي (موشي ساسون) الذي كان في استقباله بالجناح .

دخل مع رئيس الوزراء في زيارته لجناح اسرائيل محمد عبد الحميد رضوان وزير الثقافة ، وسمير سعد مدير ادارة المعارض بالهيئة العامة للكتاب بينما لم يدخل معه كل من الدكتور مصطفى كمال حلمي نائب رئيس الوزراء ووزير التعليم والدكتور عز الدين اسماعيل رئيس مجلس ادارة الهيئة المصرية العامة للكتاب - والمنظمة للمعرض وبقيا في الدور الأسفل من صالة العرض .

المعرض الوطني الموازي . . .

نشرت صحيفة « الأهالي » في عددها الرقم ١٧٣ تاريخ ٣٠ يناير ١٩٨٥ المقال التالي :

« أحمل اليكم تحية الشعب اللبناني والمقاومة اللبنانية البطلة . . » لم يستطع الدكتور سهيل ادريس الروائي العربي اللبناني صاحب « الحي اللاتيني » ونائب رئيس اتحاد الناشرين العرب، لم يستطع ان يكمل رسالته القصيرة الى الشعب المصري بسبب عاصفة الانفعال والتصفيق التي غطت القاعة الكبرى في نقابة المحامين المصريين مساء الثلاثاء الماضي .

كان افتتاحا مزدوجا لمعرض الكتاب الوطني الموازي الذي أقامته دور النشر المصرية والعربية في مقر النقابة ، وللمؤتمر الصحفي الذي عقده ممثلون عنها احتجاجا عمليا على مشاركة اسرائيل في معرض القاهرة الدولي السابع عشر للكتاب . واستمر وقوف المواطنين لكلمات الدكتور سهيل ادريس ورسالة الشعب اللبناني بضع دقائق مشحونة .

في صباح ذلك الثلاثاء نفسه كان رئيس وزراء مصر مع كوكبة من الرسميين قد افتتحوا المعرض الرسمي الذي تشارك فيه دولة اسرائيل وترفع علمها .

وما ان وضعوا اقدامهم على باب جناح العدو حتى انطلقت هتافات عدد من المدعوين في جناح منظمة التحرير الفلسطينية . . . قائلة فلسطين عربية ، وكانت الأعلام الفلسطينية ترفرف بالعشرات بينما يلصقها المدعوون على صدورهم .

تصاعدت حركة الاجتماع ضد مشاركة اسرائيل في المعرض خلال الأسبوعين الماضيين حتى اضطرت الحكومة الى المسارعة بتلفيق مجموعة من الاتهامات المرتكبة لعدد من الشباب والفتيات ، فشنت حملة اعتقالات ، أسفرت عن القبض على ٢٢ من الكتاب والصحفيين والطلاب والعمال وقالت جريدة الاهرام صراحة ان من بين اسباب اعتقالهم نشاطهم ضد وجود اسرائيل في معرض الكتاب .

وكان المؤتمر الصحفي وافتتاح المعرض الموازي تتويجا ناجحا لجهود هذين الأسبوعين بين المثقفين والسياسيين المعارضين للوجود الصهيوني في مصر ولاتفاقيات كامب دافيد .

تزاحم مراسلو وكالات الأنباء والصحف العربية والمحلية ، يصورون اجنحة الدور المقاطعة، يلتقطون الشعارات . . « لا للتطبيع » . . . « لا لكامب دافيد » . . « لا لاسرائيل في معرض الكتاب » . . والشعار الرئيسي «ضد التطبيع الثقافي مع العدو الاسرائيلي» مكتوب بخط احمر عريض يتصدر مدخل النقابة .

اختارت دور النشر المصرية يؤيدها اتحاد الناشرين العرب أن تقاطع المعرض الرسمي طوال أيام التواجد الصهيوني الثلاثة .

وكانت دور « المستقبل العربي » و«الثقافة الجديدة » و« شهدى » و « الموقف العربي » سباقة لعرض كتبها في النقابة .

في صباح الثلاثاء نفسه كان « نبيل الهلالي » عضو مجلس نقابة المحامين يتابع في محكمة القضاء الاداري وقائع الدعوة التي رفعها باسم الناشرين المصريين ضد اشتراك اسرائيل في المعرض على أساس انتهاكها لحقوق الانسان وادانة هيئة الأمم المتحدة لها ، ومخالفة اشتراكها للاتفاقات الدولية التي وقعتها الحكومة المصرية وللدستور المصري .

تأجلت الدعوى لتقدم الحكومة دفاعها .

كان الوافدون الى قاعة المؤتمر وسرادق العرض يتساءلون :

ترى ماذا سيكون دفاع الحكومة !؟

تحول المؤتمر الصحفي بسبب ضغط الجماهير الى مؤتمر سياسي جماهيري ضد التطبيع وضد اسرائيل ، فقاطع الحاضرون المتحدثين اكثر من مرة بهتافاتهم :

سيبوا اخواننا المعتقلين .

لا صلح . لا مفاوضة . . لا اعتراف .

استقبل محمد فهيم امين سكرتير عام نقابة الصحفيين ونبيل الهلالي عضو المجلس ممثلي الأحزاب . . ابراهيم شكري رئيس حزب العمل . . لطفي واكد أمين اللجنة المركزية لحزب التجمع نائبا عن خالد محيي الدين الأمين العام للحزب . . سيف الغزالي حزب الوفد ، ومحمد عبد السلام الزيات رئيس اللجنة المصرية للحريات ، ود . لطيفة الزيات رئيس لجنة الدفاع عن الثقافة القومية والتي كان لها شرف المبادرة بالدعوة لعملية المقاطعة . . وصفق الحاضرون طويلا للكاتب المناضل فتحي رضوان .

ضد التطبيع للأبد

وباسم نقابة المحامين التي اخذت على عاتقها باستمرار أن تقف في مقدمة الصفوف ضد الاستعمار والصهيونية وكامب دافيد -

حيا الحاضرين معتذراً عن غياب النقيب احمد الخواجه ، الذي وقع على بيان النقابات والأحزاب في الأسبوع الماضي ، ولكنه كان مرتبطاً مع محامي اسيوط بموعد سابق . . .

وقال « رفعت النقابة علم فلسطين منذ عام ٧٨ وسيظل مرفوعا فوقها الى ان يعود لموقعه الأصلي فوق ارض بلاده . . فاذا كان العدو يريد التطبيع بالاكراه فاننا نرفض التطبيع الى الأبد» .

كان اول المتحدثين في المؤتمر الصحفي لطفي الخولي عضو مجلس نقابة الصحفيين وامين الشئون العربية في حزب التجمع . . فقال .

« ان هذا المؤتمر هو علامة الكلمة الفصل في مواجهة الامبريالية الأمريكية وتحالفها مع الصهيونية » .

وحين فتحت نقابة المحامين ابوابها لدور النشر المقاطعة فهي لم تعبر فقط عن المحامين وانما عن كل الشعب المصري نقاباته واحزابه الوطنية من اجل اسقاط كامب ديفيد والتطبيع . . . وهذه خطوة يجب ان تمتد لتحاصر كل بقايا الكامب لتسقطها في النهاية . ومعركتنا حين نخوضها ضد العدو الاسرائيلي فاننا نخوضها اولا واخيرا من أجل امن مصر الذي لن يتحقق الا بامن الأمة العربية . وامن الأمة العربية لن يتحقق الا بقيام الدولة الفلسطينية.واضاف لطفي الخولي : ان هذا اليوم يضاف الى ذلك الرصيد الضخم ضد التطبيع مع عدو انتهك كل الحرمات ولن نستطيع ان نقبل وجوده وننسى طابا المحتلة والضفة والقدس و الجولان وكل الأراضي العربية . . اننا نطالب الحكومة ان تقطع كل صلاتها بالعدو الاسرائيلي وان تحول اعترافهابالمنظمةالى افعال وليس مجرد اقوال . ولا بد عن الكفاح ضد اسرائيل الا الكفاح ضد اسرائيل ولا بديل عن منظمة تحرير فلسطينية موحدة وديمقراطية الانظمة موحدة وديمقراطية .

صوت لبنان . . المقاومة

وقال د. سهيل ادريس :

أحمل اليكم تحية الشعب اللبناني المناضل وتحية المقاومة اللبنانية البطلة التي تحارب عن جميع العرب واستطاعت ان تمحو لطخة العار وتدمر اتفاقية ١٧ مايو واثبتت ان لا شيء مقدس الا ارادة الشعب . ورفعت رأسنا ورأسكم عاليا . .

واحمل اليكم تحية اتحاد الناشرين العرب الذي وقف وقفة موحدة مع الناشرين المصريين الشرفاء الذين اعلنوا مقاطعتهم لمعرض القاهرة الدولي لأنهم يؤمنون ان معركتنا الثقافية هي معركة اساسية في معركتنا الكبرى.

واضاف سهيل ادريس :

ـ لقد جئت موفدا تعزيزا وتأييدا لهذا الموقف وايمانا بقدسية القضية الوطنية واذ أحيي موقف النقابات لا بد أن نتعاهد جميعا ـ مثقفين ومفكرين ـ على أن نخوض معركتنا موحدة . ان هذا اليوم يثبت ان بمصر فريقا كبيرا من الشعب يؤيد القضية الفلسطينية فنستمد منه عونا كبيرا لمزيد من النضال من اجل قضيتنا وقضيتكم . . اننا نتجاوز كل الاعتبارات لنؤ يدكم من اجل التحرر والخلاص من كامب ديفيد وحتى نبلغ التحرر الكامل للأراضي العربية .

نعترض مبدئيا

وباسم الناشرين المصريين ، قال محمد فائق وزير الاعلام السابق في ظل الرئيس عبد الناصر وصاحب دار المستقبل العربي :

اننا نرى ان اشراك اسرائيل في المعرض اعادة انشاء لواقعة جديدة تنشط عملية التطبيع وانه لا يعقل ان تمنع الكتب العربية من دخول الضفة وقطاع غزة بينما يسمح لاسرائيل بعرض كتبهاالتي تتنافى وتتناقض مع قيمنا ومعتقداتنا . هل يعقل ان يوزع في مصر كتاب يبرر احتلال الأراضي العربية؟ وهل يجوز ان نروج لفكر الصهاينة ولسلطة تمارس القمع ضد العرب ، اطالب المثقفين الديمقراطيين في انحاء العالم ان يعاملوا اسرائيل معاملة العنصريين الفاشيين .

وبدأت بعد ذلك تتوالى اسئلة الصحفيين ووجه سؤال الى محمد فائق حول الموقف بعد قرار الحكومة بالاكتفاء بوجود اسرائيل ثلاثة ايام فقط، فاجاب قائلا ان هذا القرار جاء نتيجة الموقف الايجابي لدور النشر المصرية والعربية . وهو خطوة ايجابية وان كانت جزئية وهي تعني الاستجابة ليس فقط لدور النشر وانما للمعارضة الشعبية الصارمة . ولكننا ما زلنا نعترض على مجرد اشتراك اسرائيل .وردا على سؤال حول منطلقات منظمة التحرير الفلسطينية ودار الفتى العربي في الاشتراك بالمعرض الدولي مع وجود جناح اسرائيلي ، اجاب د. نبيل شعث عضو المجلس الوطني الفلسطيني : ان كل الدور الفلسطينية تواجه العدو الصهيوني وترفض أي تطبيع معه وترفض أي شكل من الاعتراف الصريح أو الضمني به . ولكن الأمر بالنسبة لنا اننا نجابه العدو الصهيوني في ساحة المعركة وحيثما تواجد . وما دام هناك جناح صهيوني فلا بد أن نواجهه بجناح فلسطيني يرفع الرايات والأعلام الفلسطينية .

ووجه سؤال الى محمد فائق : لماذا لم تشتركوا في العرض الأصلي لكي تواجهوا ايضا اسرائيل !؟ فرد فائق : الجمهور هو الذي يواجه لعدو وليس دور النشر.

ادخلوا التاريخ

ووجه محمد فهيم امين تحية الى المحامين المعتقلين الذين شملتهم حملة الأسبوع الماضي وجاء سؤال حول وضعهم القانوني اجاب عنه نبيل الهلالي قائلا : ان وضع هذه المجموعة دخل التاريخ . فلكي تشارك اسرائيل في المعرض اضطرت الحكومة ان تحرك زوار الفجر لكي « تؤمن » مباحث امن الدولة امن الجناح الاسرائيلي في المعرض.

وردا على سؤال حول الموقف الذي يجب اتخاذه ازاء اشتراك اسرائيل، اجاب نبيل الهلالي : ان المعركة ليست معركة المحامين . فكل الأحزاب المعترف بها وغير المعترف بها والنقابات طرف اساسي له اسلوبه الخاص به . نحن نقوم بواجبنا في حدود دور النقابة ويكفي فخرا ان مجلس النقابة يحرق سنويا العلم الاسرائيلي والأمريكي مما اضطر المسئولين الى استصدار تشريع يحرم حرق أي علم لدولة اجنبية سيطبق علينا هذا العام عندما نحرق العلم الاسرائيلي .

وردا على سؤال من اليونايتدبرس اوضح د. سهيل ادريس ان عدد الناشرين اللبنانيين المقاطعين يزيد عن ٣٠٠ ناشر فضلا عن الدور العربية الأخرى التي اعلنت مقاطعة المعرض. وعلى هامش المؤتمر دارت مناقشات ساخنة حول التواجد الصهيوني . . وتوجه الجمهور نحو اماكن عرض دور النشر المقاطعة والتي كانت توزع على روادها اعلاما فلسطينية . .واستمرت دار النقابة خلية نحل حتى ساعة متأخرة من الليل . . وفي الصباح توافد الناس ليشتروا كتبهم من معرض الدور الوطنية ويساندوها . .

احتجاج المثقفين المصريين

ومنذ اللحظة الأولى كانت اسرائيل التي لا تمتلك ما يمكن تسميته «بثقافتها القومية » تهتم اهتماما خاصا بالجانب الثقافي في علاقتها مع مصر ، وجاءت نصوص المعاهدة المصرية الاسرائيلية عام ١٩٧٩ بسابقة جديدة في صياغة المعاهدات حين نصت في قلبها على ان « العلاقات الطبيعية بين البلدين تتضمن العلاقات الثقافية » وضرورة عقد اتفاق ثقافي في موعد لا يتجاوز ستة اشهر من اتمام الانسحاب المرحلي !!

ولكن . . حاصر المصريون اسرائيل في الداخل . . واطلقت صحافتها على السفير « الياهو بن اليسار » لقب « سجين المقاطعة الشعبية المصرية » وقال السفير وقتها :

ـ ان المثقفين المصريين لم يغفروا لنا وجودنا بينهم ، وهم عندما يرون علما اسرائيليا ، يشعرون بأن العلم يأكلهم !

واعترفوا بثقل المعارضة الشعبية لاشتراك اسرائيل في معرض عام ١٩٨١ .

. . حين شارك عدد هائل من المثقفين المصريين في توزيع البيان الذي أصدرته عدةهيئات ضدالمعرض،وقامت السلطات باعتقال كل من حلمي شعراوي امين لجنة الدفاع عن الثقافة القومية وصلاح عيسى الكاتب المعروف وعدد من الشباب .

كتبت «يديعوت أحرونوت » .

ـ لا تنسوا أن المصريين يتحفظون تجاهنا نحن الاسرائيليين ، وأن تحفظاتهم تزداد يوما بعد يوم .

وكانت صحيفة ها آرتس اكثر وضوحا، كتبت تقول :

ـ الكثير من المصريين يتحفظون تجاه كامب ديفيد ، ومعاهدة السلام مع اسرائيل ، وتجاه كل ما يترتب عليها في المجالين الاجتماعي والثقافي . . فالحواجز التي تباعد بين المفكرين والعلماء وكبار الاداريين المصريين وبين يهود اسرائيل لا تزال عالية . فماذا نفعل الآن . .

رُدة الى الوراء

يقول الكاتب المسرحي نعمان عاشور :

ان اشتراك اسرائيل في معرض الكتاب هذا العام ، يمثل ردة الى الوراء ومخالفة لكل رغبات الشعب المصري الذيلا ينسى ما حدث في المرة السابقة حين اشتركت في المعرض .

ويأتي اشتراكها هذا العام فيضاعف من مهام المثقفين في محاولة رد الغزو الثقافي الصهيوني المدعم «بالرضاءالرسمي » لأنه لا يتسق مع كل ما وصلنا اليه حتى الآن من مواقف مع اسرائيل .

تضيف د. لطيفة الزيات استاذ الأدب الانجليزي بجامعة عين شمس ورئيس لجنة الدفاع عن الثقافة المصرية :

ان رفض اللجنة لعمليات التطبيع مع العدو الصهيوني وخاصة التطبيع الثقافي ، هو جزء لا يتجزأ من رفض اتفاقيات كامب ديفيد . ان المخطط الأمريكي الصهيوني يستهدف فيما يستهدف فرض سيادة اسرائيل العسكرية والاقتصادية والثقافية على المنطقة بهدف ضمان تبعية المنطقة الدائمة للولايات المتحدة ، وهذا هو فحوى الاتفاق الاستراتيجي الاسرائيلي الأمريكي الذي تدخل اتفاقيات كامب ديفيد كجزئية رئيسية فيه شئنا ام أبينا .

مسألة حياة أو موت

ويقتضي نجاح هذا المخطط ـ تقول د. لطيفة ـ تجزئة الأمة العربية والقضاء على مفهوم القومية العربية وعزيمة الشخصية العربية من الداخل ، واعدادها لتقبل سيادة العدو الصهيوني تقبل المهزوم والمقهور ، ومن هنا تأتي اهمية التصدي لمحاولات الغزو الثقافي الصهيوني الامبريالي ، حماية لمقومات الشخصية المصرية العربية . فالمقاطعة وخاصة للتطبيع الثقافي مسألة حياة أو موت ، وتعتبر أقل ما يمكن ان يفعله مواطن للدفاع عن مقومات شخصيته القومية بل ووجوده المستقل الذي ورثه عن آبائه واجداده وبكفاح تاريخي طويل .

وتضيف د. لطيفة :

ـ أن أفتح الباب واسعا لثقافة عنصرية ، يعني أن اتقبل لأبنائي السم البطيء والفعال في نفس الحين دون ان ازود هؤلاء الأبناء بترياق هذا السم .

ـ ان افتح الباب لمثل هذه الثقافة المعادية ، معناه ان يصبح مع الزمن منطق عدوي هو منطق ابني ، ومفهوم عدوي عن الذات هو

مفهوم ابني ، معناه أن امحو بيدي تراثي وتراث ابني . ومقومات شخصيتي وأن أرتضي تحويله الى تابع مطيع لسيد المنطقة الجديدة . ولهذا تستنكر اللجنة قرار الحكومة المصرية باشتراك اسرائيل .

قلة من ضعاف النفوس

الفنان نور الشريف يقول متسائلا :

ـ كيف أرحب باسرائيل كفكر مطبوع أرفضه تماما ؟ أنا ضد اشتراكها لأن الظروف لم تتغير . . لا مشكلة طابا ، ولا الانسحاب من لبنان ، ولا وصلنا حتى لبداية حل المشكلة الفلسطينية .

والعلاقة بين الحكومات لا تعني ان الشعب يرحب بتطبيع العلاقات باستثناء قلة من المنحرفين وضعاف النفوس . انني اقطع باستحالة الوصول الى تطبيع ثقافي معنا .

ويضيف نور . كان معرض الكتاب مناسبة سنوية تجعلني افرح لاقبال الناس عليه . ولكن اشتراك اسرائيل سيؤثر للأسف على المعرض لانسحاب عدد من دور النشر لأن أي انسان موضوعي لا بد أن يقاطع .

الحكومة تمارس الرياء

ويرى نبيل الهلالي عضو مجلس نقابة المحامين أن قرار مشاركة اسرائيل في المعرض بالغ الدلالة والخطورة . ففي المرات السابقة كان اشتراكها في اطار سياسة رسمية معلنة تدير الظهر كلية للعرب ، اما اشتراكها اليوم فيأتي في غمرة ضجيج متصاعد حول المتغيرات في السياسات و (انفتاح) مصري رسمي على العرب يجب ان يقابله (اندفاع) عربي نحو مصر الرسمية .

ويؤكد الهلالي ان القرار تحد صريح لمشاعر شعبنا الذي لفظ «التطبيع» منذ الوهلة الأولى . وبينما يشدد المجتمع الدولي الخناق على العدو الصهيوني ويعزله ويحاصره وينبذه ، تعيد الحكومة بقرارها الاعتبار للعدو وتفك عنه الحصار . وتمكنه من الافلات من طوق الادانة والمقاطعة الدولية وتفتح الأبواب أمامه لترويج ايديولوجيته العنصرية التي وضعها المجتمع الدولي في مصاف النازية والفاشية .

والحكومة التي لا تكف عن الادعاء باحترام تعهداتها الدولية تنتهك بذلك المادة الرابعة من الاتفاقية الدولية للقضاء على جميع اشكال التمييز العنصري التي تلزم الدول الموقعة عليها باعتبار كل نشر للأفكار القائمة على التفوق العنصري جريمة يعاقب عليها . والحكومة التي ترفع لواء مكافحة الارهاب الدولي وتدعو لجبهة عالمية لمواجهته تطبق شعارها باستضافة اسرائيل (الارهاب ـ الدولة) التي تصعد جرائمها الارهابية ضد اشقائنا . وان دل ذلك على شيء فهو يدل على مدى الرياء الذي تتسم به سياسات الحكومة ومواقفها العربية والدولية .

التطبيع بالقوة

د. فؤاد مرسي استاذ الاقتصاد وعضو الأمانة لحزب التجمع الوطني يقول :

ـ هناك خطأ في فهم معنى التطبيع مع اسرائيل ، فهذا الاصطلاح ابتكرته اسرائيل ابتكارا لتصوير نوع وطبيعة العلاقات التي ينبغي ان تقوم بينها وبين الأقطار العربية وفي مقدمتها مصر . وهي ليست علاقات عادية كأي علاقات تقوم بين الدول ، لكنها علاقات ينبغي أن تشكل جزءاً من الاتفاقيات والمعاهدات الدولية التي ترتبط بها الأقطار العربية . كما حدث مع مصر في اتفاقيات كامب ديفيد ومعاهدة الصلح المنفرد مع اسرائيل .

ويذكرنا هذا بالموقف الذي اتخذته اسرائيل منذ هزيمة ١٩٦٧ وساندتها فيه امريكا حتى في ظل كارتر . فقد ظلت اسرائيل تركز مطلبها من العرب قبل هزيمة ١٩٦٧ في مطلب الاعتراف بها . وبعد الهزيمة تحول التركيز الى مطلب التطبيع معها ، لأن وجودها لم يعد يحتمل الشك او التشكيك وهي تحتل أراضي ثلاث دول عربية هي مصر وسوريا والاردن بعبارة اخرى ـ يقول د. فؤاد مرسي ـ صارت الاستراتيجية الاسرائيلية تتلخص في التطبيع بالقوة ، أي فرض التطبيع على العرب .

وبينما تعرضت العلاقات السياسية بعد غزو اسرائيل للبنان لبعض التقييد من جانب مصر ، فان العلاقات الاقتصادية ظلت بلا تقييد واستمر البترول المصري يتدفق على اسرائيل حتى الآن وطوال حربها في لبنان ضد الفلسطينيين واللبنانيين .

اما العلاقات الثقافية فلم تتعرض لأي سوء ، بل استمرت تجري في مجراها (الطبيعي) . فاسرائيل تحضر المؤتمرات العلمية واللقاءات العلمية والفنية . ولها مركزها للأبحاث في القاهرة . ولها صلاتها بالدوائر العلمية والفنية والأدبية في مصر ، ولا تصادف من يعترض سبيلها من جانب الدوائر الرسمية ، وان تكن تلقى مقاومة متزايدة من قبل علماء مصر ومثقفيها وأدبائها وفنانيها .

ضد العقل المصري

والواقع ان التطبيع الثقافي عبارة عن محاولة لاستخدام الثقافة سلاحا بأيدي الصهيونية ضد العقل المصري .

وتبدو هنا محاولة املاء التطبيع الاسرائيلي على الوجدان المصري مغامرة خطيرة جدا ، فهي ليست محاولة لتمهيد العقل المصري لقبول الوجود الاسرائيلي كدولة ، لكنها تذهب الى حد الاقرار بحق اسرائيل في الوجود كفكرة ، كعقيدة صهيونية . . أي الاقرار بحقها التاريخي في التوسع . أي انه مطلوب هنا تحويل العقل المصري الى القبول بالصهيونية و القبول بتبعية مصر للخارج وطمس عروبة مصر .

ويقال لنا الآن إن لاسرائيل الحق في الاشتراك في معرض الكتاب ١٩٨٥ طبقا لمعاهدة الصلح المنفرد واتفاقيات كامب ديفيد ». ومنذ متى احترمت اسرائيل حتى هذه الاتفاقيات وتلك المعاهدة !؟ ألم تحتفظ بطابا ولم تعدها الى مصر؟ ألم تقم بغزو لبنان واحتلت اراضيه ؟ ألم تقم بغزو لبنان واحتلت اراضيه ؟ ألم ترفض تنفيذ الشق الثاني من اتفاقيات كامب ديفيد؟

وكل ما فعلناه من تجميد للعلاقات هو سحب السفير المصري من تل ابيب ، واستمر التطبيع يجري في ظل انسحاب السفير.

ويؤكد د. فؤاد مرسي ان المسألة ليست مجرد تطبيق أعمى لنصوص مرفوضة من صميم وجدان المصريين ، وانما هي احترام ارادة الشعب العربي في مصر ورفض دخول السموم الاسرائيلية الصهيونية الى ارض المعرض بالقاهرة قبل أن تتسلل الى عقول المصريين مهما يكن عددهم ضئيلاً.

حتى لاننسى

بينما تسمح الحكومة المصرية بالتواجد للكتاب الصهيوني ، تحظر السلطات الاسرائيلية تداول اكثر من ٣ الاف كتاب وتضع حائلا بينهم وبين القارىء في الأرض المحتلة منها مؤلفات اجنبية. وتمنع رسميا تداول استخدام كلمة «فلسطين» أو الرسم بأي لون من ألوان العلم الفلسطيني الأربعة و.. الخ.

انساننا العربي هناك يتنفس الاضطهاد في كل لحظات الحياة فهل يمكن ان يختنق عدونا الصهيوني هنا بالمقاطعة الشاملة طوال أيام التواجد .

حقائق الأمور ومعدن الشعب وموقف المثقفين في السنوات السابقة تؤكد ان المقاطعة ستكون شاملة .. ولنتذكر ان ثمن أي كتاب اسرائيلي يرتد رصاصا الى صدر المشتري ويهدد وجوده المستقل .

(الأهالي العدد ١٧١ تاريخ ١٦ يناير ١٩٨٥).

ضد التطبيع الثقافي

د. عبد العظيم انيس

اخترت من الزوايا التي يمكن ان اتكلم فيها في هذا الموضوع زاويتين. أولهما هي طبيعة المراحل التي مرّت بها قضية التطبيع الثقافي . والثانية هي التنبيه الى دور الولايات المتحدة بالذات في قضية التطبيع .

فيما يتعلق بالنقطة الأولى أود أن اعبّر عن قناعتي بأن التطبيع الثقافي بين مصر واسرائيل قد اجتاز ثلاث مراحل ، لكل مرحلة سماتها وحساباتها . ومن المفيد أن نفكر في هذا ونحن نضع خططنا لمقاومة هذا التطبيع . المرحلة الأولى بدأت مع توقيع المعاهدة المصرية الاسرائيلية ، او ربما بدأت مع زيارة السادات للقدس وانتهت بحادث المنصة. وهذه المرحلة تميزت بأمال عريضة للاسرائيليين والأمريكيين في غزو ثقافي واسع النطاق لشعب مصر يستهدف فرض المضمون الصهيوني في الفكر على ضمائر المصريين ووجدانهم وسط حملة جهنمية في وسائل الأعلام المصرية والمسؤولين على الفكر القومي العربي وعلى عروبة مصر، وبل حتى على الشعب الفلسطيني باعتباره شعباً باع أرضه! وبطبيعة الحال على كل الانجازات العظيمة للمرحلة الناصرية باعتبارها سراباً خادعاً ووهماً وتضليلاً . حتى السدّ العالي لم يسلم من الهجوم !

في هذه المرحلة، كان الرئيس السابق انور السادات يقف على رأس السلطة بكل نزقه وغروره النفسي، يظن أنه قادر أن يفعل في مصر ما يشاء، أو ما يشاء الصهاينة والأميركيون بمعنى أدقّ، ولا يضع أي اعتبار لتوجهات الرأي العام في مصر. وكانت تلك هي المرحلة التي تميزت بزحف اساتذة الجامعات والأكاديميين الصهاينة على جامعاتنا ومراكز بحوثنا ، وهي فترة مؤتمر « ووترجيت» للطب النفسي (يناير سنة ١٩٨٠)، وفترة تعديل مناهج وكتب المرحلة الابتدائية لكي تتسق مع متطلبات المرحلة الجديدة، وهي فترة زيارات يائيل ديان (اغسطس سنة ١٩٧٩)، وشمعون شامير (يوليو سنة ١٩٨٠)، وأبا ايبان (نوفمبر سنة ١٩٨٠)، ومناحم مياليسون استاذ الأذب العربي بجامعة القدس، وساسون صويخ أستاذ الأدب العربي بجامعة تل ابيب (يناير سنة ١٩٨١) للقاهرة. وهذه الفترة هي أيضاً فترة تنظيرات الدكتور شعلان أستاذ الطب النفسي بجامعة الأزهر لطبيعة النزاع التاريخي بين مصر واسرائيل باعتباره مشكلة نفسية ، وهي ايضاً فترة دعوة توفيق الحكيم لحياد مصر، يقصد حياد مصر في أمر نزاع بين حركة التحرر العربي واسرائيل ، والبرقية المشهورة التي أرسلها الحكيم الى السادات في مايو (١٩٧٩) يقول فيها «تحية لموقفكم الراسخ أمام الأقزام. لقد أفزعهم صلح الفئتين المتحضرتين بعد اطمئنانهم لضعف مصر لتذل تحت أقدامهم . فإلى الامام نحو الكرامة والحضارة . . . وخطوة من المتحضرين نقابلها بخطوتين. ولن ترجع مصر مع المتخلفين الى الوراء. فالتقدم دائماً والمجد لمصر المتحضرة ». انها ايضاً المرحلة التي زار فيها الدكتور حسين فوزي اسرائيل مرتين ، والقى محاضرات في جامعتها ومُنِحَ الدكتوراة الفخرية من احدى هذه الجامعات، وهي المرحلة التي اصدرت فيها نقابة المعلمين قرارها بالتطبيع (مارس ١٩٨٠).

في تلك الفترة ، كانت هناك جرأة في الصحف ووسائل الإعلام المصرية في نشر أنباء التطبيع الثقافي ، وتميزت مجلة « اكتوبر » على وجه الخصوص في هذا المجال . وكانت هذه الجرأة مستمدة بطبيعة الحال من رعونة الحاكم القائم على أساس السلطة واستهتاره بمشاعر الرأي العام في مصر، بل وحتى بنصيحة بعض مستشاريه ، ثم كانت هناك جرأة السفارة الاسرائيلية في القاهرة للاتصال بالمثقفين المصريين المرموقين . . . نجيب محفوظ ويوسف ادريس وأساتذة الجامعات من أمثال الدكتور محمد شعلان ، والدكتور عبد العظيم رمضان والدكتور عبد العزيز نوار ، وبمراكز البحوث المصرية بما في ذلك مركز الدراسات الاستراتيجية في «الأهرام» ومركز دراسات الشرق الأوسط وقد تميزت هذه المرحلة في نهاية الأمر بتفاؤل شديد من جانب الاسرائيليين والأمريكيين في مسيرة التطبيع الثقافي ، بحيث بدا لهم أنهم خلال سنوات معدودة قادرون بمعونة اجهزة الإعلام المصرية وبعض الرموز الثقافية على تحويل الرأي العام المصري مئة وثمانين درجة من فكر المرحلة الناصرية ، الفكر القومي المعادي للامبريالية ، والصهيونية ، الى الفكر الكوزموبوليتاني الغربي، والمعادي للقومية العربية والمدعي أن

الصهيوني. وان من المهم أن نلاحظ في فهمنا لهذه المرحلة أن الشخصيات الثقافية المصرية التي برزت في تلك الفترة هم بوجه عام من دعاة «التغريب» في مصر تاريخياً ، وهم بشكل عام من الذين يرفضون مفهوم الغزو الثقافي ويعتبرونه وهماً . وهم على الوجه الآخر من مناصري الانفتاح الاقتصادي والارتباط بالغرب .

وكما قلنا ، لقد انتهت هذه المرحلة الأولى من التطبيع الثقافي بحادث المنصة، وبدأت مرحلة ثانية استمرت حتى الغزو الاسرائيلي للبنان في يونيو سنة ١٩٨٢ او ما بعد ذلك بقليل. ومن المؤكد ان سياسة التطبيع الثقافي مع اسرائيل قد استمرت في هذه المرحلة الثانية ، لكن الأسلوب اختلف ، فلم تعد الصحف ووسائل الإعلام المصرية تنشر شيئاً يذكر عن وقائع التطبيع ، والأجهزة الرسمية المصرية بدأت تحاول إخفاء كل ما يتعلق بسياسة التطبيع عن صحف المعارضة خصوصاً ، واصبح الراغب في تتبع وقائع التطبيع مضطراً الى ملاحقة الصحف والإذاعة الاسرائيلية او الغربية بحثاً عن أنباء التطبيع وبدأ العديد من العناصر الثقافية المصرية التي برزت في المرحلة الأولى تتخذ مسلكاً اعتذارياً عما قالته وفعلته في المرحلة الأولى خصوصاً بعد غزو لبنان. ان هذه المرحلة الثانية تميزت بهجوم صحف المعارضة هجوماً عنيفاً على سياسة التطبيع وعلى رموزه المصرية .

ومن الواضح ان السلطة في مصر قد مضت في سياسة التطبيع في هذه المرحلة الجديدة وعينها على موضوع جلاء القوات الاسرائيلية في سيناء، اذا كانت لا تريد ان تعطي الاسرائيليين أي حجة لاتهام مصر بخرق المعاهدة ، وبالتالي تأجيل الجلاء عن سيناء، في هذه الفترة زار إسرائيل وفد من الشباب المصري من ١٧ الى ٢٤ يناير سنة ١٩٨٢ يصحبهم ١٥ مرافقاً برئاسة جمال علّام نائب رئيس جهاز الشباب في مصر، كما زار مصر وفد من شباب اسرائيل في فبراير سنة ١٩٨٢ رداً على زيارة الوفد المصري واشتركت اسرائيل في معرض الكتاب الدولي يناير سنة ١٩٨٢ وذهبت الفرقة القومية للفنون الشعبية وفرقة الموسيقى العربية بقيادة عبد الحليم نويرة لزيارة اسرائيل للمشاركة في مهرجان الربيع في تل ابيب في مايو سنة ١٩٨٢، وقد صحب الفرقتين في هذه الزيارة الدكتور يوسف سترتي نائب وزير الثقافة المصري آنذاك كما زار وزير الثقافة المصري اسرائيل في فبراير سنة ١٩٨٢، واتفق في هذه الزيارة على تبادل الفرق الموسيقية ، وهي ايضاً فترة نشاط معارض الفنون التشكيلية بين مصر واسرائيل والتي برزت فيها الفنانة آمال شكري. وقد يكفي للدلالة على السرية التي احاطت بها الدولة أحداث التطبيع في هذه الفترة ان تشير الى ما جاء في مقال الأستاذ حازم هاشم في عدد المواجهة الأخير في ان القرار الوزاري الخاص لسفر فرقتي الموسيقي العربية والفنون الشعبية قد صدر باسماء مستعارة لأعضاء الفرقتين اتقاءً للمعارضة العربية، وان الصحفيين المصريين الذين ذهبوا مع الفرقتين سافروا او عادوا دون كتابة حرف واحد في صحفهم عن هذه الرحلة ، وقد انتهت هذه المرحلة كما قلنا بعد غزو لبنان وسحب السفير المصري من اسرائيل وتوقفت كافة اجراءات التطبيع .

لكننا فيما يبدو اليوم على وشك بداية مرحلة ثالثة جديدة لإعادة تنشيط التطبيع الثقافي بيننا وبين اسرائيل. دليلنا الأول في ذلك هو السماح لإسرائيل بالاشتراك في معرض الكتاب الدولي في يناير سنة ١٩٨٥، مع انها كانت قد منعت في ذلك في يناير سنة ١٩٨٣ ويناير سنة ١٩٨٤، بالإضافة الى مؤشرات أخرى لا محل لتفصيلها الآن . ومعنى هذا أننا نواجه نكسة جديدة في سياسة الدولة المصرية تتناقض بشكل واضح مع سياسة الانفتاح على الدول العربية ومنظمة التحرير التي كثر الحديث عنها في الصحف المصرية في المرحلة الأخيرة .

والسؤال الطبيعي هنا : لماذا هذه الانتكاسة السياسية المصرية وتلك العودة الى اعادة تنشيط التطبيع الثقافي مع اسرائيل مع ان القوات الاسرائيلية لم تنسحب من لبنان - بل توقفت محادثات الناقورة - ولم تعد طابا الى السيادة المصرية ؟

هناك بالطبع الضغط الأمريكي على مصر لاعادة التطبيع مع اسرائيل ، وعلاقة هذا الضغط بزيارة الرئيس مبارك المرتقبة لواشنطن في مارس القادم وطلبات زيادة المعونة الاقتصادية ، ولكن هناك أيضاً التصور المصري - الذي لا تخفيه اجهزة الاعلام المصرية وتصريحات المسؤولين - بامكانية انتزاع تفويض للملك حسين من منظمة التحرير بالتفاوض المصري الأردني مع اسرائيل على اساس قرار مجلس الأمن ٢٤٢ ومشروع ريغان واستعداد رئيس وزراء اسرائيل بيريز للتجاوب مع هذا المخطط للوصول الى شيء شبيه باتفاقية كامب دايفيد خاص بفلسطين . بمعنى أصرح فانني اتحدث هنا عن مخطط صفقة يجري الإعداد لها بين اليمين العربي من جانب وبين اسرائيل واميركا من جانب آخر تقفز على حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره ودولته المستقلة .

وبالطبع فانني واحد من المقتنعين بأن أمام مثل هذا المشروع صعوبات جمة ليس في اقلها أهمية ان منظمة التحرير الفلسطينية لا هي راغبة ولا قادرة على ان تبيع مثل هذه الصفقة للشعب الفلسطيني والشعوب العربية الأخرى. لكن هذا هو المناخ للقاءات المرتقبة والمقصود بها تنشيط المفاوضات العربية الاسرائيلية من جديد. وبسبب هذا بدأت من جديد تطلّ علينا سياسة إعادة تنشيط التطبيع الثقافي مع اسرائيل.

بقيت كلمة عن الزاوية الثانية التي أشرت اليها في مستهل حديثي، وأعني بها دور الولايات المتحدة في قضية التطبيع، ان رأيي الذي تدعمه شواهد كثيرة هو ان المشروع الأساسي للتطبيع قد وضعت خطوطه العريضة أملاً في لقاءات مشتركة بين هيئات سياسية وثقافية واكاديمية من الاسرائيليين والأمريكيين، كما تطوع الأميركيون عن طيب جامعاتهم ومراكز بحوثهم ووزاراتهم بالقيام بدور تنفيذي رئيسي في عملية التطبيع. أي أن اميركا لم تكن الشريك السياسي الكامل فحسب، وانما كانت الشريك الثقافي الكامل ايضا. ويكفي ان اشير هنا الى سياسة البحوث العلمية المشتركة وتمويلها والمؤتمرات العلمية التي مولتها الولايات المتحدة واشتركت فيها مصر واسرائيل، والأرصدة التي خصصتها وكالة التنمية الأمريكية (إيد) في هذا الصدد، ومنح (السلام) التي قدمت اميركا مئات منها للطلبة والدارسين المصريين ودعوات الأساتذة المصريين. وكل هذه البرامج كانت موجهة - كما يعلن الأمريكيون - لإقلمة حوار بين المثقفين المصريين ونظرائهم في اسرائيل لتعزيز تطبيع العلاقات وفق اتفاقية السلام. كما يكفي ان اشير الى المؤتمرات التي دعت اليها اميركا وجمعت فيها بين المثقفين المصريين والاسرائيليين تحت لافتات مختلفة منها سلسلة مؤتمرات الطب النفسي التي بدأت في ووترجيت باميركا بترتيب من الجمعية الأمريكية للطب النفسي وانتهت بمؤتمر الاسكندرية مروراً بمؤتمر لوزان، والمؤتمر الدولي لأمراض العيون، وامراض النساء والولادة ومؤتمر الكيمياء الضوئية بالاسكندرية، ومؤتمر المعلومات بالقاهرة الذي حضره الوفد الاسرائيلي كجزء من الوفد الأميركي، ومؤتمر «السلام من خلال القانون»... الخ. وما أريد أن أنبّه اليه هنا هو أن المواجهة في ميدان الثقافة والتطبيع ليست بيننا وبين اسرائيل فحسب، وانما بيننا وبين من يقفون مدعمين ومساندين لاسرائيل، أعني الولايات المتحدة الخصم الرئيسي لحركة التحرر العربي المعاصرة.

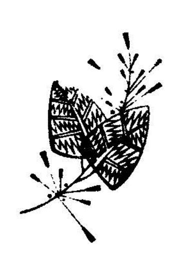
ان هذا المنظور في فهم حقائق الأوضاع الحالية شديد الأهمية خصوصاً لدى شعب ما زالت اقسام واسعة منه تفرق بين اسرائيل واميركا، ترى خطر الثقافة الصهيونية واخطار التطبيع الثقافي مع اسرائيل ولا ترى اخطار الثقافة الاستعمارية الأمريكية ومؤامرة الغزو الثقافي الأميركي مع أن وشائج القربى بين الثقافتين أعظم من أن يتجاهلها وعي انسان يرى موقف الثقافتين وسلوك ممثليهما بإزاء الشعب العربي في فلسطين او لبنان وازاء الشعب الأفريقي الأسود في جنوب افريقيا، وازاء شعوب العالم الثالث بشكل عام.

إن استجابة شعب مصر لجهود التطبيع مع اسرائيل كانت جدّ محدودة، وهي اليوم اكثر محدودية من أي وقت مضى.. لا لأن ما جرى ويجري في الضفة الغربية وفي لبنان قد فتح الأذهان والعيون فحسب، ولا لأن حادث المصنة قد أسدل الستار على مرحلة فحسب، وانما لأن الثقافة العربية بطبيعة جذورها العميقة تتناقض أساسياً مع الثقافة الصهيونية العنصرية القائمة على اساس احتقار غير اليهودي، ويستحيل التوفيق بينهما.

ومع ذلك فالخطر قائم، فالانتهازيون والطفيليون، وهم أقلية في هذا المجتمع، قد استطاعوا بالتعاون مع الشريك الأمريكي أن يفرضوا علينا نظاماً اقتصادياً وسياسياً يمثل مصالحه ومصالح شركائهم. وهم أنفسهم أصحاب المصلحة في الترويج لبضاعة التطبيع، لأنهم يرون مستقبلهم قائماً عن هذه الشراكة الثلاثية العربية - الاسرائيلية - الأميركية، وهم الذين سارعوا لفتح مكاتب التوكيلات للأنشطة الاسرائيلية.

ان جماعات الطفيليين وتجار العملة، واصحاب مكاتب الاستيراد والتجارة هم شريحة اجتماعية قليلة العدد بلا سند شعبي، ولذلك يبقى سندهم في الاقتصاد والسلطة متمثلاً في السند الاستعماري الخارجي، ومن هنا تبقى قضية النضال ضد التطبيع وقضية النضال ضد زحف النفوذ الأمريكي، وقضية النضال ضد سيطرة الطفيليين وجوهاً مختلفة لعملة واحدة.

وعلينا ان نتأكد ان هذه الحقيقة قد وصلت الى أعماق ضمائر الناس في مصر، قبل ان نتوقع انفراجاً وتحولاً الى الأفضل في مسيرة شعب مصر، بل في مسيرة شعوب الأمة العربية باسرها.



التطبيع والصراع الحضاري

د. لطفية الزيات

يتشكك البعض في إمكانية تأثير الثقافة الصهيونية في الثقافة المصرية العربية ذات التاريخ الطويل والمجيد ، ويقولون أين تذهب قطرة من الماء في البحر. وعلى الجانب المقابل والمناقض، ينكر البعض وجود ما يسمى بالغزو الثقافي او التسلل الثقافي ، ويذهب الى ان ما يسمى بالغزو الثقافي انما هو تبادل وتفاعل بين الحضارات ، وهو تبادل وتفاعل خلّاق تغتني به الحضارات . . وتترتب على هذه الدعوى الأخيرة مقولة جديدة تصف الصراع العربي الاسرائيلي **بالصراع الحضاري** ، وتطالب بضرورة الإقرار بحقيقة هذا الصراع ـ واحلال الصراع الحضاري محل الصراع المسلح بين العرب واسرائيل ، وتخرج هذه المقولة بالتالي الى ضرورة انهاء المقاطعة واقامة الحوار بين مثقفي الحضارتين .

وقبل أن أبدأ الدعوى الأولى ، وهي دعوى التشكيك في امكانية تأثير الثقافة الصهيونية على الثقافة المصرية العربية ، أود أن أوضح باختصار المفهوم الذي استخدمه للثقافة ، فالثقافة هي اسلوب حياة وتفكير مجتمع من المجتمعات في فترة من فترات تطوره ، وهي محصلة انجازاته التاريخية المادية والمعنوية ، والمنطلقات الفكرية والروحية التي ارتكزت عليها هذه الانجازات ، ونبعت منها. وهذا المفهوم يتسع للثقافة المكتوبة والشفهية ويتجاوزها ليمتد الى مجموعة التقاليد والمعتقدات الدينية والسياسية والاجتماعية والمؤسسات والتراث والمنطق واسلوب التفكير وصور الذات ومقومات الشخصية القومية متفاعلة بعضها مع البعض، وتلك المحصلة هي التي تسم سلوك وتفكير شعب من الشعوب في فترة تاريخية من فترات تطوره ، وتلك المحصّلة هي ثقافة هذا الشعب .

وفي ظل هذا المفهوم سأحاول أن أعرّف كلّاً من الثقافتين، والثقافة الصهيونية في هذا المعنى اسلوب حياة وتفكير شعب ، إن جاز ان نسميه شعباً يقضي نصف حياته في الحرب، والنصف الآخر في معسكرات التدريب استعداداً للحرب. وهو شعب ، إن جان أن يسمّى شعباً ، استولى بالقوة العسكرية المسلحة على أرض ليست بأرضه وبقوة غير قوته الذاتية ، وانما قوى الاستعمار العالمي الذي زرعه في هذه الأرض بهدف الاستيلاء عليها . وهو شعب زرع في أرض غير أرضه بقدرات تقنية ورأسمالية ، تتنامى على مرّ الأيام بدعم امريكي مباشر واستراتيجي ، وهذه القدرات التقنية والرأسمالية لا تنبع من التطور التاريخي لأرض فلسطين التي احتلتها اسرائيل، وتفيض بالتالي عن حاجات هذه الأرض وتتطلب بالضرورة التوسع في مزيد من أرض الغير بهدف تحويل هذه الأرض الى سوق لاستغلال رؤوس الأموال والقدرات التقنية الزائدة عن الحاجة ، وواكب هذا الوضع المادي وسآندته عقيدة صهيونية تزداد مع الأيام عنصرية وفاشية ، وتنتشر مع الأيام بحيث تشمل كل فصائل الشعب الاسرائيلي يمينه ويساره ، فيما عدا الحزب الشيوعي، وتوغل مع الأيام في الغيبيات وفي العنجهية والاستعلاء والشراسة ، وتقوم اساساً على شرعية احتلال أرض الغير بالقوة المسلحة لأن ارض فلسطين هي أرض الميعاد ، ولأن كل أرض وطئتها قدم يهودي في الماضي والحاضر، انما هي حق خالص لليهود . وفي محصلة مجتمع عسكري تتفاقم رؤوس أمواله وقدراته التقنية وخاصة في مجال صنع السلاح ، وتتفاقم عقيدته الصهيونية وتوغل في غيبيات مخيفة ومرعبة ، وفي محصلة الحروب المستمرة التي خاضتها اسرائيل ضد العرب والانتصارات التي أحرزتها . ومن محصلة القهر والتعذيب ، والاغتيال الفردي والمذابح المتكررة خرجت الى حيز الوجود الثقافة الصهيونية الاسرائيلية مدعومة ولم تزل بالثقافة الأميركية الواسعة الانتشار والفاعلية .

وتقف ثقافة مصر الحديثة على الجانب المقابل والمضاد. فمنذ الحملة الفرنسية وحتى اوائل السبعينات اندرجت الثقافة المصرية العربية في خط تطور صاعد ، وان لم يخل من المنحنيات ، ونضجت في أتون معارك تحرير متلاحقة ومتتالية ضد المحتل والمستعمر الأجنبي معارك التحم فيها عنصرا الأمة الاسلامي والقبطي، واكتسبت من خلال الشخصية القومية هويتها العربية ومنطلقاتها الفكرية التحررية المعادية لكل انواع الاستعمار والتبعية السياسية والاقتصادية . ومن هذا المنطلق التحرري نبعث كل انجازاتنا المادية والثقافية والعلمية والفنية والأدبية ، وكل اجتهاداتنا الدينية ، واحيائنا للذات ، و' ' رب حياتنا اليومي ومنطقنا في التفكير ، ومجموعة المفاهيم والقيم التي تنظم وتحكم سلوكنا اليومي او رؤيتنا للآخرين . وصورتنا عن الذات . وكان هذا هو الوضع الى أن جاء عصر الردّة، يحاول وينجح جزئياً في هدم مقوّمات هذه الثقافة المصرية العربية تمهيداً للتحالف الأمريكي الاسرائيلي المصري .

وقد كانت هذه المقدمة ضرورية لكي لا نتصور أن سحر الثقافة الصهيونية المدعمة امريكياً سحر باتع ولكي لا نتصور

أنها كارثة قدرية لا مرد لها وان قدر الثقافة العربية ان تتأثر بالثقافة الصهيونية ، فالطبيعي الا يحدث هذا التأثير لأن منطلقات الثقافة الصهيونية معادية تمام المعاداة لثقافتنا العربية والواقع انه حدث جزئياً نتيجة للأوضاع والملابسات التي أشرت اليها إشارة سريعة .

وأقول انه الثقافة الاسرائيلية الصهيونية قد استطاعت فعلاً التأثير في الثقافة المصرية العربية والثقافية العربية عامة في تزويد بعض العرب بمنطلقات الفكر الصهيوني بوعي ودون وعي ، وان هذا التأثير قد حدث حتى دون حاجة لاستكمال اجراءات التطبيع بين مصر واسرائيل، وفي ذهني عشرات من منطلقات الصهيونية التي دارت وتدور على عشرات من الألسنة العربية ، ونحن على حد قول البعض الذين ذهبنا وحاربنا اسرائيل اربع مرات ، والخبرة الاسرائيلية بالإضافة الى العمالة العربية تجعل المنطقة فردوس الله على أرضه، الى غير ذلك من المقولات الصهيونية ، ولكني سأكتفي هنا بمثال واحد شامل ويلاقي قبولاً في وجدان الكثير من العرب.

نستمع الآن يومياً، وكل ساعة على ألسنة عربية تردد دعاوى الحكمة والاعتدال والتحضر والتعقل والتحلي بالشعور بالمسؤولية والترفع عن سياسة الشعارات والمزايدات والتشنج ، والتوجه بديلاً من ذلك الى الرأي العام العالمي وخاصة الأمريكي والاسرائيلي ، والتصدي الحضاري لاسرائيل ومواجهتها في الساحة الدولية والمؤتمرات والندوات ، وذلك بمقارعة الحجة بالحجة والبيان بالبيان .

وكل هذه الدعاوى تنطلق من منطلق واحد ، وتتحلّق حول محور واحد هو في حقيقة الأمر منطلق اساسي من منطلقات العقيدة الصهيونية ، وركيزة رئيسية لتحقيق مخططاتها التوسعية ، فسياسة فرض الأمر الواقع على العرب بالقوة المسلحة واجبارهم على تقبل هذا الأمر الواقع ، كأمر واقع جزء لا يتجزأ من السياسة الاسرائيلية والعقيدة والثقافة والصهيونية . وسياسة الأمر الواقع هذه سياسة خطيرة ومضللة، تنطوي على منطق كاذب ومضلل. فاحتلال اسرائيل للأراضي العربية، وتفوقها العسكري على الأمة العربية ظاهرة اجتماعية تاريخية قابلة للتغير والتبدل، وليست بظاهرة طبيعية ثابتة وازلية كطلوع الشمس وغروبها . وكفاح الشعوب للتحرر لا يتحقق ما بين يوم وليلة ، ولكنه يتحقق في نهاية المطاف ، واسلحة الشعوب في المقاومة اسلحة متعددة . وما لا تتيحه الأوضاع اليوم من اسلحة تتيحه غدا. ونفس الشعب نفس طويل وهدفه هدف رهين بالتحقق ما ظلّ يحافظ على هوية وعلى ثقافة ومقومات شخصيته القومية ، وما ظل يفكر بعقله لا بعقل عدوه ويصدر عن منطقه لا منطق عدوه . وما ظل الهدف امام عينيه مهما طال المطاف . والعاقل حقاً والحكيم حقاً هو من يتعامل مع الأمر الواقع ، وفقاً لما تمليه عليه مصالحه، ومن يتعامل مع هذا الأمر الواقع من منطلق الرغبة في تغييره لا الابقاء عليه وتكريسه .

ويكفي ان نقول إن أمريكا تضغط الآن بكل قواها لتطبيع العلاقات العربية الاسرائيلية ، أو أن امريكا تهدد منظمات الأمم المتحدة بسحب التمويل ، بالانسحاب من هذه المنظمات ، ما لم يتم الحوار الغربي الاسرائيلي تحت اعلامها . وما يسمى الآن على صفحات الجرائد بالنضال الإيجابي والوحيد والحضاري ، او ما يسمى بالمواجهة مع اسرائيل في المحافل الدولية ، بالحجة والبيان ، ليس سوى استجابة لمطلب اميركا العاجل ، وتنفيذ للمخطط الاسرائيلي الأمريكي .

وعملية التطبيع التي فشلت اسرائيل في تطبيقها في لبنان باحتلال الأرض بالقوة ، وفشلت اسرائيل في انزالها من المستوى الرسمي الى المستوى الشعبي في مصر، تنفذ الآن في مصر وفي البلاد العربية بالتدريج . وفي هدوء وعلى يد حفنة من المثقفين العرب، تسلب الشعب العربي السلاح المتاح الآن، وهو سلاح المقاطعة الشاملة لاسرائيل، ويوماً بعد يوم تتسع دائرة المتحاورين مع اسرائيل، ويوماً بعد يوم يتحول الحوار في المحافل الدولية الى حوار ثنائي ، ويوماً بعد يوم ينضم الى دائرة المثقفين دائرة التجار والخدم والمستخدمين ويوماً بعد يوم نستفيق لنجد التطبيع قد أصبح بدوره امراً واقعاً على المستوى العربي الشعبي ، وحقيقة واقعة لا نملك لها تبديلاً ولا تغيراً . وتكون هذه نهاية المطاف للأرض العربية المحتلة وللهوية العربية والثقافية العربية والشخصية العربية. ومن هنا نقول لأهل الأمر الواقع والحوار والتعقل والحكمة ، ارفعوا ايديكم عنا ، وكفى زيفاً وخداعاً. إن كلماتكم المعسولة عن التصدي والمواجهة وتبادل الحجة لا تخدعنا ، بل هي تحمل لنا موتاً أهون من الموت المادي، لن تمروا سوى على اجسادنا . ولن نكون أول من يقولها ، فقد قالها شعب لبنان ، واستشهد وما زال يقولها ويستشهد دفاعاً عن هويته وعروبته وثقافته واقتصاده ووجوده المستقل الكريم.

ويتعين عليّ أن أردّ على الدعوى الثانية ، والتي تذهب الى ان ما يسمى بالغزو الثقافي انما هو تبادل وتفاعل خلّاق ما بين الحضارات ، وان ما من شيء يسمى بالغزو الثقافي ، ولعلي فندت في معرض حديثي جانباً من هذه الدعوى التي تنتهي بدورها بضرورة الحوار العربي الاسرائيلي .

صحيح أن التبادل بين الحضارات ضرورة ، وان حضارتنا العربية قد أغنت واغتنت بالحضارات الأوروبية والغربية ؟ ولكن من الأسئلة التي تفرض نفسها هنا سؤال: هل تشكل اسرائيل حضارة ؟ وهل تملك اسرائيل ما تمنحنا اياه في هذا الاتجاه ؟ انها لا تملك الا القدرة التقنية والخبرة التقنية التي تجرنا الى التبعية دون سواها .

خروج عن النص

صلاح عيسى

كان خالي رياض، هو أقرب اخوالي الخمسة الى قلوبنا ونحن اطفال، فقد كان ـ بعكس الكبار الآخرين في اسرتنا ـ قليل الأوامر ، نادر النواهي ، متسامحا مع كل اخطائنا، وكانت ـ غالبا ـ جسيمة :

كان قد غادر المدارس الى غير رجعة ، قبل أن يحصل على شهادة الكفاءة، بعد واقعة من أهم احداث الجانب الفكاهي في تاريخ عائلتنا. فقد حفظ مفردات اللغة الانجليزية كما تلقنها بالضبط. تعلقت عيناه بالسبورة . قرأ ما عليها من كلمات عربية وما يناظرها من معان بالانجليزية . سمعت أذناه تلا المدرس لكل كلمتين معاهازاً جسده على الطريقة الأزهرية القديمة في الحفظ. ردد وزملاؤه كل كلمتين معا :

ـ تماما just منحدر slow وهكذا حفظ خالي النص ـ كما رآه وسمعه ورِدده ـ كل كلمتين معا . وحين جاء أوان التسميع سأله المدرس : تماما يعني ايه يا رياض ؟ . فقال خالي بآلية : تماما جست . منحدر سلو .

وأراد المدرس أن ينبهه لما ظنه سهوا ، فعاد يسأله : امال منحدر يعني ايه؟ . فعاد خالي يردد بآليه ودون ابتسام : تماما جست . . منحدر سلو . ويئس المدرس ـ فيما تلاه ذلك من أسابيع ـ من اقناعه بأن النص الذي يردده بآلية ، يضم كلمتين مختلفتين ، لكل منهما معنى منفصل ، فأهمل شأنه ، ولم يعد يسمع له .

ولأن خالي رياض، كان أطول تلاميذ الفصل ، وأضخمهم ، فقد كان اول من تقع عليه عين الناظر والمفتش ، وكل من يدخل الفصل من الغرباء. فيختارونه، دون كل التلاميذ، ليختبروا معلوماته في الانجليزية ، ويقيسوا بها مدى اتقان المدرس لعمله . . فيسألونه : تماما يعني ايه يا رياض؟ . فيجيب بنصه الخالد تماما جست، منحدر سلو .

ويقلبون السؤال ، فلا تنقلب الاجابة ، لأن خالي كان مصرا على ألا يخرج عن النص الذي حفظه بثلاث من حواسه . والنتيجة نظرة سخط يلقيها المفتش على المدرس ، يغادر بعدها الفصل ، لتتحول نظرته الى عصا تنهال على كفي خالي رياض، يتلقاها بصبر ، فلا يتوجع ولا يحتج ، ولا يسحب كفيه من مرمى العصا ، حتى تكل يد المدرس ، فيعود خالي الى مكانه في الفصل ، شامخ الرأس ، ككل صاحب رسالة يتحمل تكاليف الاصرار على مبادئه ، والصمود في الدفاع عنها . .

ولأن المدرسة كانت أهلية ، تعيش على معونات من وزارة المعارف تنقطع اذا ما ساءت تقارير المفتشين عنها ، فسرعان ما جاءاليوم الذي نفد فيه صبر الجميع . دخل الناظر الفصل ومعه جوقة من المفتشين واختار أحدهم ـ كالعادة ـ أطول التلاميذ قامة . وسأله عن اسمه. ثم قال بأبوة مصطنعة : تماما يعني ايه يا رياض؟ . فكرر ـ بالطبع ـ نصه الخالد . وما كاد الجمع يغادر الفصل، وقد أصبح مؤكدا ان المدرسة لن تحصل على الاعانة ، حتى انهال المدرس والناظر على خالي رياض ضربا ، وطاشت ضرباتهما بالغيظ فطالت كل مكان من جسده ، فاذا بصبره الطويل ينفد، واذ به يرد على العدوان بمثله ، بل بما هو اقسى منه ، وانجلى غبار المعركة ، بنقل المدرس الى المستشفى وجلاء الخال العنيد عن المدرسة الى الأبد !

وحين وصلت الى السن الذي استطيع فيه أن افهم ما بدا أدركت ان خالي رياض كان على حق ، وحكمت بأن المدرس يستحق ما ناله من عقاب ، وربما اقسى منه ، فهو الذي وضع النص كل كلمتين معا ، وهو الذي كتبه على السبورة كل كلمتين معا ، وهو الذي تلاه على خالي وزملائه كل كلمتين معا ، وطالبهم ان يرددوه خلفه بهذه الطريقة . وفجأة ، ودون سابق انذار ، وامام الناظر والمفتش ، خرج عن النص، وابتدع نصا جديدا، وغير من طرف واحد قواعد اللغة، فاستحق العقاب الذي أوقعه به خالي ، الذي اصر على ان يلعب اللعبة طبقا للأصول التي اتفق عليها الجميع ، وتمسك بالنص ، وتحمل في سبيل ذلك ، عدوان الخارجين عنه ، وحين نفد صبرهم ادبهم الأدب الذي يليق بالخارجين عن النص!

سبت ارضك ليه؟

وفيما بعد ، شهدت معركة اخرى من معارك الخال رياض،

تطلبت زمنا ، لكي استوعب معانيها وافهم دلالالتها . . .

كنا يومئذ نلعب في فناء البيت حين وقف بالباب غريب يطلب صدقة . ومع أن صورته كانت تختلف تماما عن هيئة متسولي قريتنا والقرى المجاورة ، فقد ألقينا نظرة عابرة عليه ، دون أن يعني احدنا بأن يدخل الى المنزل لكي يأتيه برغيف من «مشنة الشحاتين »، التي تقبع في احدى قاعات المنزل الداخلية كان طاعنا في السن جدا : كل شيء فيه قديم ومكرمش . . ملامحه ونظراته وقامته المنحنية الضئيلة رغم زحام الأسمال التي يرتديها . . صديري وجلباب وجاكتة وبالطو ومركوب . وكان ابرز ما فيها شملة مبرقشة يغطي بها رأسه الصغير وتلتف حول عنقه . لم يقل - كعادة المتسولين في قريتنا : حسنة قليلة تمنع بلاوي كثيرة . لم يقل : الهي يجعل بيوت المحسنين عمار . تمتم بكلمات لم نفهمها الا بعد وقت : كسرة خبز الله يربحك !

وعبرت أمي الفناء، فلفتت هيئة الرجل الغريبة نظرها ، فسألته : انت منين يا عم؟. امرتني بحسم أن اترك ما بيدي لأعود برغيف من مشنة الصدقة ، وعدت مسرعا لأجد خالي رياض واقفا مع الرجل امام البوابة ، وقد تحلق الكل حولهما ، تبادر الى اذهاننا جميعا ان الرجل ريس طبل ، يصحب غوازي من سنباط. واننا سنشاهد رقصا، وسنسمع الغازية تغني كالعادة :يا رياض أفندي يا أبهه . . يا كايد الناس كلها . . .

أخفيت الرغيف وراء ظهري ، وأقسمت ألا أعطيه للرجل الا اذا غنت الغازية يا صلاح أفندي يا أبهه . . يا كايد الناس كلها . لكن الرجل كان ريسا بلا طبل شحاتاً دون غازية وكان خالي غاضباً بصورة لم أره عليها من قبل. غطى صوته الجهوري الغاضب على ردود الرجل ، فلم أفهم منها الا أنه من بلد اسمها فلسطين وانه غادر بلده ليسيح في بلاد الله وعلى ابواب خلقه، هربا امام اليهود الذين قتلوا اهله، فلم يبق سواه .

ولا أدري لماذا أغضبت كلمات الرجل خالي ، فعاد يصرخ في وجهه بكلمات لم أفهمها لتدافعها ، لكنه ختمها ، بأن جال ببصره في الفناء، والتقط أول ما صادفه، وكان سيرا من الصاج الذي تحزم به البراميل ،وانهال به على الرجل العجوز ، يضربه بقسوة وغضب وهو يصيح : سبت أرضك ليه يا ابن الكلب ؟.

وتوالت الضربات. تدعور الرجل . . . انفرطت مخلاته ففرشت محتوياتها الطريق : كسر من الخبز وحزم من الفجل وفحل بصل وقطعة جبن قديمة ومسامير وقطع كاوتشوك وشراب ممزق وشملة متسخة وكل ما يمكن ان يجمعه سائح بين بلاد الله، يقف على ابواب خلقه. واغلق خالي البوابة وواصل الصياح فينا مهددا بأن يقطع رقبة كل من يعطي الرجل - أو امثاله - شيئا حتى لو كان شربة ماء. . ثم اندفع - ردا على احتجاج والدتي - يتحدث عن مبررات ما فعل ، حديثا لم افهم منه شيئاً، فقد تعكر كل شيء : باخ حماسنا للعب . ولم يعد يهمني أن القب بالأفندي أو الأبهه . وكان خالي يواصل دفاعه عما فعل ، حين تسللت الى مشنة الصدقة ، فأخذت رغيفين آخرين ، وتسحبت من باب المنزل الخلفي حتى لا يراني وادركت الرجل في نهاية الشارع ، وكان يسير ببطء مستندا الى عكاز عجوز مثله ، فأعطيته الأرغفة ، فوضعها بيده المرتعشة المكرمشة ، في مخلاته ، وعاد يتحسس بكفه مكان الضربات على ظهره . . وقال بصوته الواهن :

- . الله يربحك .

خطوط على القلب

في خريف تلك السنة (١٩٤٨) غادرت قريتي الى القاهرة فأكلت - لأول مرة - الحلاوة الطحينية بالعيش الفينو ، و « سندويشات » الطعمية ، وشاهدت فريد الأطرش ولوريل وهاردي على شاشة السينما . وسمعت - لأول مرة ايضا - زمارات الانذار واصوات المدافع المضادة للطائرات ، وعرفت ان هناك حربا ، وهتفت في الظلام : طفي النور . وفي الصباح كنت اجمع واخوتي شظايا المدافع المضادة للطائرات التي كانت تتساقط على سطح عمارتنا. وكنت اقلب الشظايا بين كفي ، وأسأل نفسي احيانا .

- هل واحدة منها هي التي قتلت زوج حمدية ؟!

ولم يكن زوج حمدية طيارا ، بل نجارا . وكنت اعتبرها أيامها أجمل نساء العالم ، فقد كانت أول من رأيت عن قرب من «نسوان» مصر، حين قدمت في الصيف لألتحق بالمدرسة الابتدائية. ولأنها كانت صغرى بنات السيدة التي تعمل في منزلنا . فقد شهدت ليلة زفافها . رأيت وجهها في النور الساطع، وكان فرحا ومتلألئا ببهجة كالنشوة ، وحين عدت في الخريف ، كان النجار الذي تزوجته قد أصبح جنديا ، وكان الجندي قد أصبح شهيدا ، وكانت حمدية حاملا في شهرها الرابع . . وكانت ترتدي السواد، وقالت امها وهي تبكي : قتله اليهود في فلسطين.

ومضت السنوات تحفر كل يوم على القلب خطا من هم ، وتقطيبة من حزن ، لكنها لم تخل من الضحكات : ازدحمت المكتبة بكتب عن فلسطين ، وصور من حياة اللاجئين . ويوما شغفت بأن أتخيل كيف يعيشون بالضبط. فظللت أسأل وأقرأ حتى بنيت في رأسي « ماكيت » شبه حقيقي لمعسكر اللاجئين . وازدحم العمر بفلسطينيين من كل لون وعمر .قابلتهم في المقاهي وبيوت الأصدقاء وللندوات في القاهرة وفي بغداد وفي دمشق وفي الجزائر وفي بيروت وفي معتقل طرة .

وحين قابلت «مازن ابو غزالة» في شقة عبد الرحمن الأبنودي في نهاية عام ١٩٦٧، امضينا الليل نعبث في جرح النكسة، وكان طريًا لم يزل . وتأملت شبابه الفتي باعجاب مشوب بالحسرة . تداخلت ملامحه الوسيمة بمشاهد من وجه حمدية ليلة زفافها . وفكرت : هل يطعن في السن يوما فتقترب ملامحه من ملامح ذلك الرجل الذي وقف يوما على بوابة منزلنا في القرية يطلب كسرة

خبز ؟ وأين ذهبت حمدية في زحام الدنيا ؟ وهل خلعت السواد ؟ وماذا يفعل ابنها اليتيم الذي حملته بين ذراعي وهو رضيع وهشكته ، وفحصت وجهه باحثا عن الفرق . بين ملامح اليتيم وملامح غيره من الناس . وكان الليل قد تقدم . وكنا قد اشبعنا النص الفلسطيني الذي يسكننا تشريحا وتفسيرا وتحليلا . ولم يكن الفجر قد اشرق بعد ، حين استأذن مازن ابو غزالة لينصرف . أغلق الباب خلفه ، وارهفت سمعي مرتعبا ، خشيت أن يعود ، فيطرق الباب ليقول :

ـ كسرة خبز الله يربحك !

لكنه لم يعد . بعد شهور . سمعت آخر انبائه في آخر نشرات الأخبار التي نقلها عن الاذاعة المصرية ـ ذات ليلة من ربيع العام ١٩٦٨ ـ ميكرفون عنبر ٤ بسجن ملحق مزرعة طرة . في نابلس ، تحزم مازن أبو غزالة بالديناميت ، لفه على وسطه . وضع المفجر بين أصابعه تقدم تجاه قول من « آليات » العدو ضغط بأصابعه على المفجر . لم يتدعور على الأرض . لم تنفرط مخلاته . طارت في السماء اشلاؤه . لم يقل خالي رياض : سبت ارضك ليه ؟ . كان مازن قد دفن نفسه في أرضه عنوة !

هوامش على النص

أضفت قصة مازن ابو غزالة الى النص الفلسطيني أمضيت وجيلي نصف اعمارنا نحفظه ، وكان نصا مطولا يزدحم ببشر وخرائط وبخطب وكتب وذكريات . نحن حفظنا النص ورددناه : في العام ١٩٤٩ أصدرت الجامعة العربية توصية بألا تصف اجهزة الأعلام العربية اسرائيل الا بعبارة اسرائيل المزعومة ، ففعلنا . نحن صفقنا حتى فط الدم من أكفنا لزعماء خطبوا فاقسموا الا يستريح لهم مضجع الا وقد تحررت الأرض السليبة نحن غنينا مع المغنين «يا مجاهد في سبيل الله . . . دا اليوم اللي بتتمناه » و « دع سمائي فسمائي محرقة . . واترك الأرض فارضي مغرقة » . . نحن أنشدنا «راجعين بقوة السلاح . . راجعين نحرر الحمى . . راجعين كما رجع الصباح . . من بعد ليلة مظلمة » نحن عشنا نتحدث بصوت خفيض كالهمس ، ومع ذلك طرت شواربنا في المعتقلات والمنافي ، لأن اصواتنا الخفيضة علت على صوت المعركة . اعترفنا بالذنب . تلونا قول الله عز وجل « ان انكر الأصوات لصوت الحمير » . لأنها على صوت المعركة تعلو . نحن من جيل التهمت الكتب والمقالات التي صدرت عن فلسطين في حياته ٩٠٪ من أحبار المطابع والمستورد من الورق ، فالتهمت بالتالي كل قدرتنا على الإبصار وطاقتنا على الحفظ . وصنعت جماجم الذين ماتوا في سبيلها جبالا أعلى من المقطم والجولان وطوروس . ذلك كله اضيف للنص المغمور بالدم والاشلاء والأناشيد والأشعار وقليل من الضحكات . لذلك لم يعد جيلنا بشرا ، خلت اجسادنا من الأعضاء ، وحشي الجلد بالنص الفلسطيني .

الخروج من طرف واحد

ومرت في النهر مياه كثيرة . . غمرت النص لكنها لم تغرقه . وحين خرجت ذات صباح من منزلي دون أن اغسل وجهي . جابهتني سيارات حشدوها بالبشر لتستقبل السادات العائد من القدس المحتلة ، كانوا قد وضعوا في أيديهم اغصان الزيتون . تذكرت حزمة الفجل التي انفرطت ذات يوم من مخلاة اللاجيء الفلسطيني . . ودهشت لأن قانونا كان قد صدر في اليوم نفسه بتغليظ العقوبة على الممثلين الذي يخرجون عن النص . . وقال لي محام صديق : ان القانون لا يطبق عادة على كبار الممثلين بل على الكومبارس .

وفي الأسبوع الأخير من يناير ١٩٨١ ، كنت واحداً من صف طويل ينتدي بعضه لجيلنا ، وينتمي آخرون لجيل الآباء ولجيل الأبناء ، وقفوا جميعا امام الجناح الصهيوني في معرض القاهرة الدولي الثالث عشر للكتاب ، يوزعون بيانا يدعو لمقاطعته ويلفون اعناقهم بتلك الشملة المرقشة ، التي عرفت فيما بعد أنها لباس الرأس الفلسطيني ، ويعلقون على صدورهم علم فلسطين .

وفي اليوم التالي كنت وحلمي شعراوي في نيابة أمن الدولة ، وقعنا في يد الصائدين ، وانتشر الآخرون في بقية انحاء المعرض يوزعون البيان ، وحين دخلت الى مكتب الأستاذ عاصم عبد الحميد رئيس النيابة ، كنت أظن ان اقصى ما يمكن ان يوجهه لي من تهم ، هي التهمة التقليدية : الاثارة والبلبلة والتشكيك والتحريض . وبعد ان شربت القهوة ، خطر لي فجأة ان اسأله عن التوصيف القانوني للتهمة التي سيوجهها إليّ . . فقال بحرج : ـ المادة ١٠٢ من قانون العقوبات ؟!

ظلت نظرتي المستفهمة معلقة . واخرجت محاميتي اميرة بهي الدين قانون العقوبات من حقيبتها . . . وقرأت بصوت عال :

ـ يعاقب بالأشغال الشاقة المؤبدة او المؤقتة كل من يقوم بعمل عدائي ضد دولة اجنبية ، يكون من شأنه قطع العلاقات الدبلوماسية معها . .

لم تعد اسرائيل مزعومة . . ولم يعد العمل العدائي ضدها شرفا لذلك يستحق زوج حمدية الموت ، ويستحق مازن ابو غزالة لقب الخارج على القانون ، ويستحق كل الشهداء ما حاق بهم ، فتلك هي العقوبة الواردة في قانون العقوبات ، والعدل ـ كما قال نجيب سرور ـ يلبس طرابيش ، او يلبس طاقية الحاخامية ، ولأنني لم اكن شجاعا كخالي رياض ، ولأن عاصم عبد الحميد بدا لي ضحية مثلي ، لمن خرجوا عن النص ، فقد انفجرت غاضبا في الهواء واندفعت اغادر الحجرة وانا العن واسب ، وخلفي اميرة بهي الدين ، تذكرني بصوت كظيم . . انني متهم . . ومقبوض علي . .

فمتى يعاقب الذين خرجوا عن النص؟!

الكتابة الأولى

مدخل الى «ماهر» بازوليني

النشيدان الأول والثاني

شعر الياس لحود

قد كان أن سَكَنَتْ زهورُ العتْمِ في عينيْهِ
والتهمتْ نوافذُهُ المشاتلُ.
وانتهى في السِّنديانِ
أقول حين أراد «ماهرُ» أن يطيرَ استقبلتْهُ الشمسُ
بالريشِ المسطَّرِ
علَّمَتْهُ على الصخور وفوق أعشاب السّطوحِ
تَوزَّعَتْهُ وناولتهُ الريحَ صارتْ دميةً ليدَيْهِ
أو نغماً لدميةٍ قلبِها / أو ناولتهُ قلبَها
والشمسُ إذْ تعطي لـ «ماهرَ» لا تَملّ ولا يملُّ
كأنّما هي زهرةُ البركانِ وهو سليلُها المشتاقُ
منذ نعومة الأيام للغسق المصفّى والبيوتِ

أقول يوم أراد «ماهرُ» أن يحبَّ استفتحتْهُ الدُّورُ
بالفلّ الوسيعِ
وأسكنتْه نوافذُ البحر الشتاءاتِ البعيدةَ
واشتهاهُ القمح فاندثرت مدامعهُ
وصفَّق للطيورِ
وراح يركضُ تحت أحلام الصنوبرِ
علَّمتْهُ الشمسُ رعْشتَها
وعلّمهُ النبيذُ جرارَهُ

قد كانَ
حين تكون ملعبَهُ الجروحُ
يكون بجانحَيْنِ من العبير الحارِّ
حين يضيع في خطواتِه الخضراءِ يختمُ
آخر الفصل الصباحيِّ / اشتهاهُ التينُ
فانبعثتْ مشاعرُهُ وواصل في الربى نغَم الجرارِ

أقولُ «ماهرُ» ـ
يستعدُّ الصحوُ للجريان نحو الذكرياتِ
أقولُ «ماهرُ» ـ
يكسرُ الزمنُ البعيدُ جرارَهُ
ويدور نحوي في العبابِ
أقولُ «ماهرُ» ـ ليتني
أو ليتَ يُرجعني الترابُ اليه في وجع الترابِ أقولُ
قدْ بدأتْ ملاعبُهُ تُطلُّ وتلفحُ الأجساد بالنار الجريحةِ
أيُّها الغيمُ المضرَّجُ
أيُّها المطرُ النحاسُ
وأيّها الـ /
قلبي حُبَيْباتُ الحديد عليه تُزْهرُ بالرصاص
وجاءتْ السنواتُ هاكَ كتابَها
بين الثياب وتحت صفصاف القلوب
وحول أبواب الدكاكين المضيئةِ بالعرائسِ
أيّها الثمرُ النحاسُ على الأيادي
أيها الثمرُ النحاس من الأيادي
أيها الحلْمُ الحديدُ ـ قفوا
سيعبرُ سيِّدُ البركان في جثمانه فوق الكتاب
وحول أبواب الحوانيت القصيرةِ
سيّد الثمرات والبُقَعِ الصغيرة
وانتظار الخبز والزيتونِ في البقعِ الصغيرةِ

مرّتِ السنواتُ داميةً
وأقفرتِ القلوبُ من المسالكِ
واختفى وجْهُ الحبيبة في دخان الشوكِ
ها أنَذا كصخرٍ دامعٍ أرِثُ المقالعَ والدروبَ
فلا يُدمِّرني الركامُ
ولا يبلِّلني الرمادُ

أنا انتظار الملتقى الباقي
أقولُ سمعْتُ غيمةَ ماهرٍ تأتي وتنشرُ في التراب لهيبتها
وتروح ترقبها الطيور كأنها أرقُ المواقدِ
كان واحترقتْ شفاهُ الحوْرِ والتصق الكلام على الشفاهِ
يموتُ ثم يموتُ ثم
يموت في غضبِ الشجَرْ

(٢)

[بما أنَّه لك طعامٌ ونواجذ وفكرٌ طويلٌ
في وسط الرأس وكلامٌ بارز إلى خارج
وجهكَ أطعمْنا . .
فالساعةُ تشير الى العاصمة وتقف]

كنّا مع الطير ننتظرُ القمحَ فوق السّطوح
وكانت مدامعنا حين تنزْل
يغسلُها فرَحُ الملتقى في ثوانِ
وكانت لكلّ شقيٍ دجاجتُهُ
وقبّوعُهُ الورقيُّ / طاولةٌ وكرسيُّها
نافذةٌ للهروبِ
وبعض الخيوط التي لفّها فوق عودٍ براهُ من الجانبينْ
هنا تبدأ هذي القصيده

مرّةً جبَلٌ جاعَ حتّى مشى
مرّةً « مَاهرٌ » جاعَ حتّى ـ
مرّةً خطبَ الزعترُ بيروتَ
قبّلها في كسور المرايا
وأحرقَ دمْلجَها لتُدمِنَهُ
ولكنها أدمنتْ كل موت المقاصيرِ
مدّت الى الصخر كفّاً
وللعشبِ كفّاً
ومسْمرها الصمتُ فوق الجرائدِ
هكذا طلَبَ الزعترُ بيروتَ
أغرقها في ندامتهِ
ومدّ إلى الرأس كفّاً
وكفّاً الى منتهى الرئتين
فسارتْ الى العمر تُطفئهُ
بعدما أغلقتْ بابَ شقّتِها
لتغرق في انتحاراتها الممتعه
هنا تبدأ هذي القصيده

: ـ « ماهرٌ في الهوى »
« ماهرٌ قد هوى »

أزيحوا عن القلْبِ كل الستائرِ
يبقى ستارٌ أخيرْ
أزيحوا الستارَ الأخير

أزيحوا عن الأعين الخشبيَّةِ ملْحَ العيون
بعدما أجّرَ العاشقُ شقَّتَهُ
بعدما كشفَ الفحْلُ أسرارَهُ للبنات
عندما أقفل الموسمُ أبوابَهُ واختفى في دماء الجنوب
هنا تبدأ هذي القصيده

: ـ « ماهرٌ للهوى »
« ماهرٌ مُذْ هوى »
سادتي سيّدي
سادتي سيّدان
واحدٌ شدَّ جدَّتهُ للوراء بآخر أضراسها
وآخرُ يشوي على اللَّحْمِ لحمَ الزمان
ـ سيدي سيّدان
ـ وسيّدتي هكذا
نصْفُ أحلامِها من كتاب الأغاني
ونصْفُ جزدانَها خرَّمتهُ التماسيحُ
في عيد « متّى / فقُلْنا
« لنا صوتُهُ والتوابيتُ لَكْ »

وفي عيد « متّى » قَرَعنْا السَّمَكْ
وأكلنا الجرَسْ
وفي لغةٍ قبل « ماهرَ » قالوا
« قرعنا لمتّى الجرسْ »
« وأكلنا لمتّى السَّمكْ »
« لنا صوتُهُ والتوابيت لكْ »
دعَوْناهُ قبل الضحى « بازوليني »
وبعد الضحى : آه [يا سيّدي سادتي ، بازوليني هوى]
« ماهرٌ والهوى »

دَمْعٌ وعشْبٌ وسيّدةٌ في كتاب
وإناءٌ لزهْرِ القَتيل
ليتني شوكةٌ في فمي

عندما ذبحوا طائرَ الماءِ غابت على الماءِ دائرةٌ
قطفوها بحدّ الأكفِّ وقالوا
نُحبّ ونذبحُ آهاتِنا
لرمّانة السفح بيتٌ من الشّعرِ
رمّانةُ البيت سفحٌ من الأغنيات
نُحبّ وننحر فيكم ترانيمنا

عفْوَ سيّدةِ الحنْطةِ
كاساتنا مطفأة
وأرياحنا في مهبّ القناني
نحبُّ وننحر فيكم ترانيمنا

يومَ هَرْوَلَ المطرُ الأوّل في الطرقات التي
تكتسي عبَقاً
وتطرقُ صدْراً وتدخلهُ
يوم هرْول المطر الأوّلُ
بين أرواح تلكَ الحديقة

طريقٌ دخانيةٌ تحت زخم الحوافرِ
يكتبُ للخائفين ارتجافاتِهم
ويُحصي ارْتجاجَ الحصى
يسْحبُ من صدره أحرفاً
يُسمِّرها في الشعارْ
ويخرج من خوفهم عارياً / عارياً يَلْبُسُ أطفالَهم / يَلْبسُ المنتهى
ويعقدُ في العنْقِ أصواتَهم هكذا ينتهي صاخباً في العروق
لا ينام الغزيرُ ولا يَصْطلي
لا يُغلقُ كنّارةَ الوقتِ
لا ينطفي
وحده العاشقُ المتبدِّي
وحده فارس القبْر
وحده موقد الطرقات

: ـ بعضُ هذا الهواء صخورٌ
بعضهُ ريشةٌ تقعُ الآن من طائرٍ

أغنية : هو أصفى الرجال وأبهى الأحبَّةِ
لا يُغلق البابَ
لا يترك مفتاحَهُ
عابقُ النسوةِ
بارع الدارِ
صوت : أهذرُ هذا الكلامَ على سمْعهِ وأُطارح نفسي
أن بيني وبين حبيبي هواءً وبعضَ الحصى
وهمْهمةَ الكلمات
صوت :ـ قتلوه فأورق في حفافي الطرقْ
قتلوه فغرَّد في تعب الحَوْر
قطعوا دربَهُ
فلملم عن تينة النهر أسرارها
وسَاءَلَ عُلّيقةَ الكرْم عن عناقيدها

واعتلى قمّة الشمْس حتى اندلاعِ البيوت
حين تَعْرقُ في الجوارير أثوابُهُ
ويلْهثُ صوتُ المصابيح فوق البقيّات
ينفجرُ السيّدُ هكذا سيداً
أو رذاذاً مُسجّى
هنا تبدأ هذي القصيده
مطرُ الوجْهِ
مطرُ الزيزفون
مطرُ القريةِ
زوبعةُ السنديان
يبلغُ الفارسُ أوّلَهُ
هنا تبدأ هذي القصيدة

أتابعُ وقْعا
أتابعُ أنفاسَ مطحنةٍ
أعدو وأرتكب الأُغنية
وحين هوى الصوت منّي
تجمّع قومٌ لأدخلَ في انزياحاتهم نامياً
وأواكبهم / سقط الصوت
سقطَ الحائطُ الحجريُّ ـ قولي

ـ أَحَبُّ الرجال الذين تهاوَوْا حبيبي
وأَحَبُّ الحكاياتِ مِطحنةٌ
وحمارٌ سريعٌ
سأكتبُ هذا الكلامَ على شجَرٍ
« أليك الصَّدى شامخاً
أيّها الدائم الخضْرة والجريان »

أغنية : شجَري مُتْعَبٌ وقويُّ الضَّنىٰ
وأنـا
خارقُ العَصْفِ
شيءٌ من المـاء في حَفْنة النهْرِ / شيءٌ من الـوقتِ في مخـرز العينْ
شيءٌ من الخمر وقتَ الكتابةِ
شيءٌ من الأرجوان المسجّى
وشيءٌ من الصمْتِ وقْتَ التراب
ـ هنا تبدأ هذي القصيده

الياس لحّود

[الكتابة الاولى : ٢٩ / ١/ ١٩٨٥]

عَودَة الى خليـل حَاوّي

ماجد السامرائي

«الجماهير التي يعلكها دولاب نار من أنا حتى أرد النار عنها والدوار؟»

(خليل حاوي)

ـ ١ ـ

في السادس من حزيران ١٩٨٢ ، وبينما كانت القوات الصهيونية تستبيح أرض لبنان . . وقف خليل حاوي ـ أحد اكبر شعراء عصرنا ـ معلناً احتجاجه الصارخ على ما يجري . . فانتحر . . .

ولم يكن هذا الفعل كبيراً على شاعر مثله . فهو منذ أن وضع اولى خطواته في طريق الحياة والشعر كان قد اختار « طريق الجلجلة » . . ولم يكن اختياره هذا سهلاً في عصر كعصرنا . .

وهو منذ أن كتب أولى قصائده ارتبط عنده فيها مفهوم الأرض بالانسان . . بل ونظر الى احدهما من خلال الآخر .

ويوم استباحوا الأرض في الغزو الأول على مرأى منه . كان قد وجد الانسان ، هو الآخر ، يتعرض للاستباحة ، والانتهاك ، والقتل . . فعاش حالة غريبة، كان يحس هذه الحالات مجتمعة في داخله ، ولا يدري كيف يحمي ذاته الحضارية (التي هي التاريخ والأرض والانسان) من الدمار الذي تتعرض له . . .

وحين عاد العدو بأبشع استباحة للأرض وما عليها ، وجدهم قد اقتحموا داخله ، مرة واحدة. فماذا يفعل ؟

إنه في كل ما كتب من شعر ، وعلى امتداد مسار حياته ، لم يعلق « الراية البيضاء» لا على شرفة حياته، ولا على شرفة الكلمات . . . فهو شاعر ترك كل صوت غير « صوت اليقين » الذي كان ينبعث: عنيفاً ، صريحاً ، حاداً، وواضحاً . يقين الانبعاث، ويقين الثورة التي كان يريد لها أن تحرق كل ما على الأرض من يباس التاريخ وعصور الانحطاط . . .

وهو « يقين النفس » التي امتدت جسراً بين « الشرق القديم » الذي أدار له ظهره واعلن مغادرته ، و« الشرق الجديد» الذي تتحقق فيه صورة « الانبعاث الحضاري » . فكان صوتاً متميزاً في عصر فقد التميز بالأشياء الايجابية . . كما كان علامة من علامات الزمن الشعري العربي الجديد.

وهكذا أرتقى ؛ بفعله الأخير هذا ، أعلى مدارج الحياة . . ومن هناك أعلن احتجاجه : عنيفاً صارخاً ، وصادقاً . . فلم يكن انتحاره منبعثاً عن احساس بعبثية الحياة والوجود . . بل كان ذروة الاحساس بالحياة ، بعلوها وشموخها ، وتحقيقاً لهذا « الوجود » على نحو خاص . . .

وهل كان في هذا غير التجسيد الفعلي بغير واحد من « رموزه التموزية »؟ .

ـ ٢ ـ

كم هي عميقة وثرية. . صاخبة وعنيفة حياة الجيل الذي ينتمي اليه خليل حاوي !

فيوم ولد أبناء هذا الجيل كان الآباء يلملمون شتات أنفسهم، ومجتمعهم ، وحياتهم ، ومدنهم (أو قراهم) وقد خرجوا من فترة ظلام أسود، بلون الجهل والتخلف اللذين اطبقا على الحياة العربية قروناً . . فأسلمهم هذا « الخروج » الى « حرب كونية » لم تكن لهم فيها يد أو مصلحة . ومع ذلك كانوا (هم وارضهم وحيواتهم) بعضاً من وقودها . .

إذن ، ولد هذا الجيل بينما كان الآباء ينفضون الغبار عن الرؤوس والأرض، ويتطلعون الى عالم يأملون أن يبنوه لأبنائهم على ركام دمار ، اذا كان قد أزيل من الواقع فانه بقي ماثلاً في الأذهان ، بكل صور الرعب التي انفتح عليها . . . .

ونشأ هذا الجيل . . وكبر . وما كاد يعي أبعاد القصص التي يسمع أطرافها من الآباء، حتى وقعت الحرب ثانية ، لتهز كيانه الوجداني ، وتملأ روحه بالغضب.

ولأنه كان جيلاً يبحث عن « قيم جديدة » ، ويسعى الى تأسيس « حياة جديدة »، فانه سلك سبيل الثورة في الحياة ، باحثاً عن طريق جديدة لحياته ووجوده (الانساني والفكري والابداعي) :

ـ كانت هناك القوة التي رآها وهي تسعى الى سحق انسانية الانسان ، فأراد أن يجعل من معطياته الفكرية والابداعية تحقيقاً

لتلك « المعادلة الصعبة » التي يضمن فيها الشرط الانساني لوجوده (كأمة لها ذاتها الحضارية وكيانها التاريخي) . . .

- وكانت ثورة هذا الجيل هي التعبير عن حيويته هذه التي أراد أن يهز بها الكيان السكوني للواقع الذي خرج منهكاً من حربين كونيتين لم تخلفا غير الدمار في الواقع ، والانسحاق في النفوس ، فكانت «روح الثورة ، التي استلهمها هذا الجيل ابداعاً يعزز قضيته في الحياة : قضية الانبعاث في أمة كان قد تمزق تاريخها الواحد على محاور من : التجزئة، والتخلف ، والاستعمار .

- وهو جيل انطلق في عمله هذا (على مستوى الابداع) من ايمان جذري وعميق بحس المسؤولية التاريخية . . . فلم يدر ظهره للواقع (كما فعل الغاضبون في الغرب)، انما اعتبر الواقع قضيته . ومن هنا فهو ان كان قد عاد الى التاريخ فمن خلال الواقع الذي يعيش. . . وان نظر الى المستقبل فمن الموقع نفسه كان التوجه . . .

فهو جيل لموقفه دلالة . . هي دلالة من يبدي البطولة ليؤكد عمق الانتماء الى القضية التي يعمل من اجلها . .

- ٣ -

إذا كان «خليل حاوي» قد بدأ حياته الابداعية بمشهد رائع من خلال ما مثله بديوانيه : « الناي والريح » و « نهر الرماد » من تجربة شعرية فريدة في شعرنا المعاصر، فانه قد ختم حياته بمشهد مأساوي، قد لا نجد نظيراً له الا في « المآسي الكبرى » التي عرفتها الآداب العالمية . . .

فهو قد بدأ من ذلك « المعنى الحضاري » الجديد الذي رأى أن « الشرق » ينبغي أن يتفتح عليه ليرى صورة غده ، حيث الانبعاث عبر ذلك الأفق من « الرمز التموزي » الذي يعود بالانسان الى الايمان بالقيامة والتجدد . . . وانتهى - بعد طول مسير وعميق مسار - الى أن كل ما حوله يهدد الحياة بالزوال .

ولم يكن من طبعه التكيف مع الظروف . .

كان جيلياً لا يعرف للحياة سوى الوجه ونقيضه . . وكان قروياً مشاكساً ، وانساناً كل ما اكتسب من الحياة « الكلمة » و« الموقف » . - . فكانا رأس ماله الكبير . . فاذا هما « ثنائية » حياته التي لا يداخلها شيء من تناقض، أو عامل من شك . . .

فهو شاعر افلت من كل شيء الا من « يقين نفسه » . . .

ولم تكن الحياة في نظره « حلماً » بل كانت « صراعاً ». ومن هنا انشق رمزه الشعري الأول: «السندباد» . .

- ٤ -

فجأة خذلته الحياة . . .

وبالرغم من كل ايمانه ، وصبره ، وعناده فانه وجد نفسه ، على حين غرة ، في عداد جيل ضائع . . . لعل « صدمة الواقع » كانت اكبر من طاقته على التحمل ، وقدرته على المواجهة. فحتى ثورته أصبحت « ثورة غربة ». وجد المعاني أمامه وفي محيط حياته قد تغيرت . . فأصبح اكثر قلقاً ، وأشد حساسية . . .

من هنا تولدت في حياته حالة حادة من التوتر وهو يجابه «قيماً جديدة » . . . وقد فقد أيامه . . ليجد نفسه في مواجهة الكثير من حالات الشك ، وأمام اكثر من تساؤ ل . . . فتبددت الطمأنينة من نفسه ، وتمزقت حجب الراحة . . . وحتى الايمان ببعض القيم اخذت جدرانه تتصدع .

هكذا وجد « خليل حاوي » نفسه ، مرة واحدة يقف على أرض كهذه ، مليئة بحالات التمزق والحيرة ، ولا تلقي في نفسه غير التساؤ ل. ربما لأنه كان الأكثر حساسية بين أبناء جيلة . . . ولأنه لم يدخل في عمليات المضاربة ، والمزاودة ، والمساومة التي دخلها كثير من الشعراء العرب والسبب في هذا هو أنه لم يكن يعرف للحياة سوى طريق واحد . . .

- ٥ -

لو أتيح لك أن تجلس اليه ، وتستمع الى ما يقول . . .

ولو عدت وقرأت القليل (نسبياً) الذي كتبه منذ نكسة حزيران ١٩٦٧ وحتى « تحرير حياته »، ستجد أنه كان وحيداً . . .

ولكنه اذا كان قد رأى « الهزيمة » في الواقع فانه لم يحسها ، أو يعشها في أعماقه هو (كذات مبدعة) . كل ما حدث هو أن المرارة ازدادت في نفسه . . كما ازدادت نقمته على أشياء كثيرة . . وفقد الايمان بكثير من ا لقيم . .

الا أنه ، بالرغم من هذا كله - على ما فيه من شدة وعنف - لم يرفض الانتماء الى مجتمعه - وان اعلن الثورة عليه والرفض لقيمه المستعارة . . .

وهكذا كانت « الرموز » عنده تتبدل مع هذا الاحساس بالتغير . . . فمن « السندباد » - رمز البحث والمغامرة - الى « سدوم » و« اليعازر » - حيث القيامة - الى « صالح وثمود » - حيث البحث عن « التكفير » و« الغفران » . . .

- ٦ -

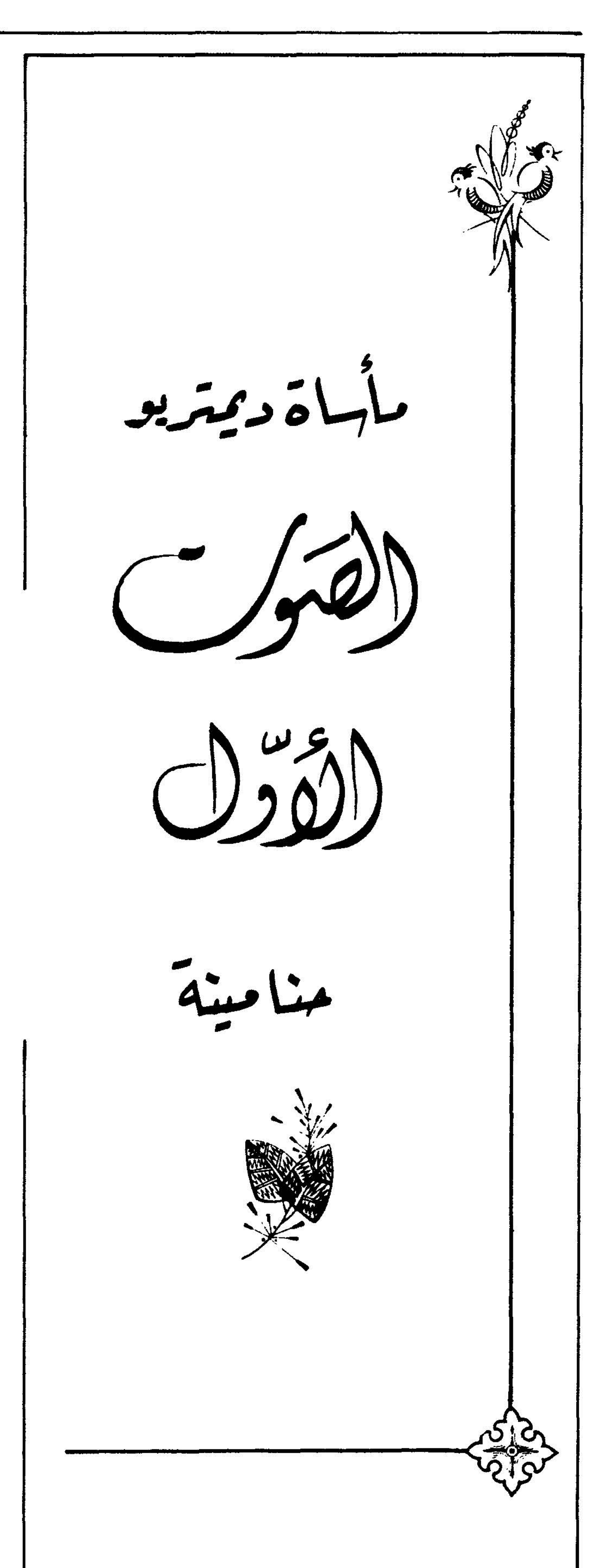
إن تلك الريح التي هبت قوية لم تكن تريد لاعصارها ان يهدأ . . .

ولكن حين بدأ « فعل الكلمة » يتضاءل . . . يضمحل أو ينتهي . . . فماذا يفعل من لا يملك سلاحاً سواها ؟

هناك اليأس الذي يتهدد الحياة بالانهيار . . .

فماذا يفعل من اراد أن يخلق للحياة معنى متجدداً ؟

لقد كابر . . وتصاعد . . وارتفع الى أعلى ما في الحياة من صدق، وانغمر في أكثف ما في العاطفة من توهج . . . ومن هناك تحدى كل « الوقائع الزائفة » . . كل الوحشية . . . وكل الاستلاب ، الذي يجري اليوم ، لانسانية الانسان . . معلناً صدقه مرة واحدة . . فأكسب حياته قوة في موقفها الموضوعي من كل ما يحيط بها .



مأساة ديمتريو

الصوت الأول

حنا مينة

صوت ـ ١

لا يمكن
لا يمكن
لا يمكن

« يا ديمتريو ، أقول لك لا يمكن ، أتفهم ؟ للمرة الألف ، هذا الشهر ، والذي قبله ، قلت لك لا يمكن ، أتفهم ؟».

صاح ديمتريو الآخر : « أنت تكذب أيها الوغد، يا جوّاب الآفاق ، تكذب وتعلم أنك تكذب ، فلماذا تتظاهر بما لا تؤمن ؟ حدّق بوجهك في المرآة . . ألا ترى وجهك ؟».

عبر المرآة، حدّق ديمتريو بديمتريو ، تحديقة خصمين متباغضين ومتلازمين ، حسناً ، قال أحدهما للآخر ، اتفقنا أنه لا يمكن. يجب أن نجزم ، هذه الليلة ، والى الأبد ، بأنه لا يمكن . لقد اقتنع كلانا ، باستحالة ذلك ، ومن الغد تتحوّل هذه القناعة الى سلوك ، كالذي كان ، قبل أن تكون هي ، قبل أن يكون اللقاء.

وفي هذه اللحظة، شعّ شيء ما ، في الجانب الأيسر من الصدر ، وترك إحساساً بالاختلاج كما يحدث تحت تأثير نزق عصبي ، عقب فكرة تمرّ بالبال ، أو صورة تهزّ الخاطر ، وللتأكد من السلامة مدّ ديمتريو الواقف امام المرآة، وكذلك دميتريو الذي في داخلها ، يده الى الجانب الأيسر من صدره وانتزع لفافة ورقيّة على شكل قلب ، فتحها ، ثم تحوّل الى المصباح ونظر فيها ، وإذ لم يجد شيئاً داخله سرور وراحة ، فراح يطويها ليعيدها الى مكانها ، فلما فعل ، لمح ظلالاً عليها . كانت في الورقة خطوط رفيعة لا تكاد تبين ، تزداد ارتساماً كلما ازدادت اقتراباً من الجسم ، وامّحاء كلما ابتعدت عنه . خُيّل إليه للحظة أن الخطوط المستقيمة تنحني وتتلاقى في زاويتين حادتين جداً ، ثم ترتعش الخطوط، وتتجسم، ويرف من فوقها ألق ذكره بما كان قد رأى، يوماً، على ثغر المجدلية . وسمح الألق لنفسه بالانقسام لتتشكل من كل قسم شفة بلون زنبقة الحقل، تنفرجان عن أسنان برمرمية، كحصاة تحت رقارق بحيرة جبلية ، والحصاة تومض بهاء أبيض، حين تنشمر الشفة العليا ، مظهرة نتوءاً وردياً من اللحم الذي يصلها باللثة، ثم تتكور، في تقوس بدري، لتغدو، مع الشفة السفلى، محارة مرجانية تنشق عن تلك الحصاة اللؤلؤية .

صاح ديمتريو : «إنها هي إنها هي!» وأغمض عينيه مستسلما الى النشوة التي بعثتها الرؤية ، شاعرا ، الآن ، بالعجز ، عن مقاومتها. لقد تضعضعت إرادته . والقناعة التي توهّم انها حصلت تزعزعت ، وسلوكه من الغد، لن يكون كما كان، قبل ان تكون هي، قبل ان يكون اللقاء.

فتح عينيه خائفاً ، كارهاً أن يرى ديمتريو الآخر في المرآة . سيصيح به : « أيها الوغد، يا عازف الكمان المتشرد ، أتحسب أنك قادر على التمويه الى الدرجة التي تخدعني بقناعتك الكاذبة ؟ إذا كنت صادقاً ، فامح ما على ورقتك التي اخرجتها من صدرك ، وعندئذ فقط يتحول سلوكك كما كان ، قبل أن تكون هي ، قبل أن يكون اللقاء، وتعود ورقتك بيضاء، كما كانت قبل الكتابة ».

نظر ديمتريو الى ديمتريو في شكاة صامتة: لماذا تتهمني ؟ أنت تعلم أنني لم أكتب شيئا على هذه الورقة، ولم أرسم عليها خطا، صدقني، اقسم لك فصدقني.. حسنا.. أنت لا تصدقني، أنا نفسي لا أصدق نفسي، فما دام على ورقتي رسم، فلا بد أن يكون ثمة رسام، هذه بدهية يا توأمي، يا ذاتي، وأنا لا اجادل في البدهيات، لست سفسطائيا، ولا خياليا، واقعي أنا، واقعي أكثر مما يجب. ولم يخطر لي أن انقض المسلمات: واحد مع واحد، والخط المستقيم، والعلة والمعلول.. كل هذا صحيح، وقد عشت على الايمان بهذه الصحة، ولكن الرسم، على ورقتي، لم أرسمه أنا.. الألق المجدلي، الحصاة المرمرية، المحارة المرجانية، والشفاه التي بلون زنبقة الحقل، لم ارسمها أبدا، ولا استطيع لو أردت، وصاحبتها لم ترسمها أيضا، لا أنا ولا هي، كلانا بريء كلانا يقول لا يمكن، والمنطق يقول لا يمكن، والعقل يقول لا يمكن، ومنذ أبصرتها قلت لا يمكن.

توقف ديمتريو عن دفاعه ليستزيد من قدرته على الاقناع. استشعر تصاعدا في طاقته المعنوية، وكمن يحلل نفسه، خيل اليه أن كشفه عن جذور عقدته قد وضع في يده امكانية حلها. صار واضحا الآن ان الحل رهن بانتصار ارادته على عاطفته، وكان معتداً بتلك الارادة فأضاف: «اؤكد لك يا توأمي أن الأشياء ستكون كما أريدها. واذا كانت عاطفتي قد ربحت على ارادتي، فان ارادتي لاتستسلم للهزيمة. انها تصارع.. انا اصارع، لأنني مقتنع. ومن الغد احول قناعتي الى سلوك، كالذي كان، قبل ان تكون هي، قبل ان يكون اللقاء، وتعود ورقتي بيضاء، كما كانت قبل الكتابة.

كانت امامه، على الورقة، ابتسامة. تناول ممحاة واستعد لمحو الابتسامة، لكنه احتار من اين يبدأ، ما يريده هو اطفاء الألق المشع في تلك الابتسامة، وسيفعل بغير تردد، وكل ما عليه، لكي ينجح، ان يكتشف منبع الألق، وينقض عليه بممحاته، فيزيله ويستريح.

ايها السيدات والسادة، يا من عانيتم كما أعاني، هل تعرفون، في ثغر شفتاه بلون زنبقة الحقل، وتكويرته اللوزية محارة مشقوقة عن حصاة لؤلؤية، من أين ينبع ألق الابتسامة ؟ أنا واقعيّ يا أهل مملكتي، منطقي، أومن بالعلة والمعلول، والرسم والرسام، وأعرف مثلكم، ان الألق سراب، لكنني بخلافكم ابحث عن سره، فهل اهتدى احد منكم الى هذا السر، واستطاع ان يمحوه ؟

تشيرون الى الشمس؟ الم أقل لكم انني واقعي ومنطقي ؟لا،لا، الشمس لا يطفأ يا سادتي. ستنطفىء هي لذاتها يوما. وهذا بعيد، بعد ملايين السنين، وأنا أسألكم عن شمسي، عن الابتسامة التي في ورقتي، من أين ينبع لألاؤها ؟ بين الشفة والشفة وميض برق، فمن قبض منكم على وميض برق؟ ثغر دليلة كانت له شفتان ايضا، بينهما لذة وسم، وثغر الجوكندا له شفتان، تنث منهما قداسة. شيء يدعو الى الراحة والطهر، وهذا المرسوم على ورقتي، يختلف. لاسم ولا ترياق، زاويتا قوسين شفويين، ينفرجان عن ابتسامة، وابتسامة تضيء، وأنا أبحث عن مصدر الضوء، عن سره.

« حسنا - قال ديمتريو - سأمحو الشفتين معا، ما دام منبع الألق محصورا فيهما ».

قالها بتأكيد، وقد استشعر حاجة، كنداء الثأر، الى محو الشفتين اللتين امامه على الورقة، فلما رفع رأسه فجأة ونظر في المرآة، التقى ديمتريو الآخر، الذي سأله بهدوء وتهكم:

- ماذا تنتظر ؟ تخاف ؟ يا لك من جبان، آه يا توأمي العزيز، أنت تخدع نفسك في غير طائل، ولو أدركت أن ما تردده من عزم على محو الابتسامة وهم ينشد عزاء مسكينا لأرحتني واسترحت.. الق بالممحاة من يدك. القها وامض غدا، كاليوم، كالأمس، في سلوكك المألوف، العاجز، التابع فالذين يمحون أقدار البسمات والعبرات، يملكون اصابع غير اصابعك.

نكس ديمتريو رأسه معترفا بصدق وعدالة هذا الحكم. لم يكن بحاجة اليه أصلا، فهو يعيش منذ شهور، يبني الهيكل في المساء، وينقضه في الصباح، « آه يا آلهة اليونان - هتف - صخرة سيزيف ارفع؟ أنا لم افش سر النار، ولم أعشق آلهة من الأولمب. وما أنشده بسيط: قضاء ما تبقى من رحلة العمر في هدوء وسلام، بعد أن ودعت الصبا وحسبت ألا معاد، فالشجرة قد دب فيها اليباس، لست بستانيا، ولا أعرف أن الشجرة تخضرّ بعد يباس، وها هي الشجرة تخضّر بعد يباس ».

كم يدوم هذا؟ لا تسألوا.. المعجزة تحدث أحيانا، واذ تحدث، في غير أوانها، تكون معجزة المعجزات. وعلى فراش الموت، قبل الغروب الأبدي، دعاني يوما رجل وقال لي: « اعزف شيئاً من ألحانك ياديمتريو، احس ان زهرة جديدة تتفتح على غصني » قلت: « سمعا يا سيدي » ولم أعزف، حسبته في هذيان النزع، وتهيبت دموع الأهل، لكنه مد يده النحيلة، الصفراء، المعروقة الأصابع، وأمسك بيدي وقال: « ديمتريو! الحطاب آت لقطع الشجرة. اسرع. ساعد زهرتي الأخيرة على التفتح قبل أن يفوت الأوان. انا سعيد يا ديمتريو لأن شجرتي ستقطع وهي خضراء. كذلك اردتها وكذلك كانت واتمنى لشجرتك أن تكون مثلها، كما أتمنى لك، من بعدي، طول البقاء، ولكن اتمنى لك بقاء أخضر، يزهر حتى النهاية، فهل تعزف قليلا كرمى لخاطري ؟».

عزفت..

كماني تبلل بدموعي. ترطب الخشب وصار أرخم، صار اعمق. وأزهر الغصن، واللحن أزهر، ومضيت أعزف، دون انتقاء، دون عناء. أحسست أن زهرة ما، في داخلي، تتفتح

ايضا ، وأن الربيع قد ألغى الشتاء، وانه يجري في يدي وقوسي وكماني ، وجدت في نفسي شجاعة فائقة على مقاربة الموت ، على ملاقاته . صار الموت انعم ، مخملي الملمس ، ومرّ بقربي ، وحطّ على صدر صاحبي ، وتسلّل اليه رفيقا، هادئا ، كالنوم عقب النعاس، ولم أشعر بشيء. ولم أع ما حدث الا عندما تقدّمت زوجته وربتت على كتفي قائلة :« توقف يا ديمتريو . .قضي الأمر» . .

نظرت الى الرجل . . كان يبتسم وقدمات. الشجرة الخضراء ظلت خضراء حتى قطعت.

وقد نسيت الرجل وأمنيته مع الأيام . لم أكترث لما قاله وهو على الخط الدقيق الفاصل بين الحياة والموت . ذلك أن امر الشجرة لم يعنني كثيراً . فحبي الأخير ، كايماني القديم ، كغصني الذي كان مليحا وانثنى ، كصورتي يوم لا بياض ولا غضون ، كموداتي التي سلفت ، كولدنات يفاعتي التي يبكي عليها وقار كهولتي، انقضى، مضى، خلفني وحيدا امام النار المنطفئة ، امام العدم القاسي الزاحف نحوي بعيون باردة . ولم اكن ، يا اخوتي، صانع معجزات ، ولا ساعدت، مرة، معجزة على الحدوث، وحكاية الاخضرار بعد يباس لم أحفظها، لم تكن لي علاقة بها ، انا الذي عرف الهوى حتى ملّه، لأنه ابدا لم يروّضني ، لم يحتفظ بي أسيرا في قبضته، ولا جعلني أتألم حتى البكاء.

ولأني نشأت محروما من نعمة الألم في الحب فقد نبذته ، خيل الي انني تجاوزته ، او أنني لم أعرفه ، لأنه ، حين كان يأتي ، خفيفا كالصداع الذي يداوى بحبة مسكن ، أو كالشهية التي تخمدها لذة وجبة ، كنت أغمض عيني وأنام ، وكان الصباح كفيلا بأن يجعل في الماضي ، ما كان مساء في الحاضر ، حتى اذا بزغ نجم جديد، كان يكفي ان ادير له ظهري لأنساه ، أو أدخل بيتي حتى لا يعود له تأثير في.

وحين رأيت هذه الابتسامة ، ذلك اليوم ، حسبتها احدى تلك النجوم البعيدة ، التي يضحك من حرارتها السائر في الصحراء. غير أني كنت مخطئا، وأنتم تشهدون على خطئي ، وأنا أرغب في محو هذه الابتسامة ، وأنتم تشهدون على فشلي ، فمن منكم يدلني على مادة كيمائية تعيد ورقتي بيضاء كما كانت؟ الزمن تقولون ؟ لا . . الزمن يحيل الأشياء الى ذكريات وأنا ألعن الذكريات ، أمقتها ، أمقت ومضة الاسترجاع هذه، التي تعيش فيها الكفّ الخالية على وهم ما كان ، وينضفر الجسم ، في شراسة ليالي السهد ، على أشباح اجسام .

وحتى لو ملكتم هذه المادة الماحية ، وجربتم أن تساعدوني، لما غفرت لكم بقية عمري . . لا تصدقوني اذن، انا ديمتريو الذي يعيش مأساته المروعة . إن ذاتي لا تصدق ذاتي وديمتريو الآخر لا يصدقني، يصيح بي : « كُفّ عن عبثك . توقّفْ عن محو ما في ورقتك ، وأعدها الى صدرك ، ثم احمل كمانك واذهب الى تلك السيدة واعزف لها أناشيدك ».

توقف ديمتريو عن عملية محو الابتسامة . كانت يده ، في أصابعها الثلاثة المضمومة ، قد حكت الورقة طويلا فتصلبت شرايينها . ولم يعاود النظر في المرآة . أحس بعداء نحو توأمه الذي سيطالعه فيها . كان هذا التوأم بغيضاً بقدر ماكان حقيقيا ، كان شاهدا لا يمكن حذفه ولا خدعه ولا اسكاته . . وفي فترة الاستراحة ، ريثما يعود الدم الى الأصابع المتيبسة ، راح ديمتريو الآخر يتحدث. . .

في ذلك الأصيل كانت السيدة تقرأ في كتاب . وكان زوجها يعالج طائراً مكسور الجناح .وكنت أنا اعلم طفلها العزف على الكمان . . لقد استدعيت لأداء هذه المهمة وقبلت ، وعبرت الصالون الى الغرفة ، وبعد الانتهاء عبرته الى الباب ، وحييت بأدب وخرجت لم يبق في ذهني، ذلك الأصيل من هيئة البيت سوى البوق من قرن الايل ، وموقد الحطب ، والزوج الذي يعالج طيرا . وفي الدرس التالي ، حين عبرت الصالون ، كان الزوج في مكانه والزوجة على النافذة فأعطيت درسي وانصرفت .

انقضى على ذلك اسبوعان ، فلما كان الثالث، سمعت ، وأنا أهم بطرق الباب ، عزفا على الكمان . كان النغم شجيا ، ينداح تحت قوس رشيق، ليس لتلميذي بأية حال . تريثت في الدخول . فلما خفت وقفتي المتنصتة، طرقت الباب ودخلت . كانت السيدة تسرع في ايداع الكمان صندوقها ؛ كأنها ترغب عن معرفتي بعزفها ، توقفت على العتبة لأخلع الواقي المبلل، واستقامت السيدة من انحنائها على الصندوق، ونظرت الي مبتسمة متسائلة : هل سمعت عزفي ؟

الوجه باسم، فيه مزيج من كبرياء ووداعة . ولونه الوردي يشف عن عذوبة جارحة ، والعنق الى طول ، والشعر ذهبي ، مرسل ، وعيناها مضيئتان ، وسطهما نقطة عسل أصهب .

كانت، هي الأخرى، في نهاية الصيف ، في الزمن الذي ينضج فيه العنب ويعتصر . وكالخوخة الصفراء، في عزّ الاستواء، شهية ومثيرة ، وشيء في المقلتين ، كالرضاب ، كالالتماعة في العين الشبقة ، يغزل بوحا ساكنا ، صارخ الفتنة .

حسناً كل ذلك رأيته ، وربما تخيلته ، في تلك الليلة ، وانا تحت تأثير اضطراب لا أدري أكان مبعثه عزفها أم وجهها ، هذان اللذان ، في السمع والبصر ، أيقظا احساسا مبهما من الاعجاب والرغبة، وأحدثا ما يشبه الهزة التي تتشقق لها قشرة الأديم النفسي فتنبجس الأشواق في اندفاعة عفوية.

لقد سبق ورأيتها فلم أتأثر ولم أضطرب . طوال اسبوعين وأنا اتردد على البيت لاعطاء الدروس ، فكيف حدث ولم يلفتني وجهها ؟ هل كان ذلك لأنها كانت مستغرقة في كتابها ، حاجبة عني ملاحتها ؟ ولماذا لم استلطفها في المقابلة الأولى ؟ الأنها لم تكن واقفة؟ ألأنها لم تنظر الي؟ أو لأنها لم تبتسم ؟ يا سيدتي لماذا ابتسمت اذن؟ انا لا أتهمك ؟ أسمعت يا ديمتريو، يا توأمي ، انا لا أتهم

السيدة لأنها ابتسمت، فهي لا تستطيع الا ان تبتسم ، وأنا كذلك ، لا أتهم نفسي . انا لا أفعل شيئاً يا ديمتريو، ولم اشعل قنديلا على شجرتي الخريفية .

دعتني الى اخذ حظ من دفء وكوب من شاي . وقال زوجها مؤيدا دعوتها : « نعم، هذا ما يجب » فقبلت شاكرا ، شاعرا ان لطفا كبيرا يحيطني ، ثم سألتني عن اشياء، وأجبتها بأشياء، ولما أعطيت درسي وخرجت ، تلفتّ بعفوية الى الباب . أحسست فراغا قد حدث، ولهفة الى العودة تشهّت، وطغت صورتها على موقد النار وقرن الايل ولم يعد رعي الماعز في الفلاة تشردا حرا ومرجوا لجواب الآفاق . لقد تدجّن الحيوان البري، وصار ينتظر موعد دخول المدجن بحنين لاهف . وفي الليل طفقت الابتسامة تطل، فأدركت بفرح وأسف ، أن قدري يوشك ان يقول كلمته ، وصحت في محاولة للردع ، هذا لا يمكن ، ومنذ تلك الساعة وأنا اصيح لا يمكن وسأظل اصيح، حتى النهاية، لا يمكن . . .

سكت ديمتريو الذي في المرآة ، واستأنف ديمتريو الذي أمامه عمله في محو الابتسامة ، كان يعمل ، الآن ، مدفوعا برغبة لا تقاوم ، في ازالة الابتسامة عن ورقته، لكي يعيدها الى مكانها ، ويذهب الى فراشه فينام ، كما في الأيام الخوالي ، بغير قلق ولا انفعال .

ساعة. ساعتان. ثلاث. . كلت يده اليمنى فجرب اليسرى. عاد الى اليمنى ثم الى اليسرى. . . ظلت الابتسامة في موضعها من الورقة . هي لا تظهر ، لا تختفي ، لا تتحرك، لا تتثبت . يحسها اذ يراها ، ويراها اذ يحسها ، ويعذب نفسه حتى التلف ليجنبها الوقوع في حب بغير جدوى.

تهالك أخيراً تحت ضغط اعياء شديد، دخل في الدائرة الحلزونية المقفلة للجنون الواعي ، فتوقف، وهتف من أعماقه :

ـ وبعد . . . لماذا لا انتهي او اموت ؟

واجابه صوت من المرآة :

ـ لأن الموت راحة ، وبينك وبينه مراحل بعد . . لا تتعب ، صخرة سيزيف لن ترفع بهذه الطريقة ، لقمان الحكيم ، ايها الغبي ، هتف بتلميذه وهو يعالج الورم : عليك بالنار يا حمار . . إكوِ . . أحرق ، الحق الأصل .

قال ديمتريو متوسلا : «اعد علي ما قلت يا توأمي العزيز . . أنا لا أفهم . . انا في حال لا تسمح لي بأن أفهم . . اسمع ولا أفهم، فترفق بي، وقل لي، ماذا أفعل ؟ أين الأصل وأين الفرع ، وما شأن حكيمك الفاني فيما انا فيه من بلاء؟» .

تحركت الورقة ، أمامه ، وندّ عنها صوت يقول : « انا هو الفرع » وخشخشت ورقة ما ، في رأسه ، وندّ عنها صوت يقول : « انا هو الأصل » فنظر ديمتريو الى ديمتريو وتنفس بارتياح ، كمن ألقى عن كتفه جبلا من الصوان، وقال متواضعا : « الآن فهمت . . . شكرا . . لقد فهمت . . كان علي ، منذ البدء أن أفهم ولكن حالي كما ترى، اعذرني » .

لف الورقة على شكل قلب وأعادها الى مكانها . ماذا ينفع الانسان أن يمحو اذا كان ثمة من يكتب ؟ الدماغ يملي والقلب يملي عليه ، وبدون اصلاح الدماغ لا يمكن اصلاح القلب. تلك بدهية يا ديمتريو، وأنت مولع بالبدهيات. تأمل كيف فاتك ان تلاحظ مسألة بهذه البساطة لا تضيع الوقت ، اترك القلب وعالج الدماغ ، احرق السرطان الذي هناك ، وعندئذ يشفى الأصل، فتشفى، بدورها، الفروع .

نزع طاسة رأسه، وأخرج المخ الهلامي، اللزج، فوضعه في صحن أمامه ، وتركه معلقا بالرأس بعرق كالمشيمة . كان يتوقع ان يرى فيه ندبة ما ، بثوراً ، ورماً ، فيعالجه بمكواة اللحام التي استحضرها . سيبرهن للقمان أنه ليس حمارا مثل تلميذه، وانه يعرف أن يحرق السرطان ويجرؤ على ذلك ، ثم يذهب في اليوم التالي لتعليم تلميذه، بسلوك كالذي ذهب فيه للمرة الأولى. غير أن مخه كان صحيحا . خاليا من كل أثر ، وكان على قلبه ان يكون صحيحا كمخه . هذا قانون الأصل والفرع ، وهو قانون منطقي الى درجة ان اختلاله سيكون اختلالا للكون ونهاية له . ماذا تفعل الآن يا ديمتريو ؟ حذار أن تعبث بمخك. قلّبه، هكذا، بلطف، بتؤدة. افعل ذلك مرة ، ومرة ، وثالثة . يئست؟ اذن أعده الى مكانه، وامض صباحا كما رجعت مساء، حاملاً تعاستك مرسومة بحبر لا يمحى. لا تقل بعد اليوم لا يمكن. . كل شيء ممكن حين نريده أن يكون ممكنا .

صاح ديمتريو بديمتريو : « ولكني لا اريد، قلت لك مئة مرة، لماذا لا تصدقني ؟ لقد تعذبت الليلة بما فيه الكفاية ، لأثبت لك بأنني لا اريد، افلا تسمع ما أقول ؟» .

قال ديمتريو: « بلى اسمعك ، ولكني لا أصدقك. أنت تريد ولا تعرف أنك تريد، هذه هي المشكلة، حدق في مخك واخبرني ما ذا ترى فيه » .

فعل ذلك ديمتريو فلم ير شيئاً .

ـ آه يا عزيزي! قال له توأمه . ما كل من له اذنان للسمع يسمع ، وما كل من له عينان يري، افتح ناظريك جيدا. فقد خلقا لكي يفتحا ، وخوفك أغشى عليهما . اهدأ. تمالك اعصابك . حين يكون في المخ شيء فلا فائدة من تجاهله . الأجدى ان يعالج ، ان يكوى ، أو يستأصل . لقمان ، قبل آلاف السنين ، أدرك هذه الحقيقة وعمل بها ، وانت تجهلها أو تتجاهلها . لا احد يصاب في مخه ويعالج من أطرافه فيشفى. اذا فسد الرأس فسد الجسم. عالج رأسك أولا واذا عجزت فاقطعه. هيا . . جرب مرة اخرى.

جرب ديمتريو ولم يفلح . لا شيء في المخ . ومع ذلك غدا واثقا

أن فيه شيئا . قال بتسليم :

ـ أنا لا اجد شيئا في مخي . فشلت في العثور على هذا الشيء وبحاجة الى من يدلني عليه، فهل تفعل؟

قال ديمتريو الآخر : أن أدلك عليه فهذا بسيط . احسب أنك تتكلم بشكل معقول الآن . يبقى أن العلة لا تزول بمجرد الاهتداء اليها . ولقد هديتك منذ البدء الى علتك بل انك تعرفها بنفسك وتتجاهلها ، تكابر في أمرها ، فأي أحمق أنت ؟

هز ديمتريو رأسه موافقا ، غدا أحمق في نظر نفسه ، هو مضيّع ومعطّل عن مواجهة شؤونه و مباشرتها . وهذه الليلة ، بالنسبة لعمره كله ، جديدة ورهيبة . ظنّه أن عالمه الداخلي جليّ، نقيّ، كغرفة مشمسة كحديقة حسنة التنسيق، وما صدمه وأوقعه في هذا الاضطراب، ان هذا العالم مليء بالكهوف والسراديب وأنه يجوس خلل ظلمات ، فكيف حدث ولم يفطن الى ذلك ؟ كان عليه، في اعوامه الطوال، أن يفتح رأسه ويعرض خلاياه للشمس .

ـ حسنا ـ قال ـ أنا مستعد يا توأمي ، فأخبرني أين هي العلة في مخي؟

ـ أنا لم أقل ان في رأسك علة .

ـ طيب، سرطان، ورم، تشوه .

ـ لا شيء من ذلك . .

ـ وماذا هناك اذن ؟

ـ انظر . . .

كانت على الجهة المقابلة من المخ ، شفتان تبتسمان فصاح ديمتريو: «يا إلهي ماذا أرى؟ ما ذنبي لديك ؟ ولماذا اذن، أعذب نفسي ؟» وباندفاعة مجنون ، رفع قبضتيه وأهوى بهما على المرآة، ليتخلص من السخرية القاتلة في الوجه المقابل . عندئذ حدث ارتطام ضج له البيت كله ، وتناثرت شظايا الزجاج مفرقعة على أرض الغرفة ، وانبجس من أصابعه وراحتيه سائل مشع ، ونفر من وجهه وعنقه وصدره وراح يتساقط قطرات على الطاولة والسرير والأرض، وأخذت القطرات تتفتح ابتسامات كالشموس الصغيرة ، تشع فتبهر عينيه، وكلما حاول ان يطفىء احداها ، تناثر السائل فتفتحت عشرات الشموس من عشرات النقط، حتى حاصرته من كل جهة ، وتداخلت اذ تكاثرت ، وتحولت الى لهب شمسي غطى ما حوله وانشأ يتدفق كالماء في قاع سفينة تغرق ، ويتصاعد ويغمر جسمه .

هتف ديمتريو بديمتريو:

ـ يا توأمي يا صديقي . . انا احترق . . أغوص في اللهب وأحترق، أنقذني . وكعادته، قهقه الآخر ساخراً ولم يفعل لأجله شيئا. عاد يصرخ به :

ـ ايها المسكين . . انفقت عمرك في طلب هذا الشي ، فلما صار لك خفته؛ وكذلك يفعل العاجزون ، يحبون ويخافون الحب ، يتكلمون على البركان ، ويضعون أصابعهم في اذانهم اذ يحدث، ويشتهون العاصفة، فاذا اقتربت ناحوا كطيور الزمج . . انت منافق مثل تاو ، ذلك الذي كان يحب التنين ، ويملأ بيته بصوره ، فلما خرج التنين من الصورة ، ولول واستغاث ، واستنجد بخدمه لقتله . . . بدمعك على أنين الكمان ، كنت تسقي شجرتك ، فلما اخضرت خفت اخضرارها . . خفت هلاكك فيها .

ـ ولكني أهلك . . انا الآن أهلك . .

ـ وستظل تهلك . . ستحترق كلك . . هاك اللعب يحاصرك . . ها هو على رأسك، في الجانب الأيسر من صدرك ، فوق كتفيك ، تحت قدميك ، يغمر قدميك ، يغمر ساقيك . . اهرب . . اهرب . .

صعد ديمتريو الى السرير فتصاعد اللهب السائل وأغرق السرير . قفز الى المكتب فاشرأب اللهب اليه . لم تبق الا الخزانة ، فارتقى سطحها ، واذ غرقت بدورها تعلق بالثريا ، وتطوحت قدماه كمشنوق ، وتشنجتا الى أعلى، في محاولة مستميتة للنجاة ، ولكن ألسنة اللهب ادركته ، فأطلق صيحة استغاثة وهوى، ثم قفز بكل قوته المتبقية ، نحو الباب . فتحه وفر هاربا ، تتبعه طاسة رأسه ، وقطرات الدم المتناثرة ، والشمس المتفتحة ، والسائل اللهبي جعل يعدو وهي في أثره ، وطفق يصيح ، ويبكي ، ويستجير، ولكن أحدا في الشارع ، والمدينة ، والمدن الأخرى ، لم يسمعه ، ولم يأت لمساعدته .

ظل يعدو هكذا أياما . واذ كان على احد المنعطفات ، واجهته مرآة مما يوضع لتجنب اصطدام السيارات ، فرأى صورته فيها ، رأى ديمتريو الآخر ينظر اليه شامتا ساخرا كعادته ، فاندفع نحوه هاتفاً :

ـ انقذني ! انقذني !

ـ وضج الفضاء بقهقهة كالرعد ، وسمع صوتا كالنذير :

ـ أيها الأبله ! . . أين المفر ؟ وكيف تهرب بذاتك من ذاتك ؟ . . انت تشتعل من الداخل ، ومن الداخل تنطفىء . . عد الى غرفتك ، واقلع عن المحاولة . . دع الابتسامة في صفحتك فقد ارتسمت وانتهى الأمر . ارتسمت لأنك اردتها ، وهي باقية لأنك تريدها ، وخوفك منها لن يزيد الا في تأججها . أنت تصرخ بشفتيك : « لا يمكن » وتضمر في سرك : « يمكن » وهذا فلن تتحول قناعتك الى سلوك كالذي كان ، قبل ان تكون هي ، قبل ان يكون اللقاء، ولن تعود ورقتك بيضاء، كما كانت قبل الكتابة عليها [1] .

---

(١) الفصل الأول من رواية «مأساة ديمتريو» تأليف حنا مينه، تصدر هذا الشهر عن دار الآداب .

بضعة أسئلة لاحتفال ما

مصطفى خضر

إنه الصوت الذي يذوي ، ويطويه ربيعٌ من رصاصٍ ،
فتبوح الغابة العمياء في سرب دمٍ ، ظلّ عصافير ،
وفي زهرة حبٍ أو حنينْ!
هذه الوردة في صحبتها النخل الذي يخفي التويجات ،
وهذا الطفل في صحبته الخبزُ ،
وذاك القمر الأسودُ يجري نحو جغرافيّة الحربِ ،
يضيء الشجر الأسودَ في بادية العُرْب ،
وفي مؤتمر الأسماكِ ترتاح الشباكْ!
فلماذا انتثرتْ أمسِ شفاهٌ، قبلاتْ
ولماذا تتعرّى في العشيّات عصافيرُ ، وتهوي كلماتْ
ولماذا تتجلّى لنا في الحضرة أشياءُ ،
وتبكي أمهاتٌ ، شجراتٌ . . .
هذه البذرةُ تهبط في ثلمٍ من الشّعبِ ،
وما زالتْ تهرّ الأغنيات
في احتفالات الفم الأعمى ، ويخضرّ الرنينْ!
هذه البذرة صوتي أم نداء الآخرينْ!
إبتدأنا بانكسار الماء والأرض ،
وكانت شهبٌ تسقط في القلبِ ،
وتمتدّ سماء المئذنهْ
تدخل السرداب في تنهيدة النسوةِ ،
إذ ترتّب صمت الفاتحينْ!
إنّه الصوت الدفينْ
صاغ بالأمس ـ رماة الوقتِ ،
أم أن المهارى خلفت فارسها الميتَ لدى قيثارة الأمس!
ينا م العاشقُ المذعورُ في السنبلةِ!
الطّفلةُ في أغنيةٍ سرّيةٍ تسعى .
وتلك الخيل تذوي في رمادالأمكنهْ . . .
ما الذي ينهضُ في الداخلِ ؟
تنهارُ شبابيكُ من الخبزِ ، وتبكيْ سوسنهْ
وكوى الصبح الذي يشرقُ في زوجي سوادٍ
في خلاصات حليبٍ وطحينْ
كان يمتدّ مبيضات من البترول !
فاشْكرْ هذه الأرض وذاك النبضَ ،
ولتحمدْ ذراري التربة العمياءِ أرضاً مؤمنهْ
آه ! واحمد هذه المملكة ـ الأقبية ، القنبلة الكافيةَ ،
المحكمة الراضية ، الدهر اللعين !
فبقايا الأرضِ تجري نحو جغرافيّة الجوع ،
تعرّينا : جموعاً وشعوباً . . .
وانتظرْ إن هبّتْ الريحُ شمالاً أو جنوبا
وانْتظرْ بين العبادْ
لحظةً اخرى ورؤ يا هينةْ!

* * *

ما الذي يحمله الوقت الدفينْ؟
صرخةٌ في ظلّ أنثى ، وهج نارٍ ،
وعصافيرُ عناقٍ لانهائي ، وركب من سهادْ!
ترحل الوردة في نهر ، وترتد حصاةْ
يرحل الشّعر ، ويرتد جروحاً مثخنهْ . . .
وتعودينَ ضفافاً وحكاياتٍ من الطينِ!
وما زلتِ هنا ترتعدينْ
وهنا تغتسلينْ
سنةً بعد سنهْ!!
إنهم في حافّة الصمتِ يعودونَ ، ولا تقتربينْ .
يمتطون الغبرةَ الزرقاءَ ، في الصدر سيوفٌ صدئتْ ،
وخصور النسوة الهيفِ مرايا من غبارٍ
والسماواتُ قناديلُ من الديدانِ ،
والصوت النهائيّ : شظايا كلماتْ!

إنه صوت من البذرة يذوي،
إنه يخرج نحوي.
إنه يبحث عن سرّي الدفين.
وطلول النّاس ترعاها حرازينُ من الشّعرِ،
وتأوي في بقاياها خلايا وعظام ونباتْ.
فاعْبري في يرقات الموتِ،
هذا هيكلي العظميُّ أم فوّهةٌ عمياءُ، والوقت سجينْ.
يتآخى والدم القادم من باب لبابٍ في النوايا الحسنْة!
إنني أبحث عن نفسي، ونفسي من ترابٍ.
وأراها فرساً تجمحُ، والحزن الذي ينبت جهراً.
يمسح السرَّ الذي تحمله سنبلةُ الصلصالِ...
آهٍ! يا ليالِ: تظلمُ القبلةُ في الوردةِ،
والنهر الذي يحبسه الماءُ يحلّ النارَ في صدري،
فمن أين يجيءُ السكْرُ، أو ينتبه الشِّعرُ؟
(غداً يأتي انْتهازيون يسطون على النّارُ
وأقدام رعاة الكتب الصفراء، فرسان مرايا ضجة الإعلانِ
عن دينونةالإنسانِ ما زالوا هنا ينتشرونْ
يحملون الزّهر الأسودَ في صالات موت الشعر،
في عرس الجحيم الأمريكيّ، وما زالوا هنا يحتفلونْ!)
وعصافيرُ من الحزن بعيدهْ
تعبر الأوراق، والشعر وحيدٌ في الممرّات الوحيدهْ
تتآوىٰ ظلمٌ أو أضرحهْ
والذراري في البراري.
في سماء المذبحه
وتضمّين انكساري وانتصاري.
وأنا بين شهيدٍ وطعينْ!

* * *

كنتُ بالأمس هُنا أبحث عن نفسي الطريدهْ
ثم يعدو خلفنا ليلٌ مليءُ بكلابٍ ومدى سوداءَ...
(هذي الريح سوداءُ، وهذي ضفّة الأسماءِ سوداءُ،
وأنثى المطر المذكور تجري مذعنةْ
هذه الأفواجُ سوداءُ، وتلك الخوذ الخضراء سوداءُ،
وتلك الكائنات ارتعدتْ سوداءَ...)
هل ترتفع الراياتُ أم ترتفع الأضواءُ؟
والعذراءُ في نهدين مقطوعينِ تذوي قربَها الأرض الشريدةّ!
إنني أبحث عنها، انها تبحث عني...
هل تقولين: هنا السرُّ، فلا ينكشف القهرُ!
هنا أدمنتِ نسج الصّوفِ في صمت الرماة الجوفِ...
تنمو في زوايا هيكلي العظمّي بلوىٰ مزمنة!
إنني أبحثُ عنها تحت أقواس البلابلْ
ومصابيح عيون العابرينْ
انها تنمو عن الحدِّ، ولكن في هياكلْ
آه! يا بوصلة الفحم، ويا تسريحة الكلسِ،
ويا قيثارة الماء السجينْ -
ما الذي ينبت في أرض شعوبٍ وقبائلْ!
أي أوتارٍ من الطين أراها تتمرأى في سلاسلْ!
أي أغصانٍ هنا تثغو، وأوراقٍ من الثلجِ
تغطي الجسد الهارب في شعرٍ وعينٍ وجبينْ
بعد أن كان يقاتلْ!
إنه صوت من البذرة يخفي الزهرة الأولى،
ويخفي سمَّ أسنان الهواء الآدميْ!
أي صوتٍ كان في عينيك؟ مرّي في احتضاري الداخليْ
أي صوتٍ كان يسعى في الضمير البدوي
وهو في خيمته الأولى، وفي خيبته الأولى، سجين
يرقب الأعداء في رحلته الأولى، وفي رحلته الأولى
تضلين وحيدة...
تحمل الريحُ التي تصفرُ في قمحك أسمائي،
وفي ضجّة فخذيك يبوح المطر الأخضرُ
هل كنتُ قريباً منك؟ هل كنتُ بعيداً عنكِ؟
اسرابٌ من الأطفالِ حنجرتي حلّتْ، فهل تقتربينْ
من جنونٍ في نشيدٍ، من نشيد في جنون يتردّدْ!

* * *

إنه صوت من البذرة يصعدْ
وشعوبٌ تدخل التجربة:
الأمعا والأفواهُ ملأى، راضيهْ...
الفم المر، الدم المر، الغد العريان، اسودْ
والكوى البيضاء في مدرسة الإسمنتِ،
في كلس زقاق الروح كانت تتنهدّ!
فاعبري صمت اللقاحات الحزين

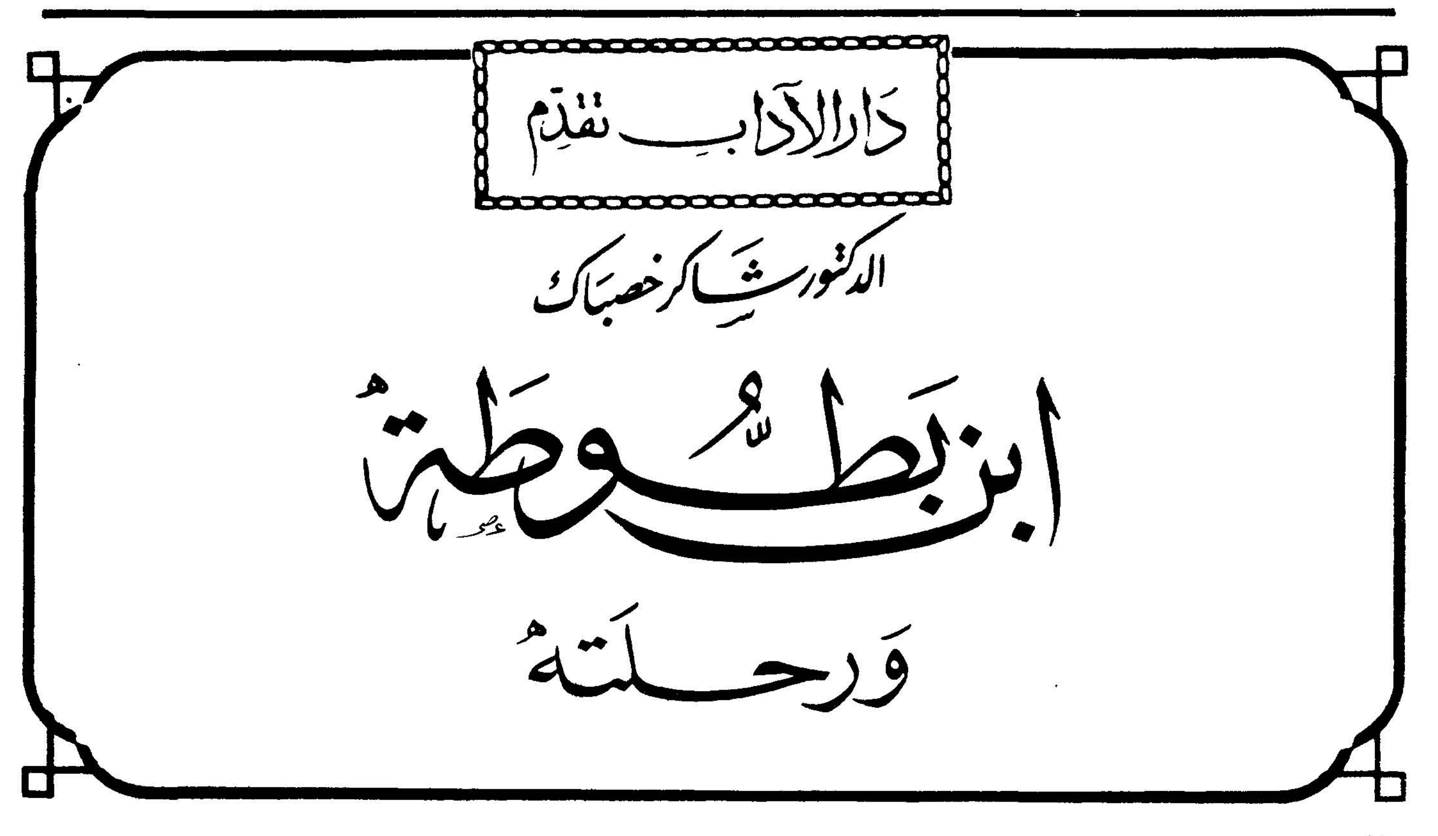
في صباحات العروش الخاويه!
أترى تنتظرينْ.
أن يعود الميتُ والنعشُ قريباً،
وقريباً يتهاوى العرشُ. من يحمله النَّعشُ غداً.
يقتربالشعبُ أم الجندُ، وهل تلك بقايا دولة أم ثورةٌ،
والصبح في الرؤ يا يبينْ!
ما الذي يحملهِ المعدنُ إن لم يبدأ الممكنُ،
هل كنتُ أنا الركب الذي يظعن، أم كان المدى يذعنُ
للقتْل،
وأفواجٌ من الموتى بلا قبرٍ. وهرّتني كلاب الملكِ
أم ضيعّت في نافذة الشكِّ حضور النَهرِ أم ضاعَ
اليقينْ!
ما الذي يفعلهالشعبُاذا لم تأذن الحربُ،
وهل كنتُ أنا القمح الذي يرحلُ في مملكة الجوعِ،
أم الأطفالُ في ضاحية النَّوْعِ
يهبّون عصافير من الأسئلة!
البركانُ هل يقبلُ، ام يحمله العرْبُ!
وهل كان الذي تنتظرينْ!
طائراً أم أجنحه
في سماء المذبحه؟
هل تناسخنا هنا حقاً؟.
وهل كان لنا الفتح، أم الشعب الذي يصحو،
وهل عادتْ اليكِ الأضرحه
في عشايا الفاتحينْ!

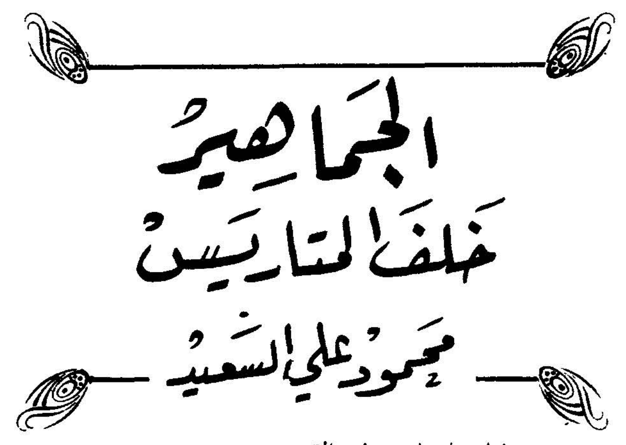
* * *

إنه الصوت الذي يذوي غداً
بين انكسار وانكسارْ
فاخرجي من جثّة الوقتِ،
اخرجي، واقْتربي باللحظة المشتعلهْ!
كان فينا الحاكمُ المحكومُ في القيد يخطّ المهزلهْ
ويربّي القنبله
لانفجار المطر الأخضر فينا،
لانفجار البذرة العمياء فينا،
لانفجار الثمر القادم فينا...

هكذا يكبُر في الأضرحةِ الأطفالُ،
أو يهوي رماد السَّالفينْ
هكذا كانتْ عصافيرُ تضيء الأسئلهْ
في عيون ووجوه وحضور واحتضارْ
فأرىٰ الفتْحَ المبينْ!
أيّ فتحٍ... أيّ رؤيا مقبلهْ!

حمص - سوريا





شاسعا مثل صيف القرى
مشمساً في الصباح
مقمراً في المساء
خيراً مثل حنطة الجليل
سيداً مثل قمة الجبل
فارساً كان وقلبي نجمة
تسرق الطرف وقت اشتعال الأصيل

● ● ●

شامخاً مثل بيروت
آن اختناق الحصار
رجلاً يرفع اليسار
بيرقاً في يد شلّها الموت
فانتفضت من الرماد الإرادة
والجماهير خلف المتاريس في صيدا
تصفق حتى حدود العبادة

● ● ●

أيها الرجل الجنوبي يا مجد الرصاص
خندق أنت وقلبي أسطوانة
أيها الرجل الفلسطيني يا كلَّ الرجال
مرج هذا العالم الممتد
في شريان عينيك يباسٌ
وسروري أقحوانة

● ● ●

يا يسار الرونق الشمسي
في غسق المدينة
لم تعد تجدي السكينة
شعلة التاريخ يختنق المساء
على ابتسامتها الأخيرة
ضمّني منك اليك
يا اشتعال الحطب الريفي في فصل المطر
في ضباب القصف تنعشني
فتبتسم الولادة
خيط هذا الماء بين القارب المسجون
والبحر الفراتي
قمح هذا البيدر الممتد بين الضفتين
ضمني منك اليك

● ● ●

كنت رقماً سيداً في عالم الأرقام
يختصر المسافه
كنت سهماً فاضحاً
من ضحى الموت إلى قصر الخلافه

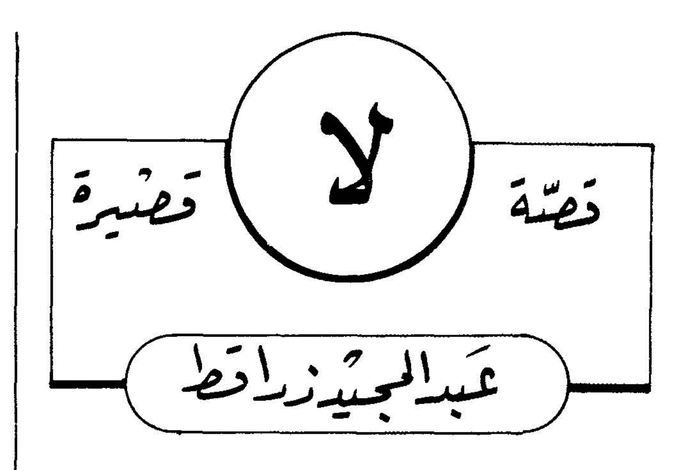
● ● ●

بيروت يا خصب المواسم
في احتقان السنبلة
بيروت يا ألق انحسار النهر
يا سيف المواقف والدجى موت
مدّي إليّ فضاءك البحري معجزةً
فوضى انفجار الشمس أروقة
تجلو عن القلب الصدأ
بيروت يقتلني الظمأ

● ● ●

الصمت يفترس الألق
وأنا الضحى
بيروت يا وهج الغسق
يستوطن السرطان شريان الطبيعة
وأنا المعلق بين ساريتين
سارية تنادي العشق
والأخرى على وهج الحطب
الموج في القلب اصطخب
الموج في القلب اصطخب

(*) تقصدت تلوين الايقاع في القصيدة تحت تأثير الموقف.



كان مستلقيا على الصوفا ينظر من النافذة. وكانت الشمس البرتقالية تنزلق. «برتقالة صفراء حمراء... حمل في زوّادته، عندما ذهب الى المرعى برتقالة. لم يأكل منها شيئا. تمزقت وتناثرت... لملمتها امه ونثرتها على رؤوس الناس معونة. ثم لملمتها وضمّتها الى صدرها مقبلة. مرّغت فيها وجهها ثم دفنته تنشج... وهذه برتقالة صفراء حمراء لا تزال تطل وتنزلق..» مدّ يده من بين قضبان النافذة. بقت ممدودة: «لو قطفتك يا...»

مدَّ يده على طولها. أطبق اصابع يديه وشدّ قبضته. بقي يرنو الى «البرتقالة» التي لا تزال تنزلق ويشدّ كفّه المطبقة.

كانت امرأته تتكلم بصوت عال:

ـ «لا يا جارة. انه لا يزال كما ترينه لا يمل من عد قضبان النافذة. والحليب؟ لا اعلم... ربما بعد ساعة».

اطبقت شفتيها وانصرفت تعمل مكنستها الناعمة في جسدالبقرتين الضخمتين اللتين كانتا تجتّران بهدوء. ومن حين لاخر، كانت ترمق الأثداء المنتفخة وتبسم مبسملة، وتلاعب كفاً ازرق صغيراً يتوسط خرزات زرقاً انتظمت عقداً يتدلى على جبهة البقرة الصبحاء السواسعة «قلنا ارتحنا. رزقة نتعهدها بالعناية ونعيش. بقي زمنا يدندن جذلا ويغني بهما، يرعاهما. ربّ لم هذا!؟ ساعدنا يا رب».

ثم ارتفع صوتها:

ـ «ألا تريد...؟ ألا تريد ان تحلب البقرتين؟ النسوة ما زلن ينتظرن الحليب». بقيت امرأته تعيد: «ألا تريد...؟ الحليب...».

لم يلتفت. عقد رجلا على رجل وسوّى المخدّة العالية تحت رأسه. مدّ يده على طولها وبقيت الكف مفتوحة. وكانت الشمس قد غابت.

حدّق في الأفق الأحمر «دم! الأفق ايضاً مدمّى. كان الدم بقعا (نقعا) تطوق فيها ايد وأرجل...».

بقي محدّقاً في الأفق. تغضن جبينه وغامت عيناه. «الأفق مجرى دم. يتدفق، يسوق...». يكاد يصل الدم الى عينيه. وضع كفه امام عينيه. بقي يقلب كفه... «كفه هو اصغر، اجمل... بعناية رفعته من النقعة مدلى الأصابع». بدأت تتدلى في كفه زوائد عريضة. صارت تنبت فيه اصابع جديدة، طويلة ودقيقة، تنتهي بأظافر معقوفة حمراء، محشوة ترابا: «أيها التراب... لا بد من ازالتك. لن تعيق اظافري....». كانت الأصابع تتكاثر وتطول. صارت تتخرك وتمتد. صارت وراء القضبان. كانت امرأته ترقبه، رأته يطعن الفضاء بأصابعه المشرعة. اتسعت عيناها وتمتمت:

ـ «بسم الله الرحمن الرحيم، بسم الله... اسم الله العظيم...». ثم صرخت:

ـ «النسوة ينتظرن. الطناجر تنتظر. الأثداء تكاد تنفجر. ألا تريد: ولكن الأولاد يريدون والبيت...!». شدّ صراخها يده، حرك يديه كمن يحلب وجلس: «الدم، الدم... انت بلهاء. ما زلت اضحوكة. هو الدم بدء الحياة. الحليب! كلكم بلهاء...».

بسملت امرأته. رددت ما تعرفه من آيات قرآنية، ثم صمتت وراحت تمد جسد البقرة الصبحاء الناعم المبقع: «كان لا ينفك يحكي عنها، في كل مجلس يعيد ويعيد. حتى الناس كانوا يبسمون عندما كان يبدأ الكلام. صاروا يعرفون عباراته: ـ تحلب طناجر. عاقلة تأكل الدجاجة من معلفها. هذا نوع من البقر! انه التقدم والعلم»... المدنية. كثيرون كانوا يتضايقون من كلامه. ولم يكن يأبه بذلك. ـ وعندما جلبوها ورآها، دار حولها كثيراً وأصرّ على ان يمشيها وينظف شعرها بيديه. كان يأتي قبل موعد الحليب. ثم جلب الثانية واقتنع: ـ هاتان تكفيان العائلة مع شيء من الزراعة. لا، لن اعود للسفر بعد اليوم. الحليب سوقه رائج ـ كان يجلس قربها، يدللها ويغني لها: ـ صبحة، حلوة يا صبحة.

وانت يا ستي رابحة ـ

«كان يغني لها وينظر اليّ بعشق».

رنت اليه بحنوّ. كان ساهماً ينظر الى البعيد، ويداه امامه مفردتا الأصابع. كان يهزهما من حين لآخر، الواحدة تلو الأخرى ويتمتم:

ـ «انت امسكت من الأسفل... وانت من الأعلى. تأبى عليكما... حضنتماه الى الصدر... تدلى الى الأرض الحمراء. ارتمى في الصدر. فأصابعه تعرف شعراتي السوداء القاسية. كم شدها! كم لاعبها...! كم تمرّغ رأسه فيك، انه يعود اليك، ايها الصدر فاهنأ. اللحم غال... الدم غال للمتها كل شيء يا يدي. شربت الأرض... الدم يجعل عين الأرض حمراء... آه لو تحمر عين الأرض فتنبت سيقانا واذرعا متصلبة. انت جلبت وريقات الكتاب المدماة. بقي رأس الأمير على الجلدة، فوقه كان: التاريخ. بالكاد بان، حجبه الدم. فوق شارب الأمير التصقت قطعة لحم صغيرة. بدت كطلقة تتهيأ. غطت طرفه

المعقوف . تغطى شارب الأمير . شرب شارب الأمير . اكان الدم مالحا ام حلوا ؟ أكان حادا ايها الشارب الثخين الأسود ام انك لم تذقه ؟ عجزت عن الشرب ام انك خفت ؟ مع اللحم والدم ، في التراب دفنتك . قد تعود . . . اني المحك . . . اما قلت لك ان الدم مخصب واللحم مخصب ايضا وتربتنا حمراء . . . لا تخف كثيرا ايها الأمير . لن يسرقوك . حفرنا لك عميقا وحضنك الصبي . قالت امه : ـ ادفنوا الكتاب معه . يكمل الدراسة تحت . عنده امتحان . قبل ان يسرح بالبقرات تناول الكتاب وقال : غدا عندنا امتحان . انا لن اسقط . لا ، لا نريدك ان تسقط يا بني . اقرأ تحت وسأنزل لك شموعا كثيرة . . . » .

انارت امرأته المصباح . غطى عينيه بكفيه . التحمت الأصابع السمراء فوق العينين . ترتجف امرأته على العتبة واضعة كفيها على فمها مفردة سبابتها فوق انفها : « والله انا لا افهم . عندما مرضت الصبحا كاد يجن . انقطع لها . لم يترك وصفة الا وجربها، سُرَّ بهم عندما اتوا يحملهم الجيب الأسود محاطين بالجنود الشقر المسلحين . دخلوا يبسمون ناعمين . وتوزع الجنود في زوايا الدار متأهبين . قالوا : ـ نحن حاضرون في أي وقت . ثم جلبوا طبيبا وممرضا . اجروا لها عملية . . . وعندما شفيت الصبحا ، ازداد سروره ورضاه . ولكنه تغيّر منذ عاد . . . ذلك الانفجار هو السبب في حالته قالوا : اسرائيل تقصف الرعاة فخرج . . . » .

غام وجهها . تجمّعت على نفسها . نفرت شفتها العليا . أنزلت كم قميصها وزرّرته . « كان صبيا كالتفاحة . كالوردة . ابيض احمر . . . ذكي . . . الأول دائما حتى في مدرسة المدينة ..في ذلك اليوم ، كان يمضي العطلة في القرية ، وذهب عند العصر يرعى البقرات . بكته القرية كلها ، الا هو بقي صامتا كالجبل كما هو الآن . قال وقت عاد الى البيت :

« ـ للصبحا أطباء وعملية . . لحسين قذائف وقذائف . الصبحا تحلب لهم . لا ، أنا لن أحلب لهم . لا . . . » .

التاريخ الغريب للغباء الانساني

بقلم
كولن ولسن

ترجمة
مجاهد عبد المنعم مجاهد

عندما مات عالم النفس التربوي سير سيرل بيرت عام ١٩٧١ وهو في الثامنة والثمانين كان واحداً من أكثر الرجال تقديراً في هذا الحقل من التخصص . وبعد خمس سنوات تحطمت تلك الشهرة فما حدث هو بكل بساطة أن بيرت ضُبط متلبساً بالغشّ . لقد كان من كبار الداعين لرأي يذهب إلى أننا نرث الذكاء من آبائنا ، وأن تربيتنا لا شأن لها بالذكاء إلاّ في أضيق نطاق . وهذه النتيجة التي لا ضرر منها أصبحت موضع جدل مرير عندما طُرح قول يذهب إلى أن السود أدنى من البيض من الناحية الوراثية . وقد جرى التنديد بالأستاذ وليم شوكلي في أمريكا والأستاذ هانز أيزنك في انجلترا باعتبارهما من أصحاب النزعة العنصرية ؛ وقد تلقى أيزنك بالفعل هجمات من الطلبة اليساريين في احدى محاضراته . وقد دافع الأستاذان - كما يجب أن يدافع العلماء - فقالا إن العلم ليس سياسياً وأن آراءهما صحيحة سواء لاءمت اليساريين أم لا .

ثم مات بيرت ، ولاحظ زميلان له في وقت واحد أن في شكله شيئاً خاطئاً ، ومن أبرز أبحاثه بحث خاص بالتوائم . يقول بيرت إن التوأمين عندما يشبّان معاً يميل ذكاؤهما إلى أن يكون متماثلاً عندهما - وهي علاقة نسبتها أكثر من ٩ . ولو كان (المؤمنون بالبيئة) على حق لكان يجب أن يكون هناك اختلاف واسع وكبير لو انفصل التوأمان وتربى واحد في بيئة أدنى من البيئة التي يتربى فيها الآخر . ويقول بيرت إن هذا لا يحدث ؛ فهناك فارق (بالفعل) لكنه ضئيل يتراوح ما بين ٩ و٧٧ .

غير أن أحد زملاء بيرت وجد عدم اتساق بارزاً . فقد ذكر بيرت في أبحاث مختلفة عدداً مختلفاً من التوائم - بين واحد وعشرين وثلاثة وثلاثين - غير أن معدل ارتباط الذكاء كان (متماثلاً) بلغ ٧٧١ وبالنسبة للتوائم التي تتربى منفصلة و٩٤٤ وبالنسبة للتوائم التي تتربى معاً . (وذلك) النوع من الدقة مستحيل مع عينة منوعة ما لم يكن بيرت قد بدأ بالنتيجة ثم اشتغل بالتراجع للوراء . وبمجرد سطوع مثل هذا الشك كان هناك المزيد من الأبحاث والفحص ، وظهر أن بيرت قد اخترع اسمي زميلين المفروض انهما تعاونا معه في أبحاثه العلمية .

ولكن لماذا يجازف عالم مشهور ، يحظى بتقدير شديد ، بكل سمعته بصدد عمل مهمل من الخداع؟ في خطاب تبرّع به الأستاذ أيزنك وبعث به إلى صحيفة من صحف يوم الأحد ، قال إن الجواب يكمن في الإهمال لا في عدم الأمانة وأعاد التأكيد بأن العالم مشغول (بالوقائع) لا الآراء والابتسارات . غير أن صحيفة أخرى اقتربت أكثر من الرأي العام عندما علقت بقولها إن الرجال العظام المسنين يصبحون أسارى نظرياتهم وهم يشيخون ، وهم يدافعون عن عملهم بقوة الشخصية أكثر مما يدافعون بالحجة العلمية . بايجاز إن (الوقائع) تصبح أقل أهمية عن المكانة الشخصية .

ولكن لماذا أورد هذه القصة التخديرية الحزينة في كتاب عن (الخوارق) ؟

لأنها تمسّ مشكلة أساسية في الطبيعة الإنسانية ، وتطرح أسئلة مقلقة عن نظرة الإنسان للأحداث بما يتجاوز تجربته اليومية . إن الناس لديهم عادة عميقة للبدء (بالحقائق) التي يريدون الإيمان بها ، ثم يرتدّون للوراء ليجدوا مبررات لتأييدها .

وأنا لا أوحي الآن - بما يقوله كل مجنون - بأن كل العلماء مشتركون في مؤامرة لمنع (الحقائق) المريرة . لقد تدرّبت كعالم أو من بشدة أن معظم العلماء يبذلون جهدهم لمواجهة الحقائق كما يفهمونها . وأيزنك نفسه مثال صارخ على هذا . فبالرغم من أنه من أتباع السلوكية المتمسكين بها للغاية مع شك عميق في كل أشكال (الايمان بالخوارق) الآ أن له عقلاً مفتوحاً يسمح لميشيل وفرنسواز جوكلين أن يُغرياه لبحث احصاءاتهما عن التنجيم . وعلى عكس كل توقع ثبت أن هذه الاحصاءات لا يمكن الشك فيها . وقد أثار أيزنك الذعر بين زملائه بإقراره جهرة بما وجده وأقر بأن التنجيم له صدقُه .

غير أن المشكلة أصبحت أعمق من هذا . إننا نكون سُذّجاً تماماً إذا تصوّرنا أن بيرت (قد قرر بوعي) ألا يكون أميناً . فلو كان يستهدف طبخ الأرقام كما يريد لكان اتخذ مزيداً من الاحتياط ليجعلها أكثر اقناعاً . وما حدث على وجه اليقين هو أنه أصبح مقتنعاً تماماً بدقة مكتشفاته الأولى وقام على نحو غير

شعوري (بأقلمة) الأرقام الأخيرة للتمشي مع ما راه كنتيجة محتمة[1]. وإذا لاحظ أي تعارض بسيط فإنه يستبعده على وجه الاحتمال باعتباره (خطأ تجريبياً) وكذلك كان أيزنك على صواب . لقد (كان) نوعاً من (الاهمال) - لكنه إهمال موجهٌ لزيادة مكانته الشخصية للبرهنة على أنه يعرف (تماماً) .

(هذه) هي المشكلة التي يفضّل معظم العلماء تجاهلها : الشره الشديد لرغبة الإنسان في الشهرة والتقدير . ولقد أشار الراحل أبراهام ماسلو إلى أن الإنسان يتأرجح تحت ثقل رغبات ثلاث أساسية : الأمن والجنس والاحترام الذاتي . وكلّها - الثلاث - تنتج سلوكاً لا عقلانياً ؛ غير أن الرغبة في التقدير تسبب المزيد من الدمار عن الرغبتين الأخريين مجتمعتين . وفي أسوأ حالاتها فانها تستطيع أن تنتج شكلاً من الجنون مصاحباً بوساوس . والعلماء بالرغم من مثلهم عن الأمانة والنزاهة معرضون لهذه الرغبة كأي انسان آخر .

ويدرك الكتاب الساخرون والفلاسفة دائماً مدى سعي الانسان لكي يكون على حق . بل إن ألفريد أدلر صاغ نظرية عن (سيكولوجيا التقدير الذاتي) على أساس أن الدافع الأكبر للإنسان هو إرادة القوة . غير أن أول من أدرك التضمينات المقلقة لهذا النقص الغريب في الطبيعة الإنسانية لم يكن فيلسوفاً ولا عالم نفس ، بل لقد كان مؤلف رواية من روايات الخيال العلمي هو أ . إ . فان فوغت .

في سنوات ١٩٥٠ أصبح فان فوغت مهتماً بما يمكن أن يسمى الآن (حظيرة الذكر الشعوبية) وبدأ يدرس أمثلة عنها في حالات الطلاق . لقد لاحظ وجود نمط من الناس يطلب نمطاً من السلوك لنفسه ونمطاً آخر للسلوك لزوجته . ولاح له أنه قد وضع يده على جانب في الطبيعة الإنسانية أغفله علم النفس التقليدي .

والصفة الرئيسية لهذا النمط من الذكور هو الشعور بالحَصر بأنه (على صواب) . ولا يوجد أي ظرف يمكن أن يعترف تحته بأنه قد يكون على خطأ . فإذا كان هناك ما يجعله قلقاً ومتقلباً رأساً على عقب ، فإنه يبحث عن شخص يلومه ويصب غضبه وانفعاله على أقرب شخص إليه ، وخاصة إذا حدث وكان عضواً في اسرته . وهو لا يعترف اطلاقاً أنه يمكن أن يُوَجّه إليه اللوم . إنه مع الغرباء أو الزملاء في العمل يبدو عادة إنساناً معقولاً كاملاً . وعندما يكون الأمر خاصاً بأسرته فإنه يصبح هتلراً صغيراً . وهو معرض للغيرة المرضية ويمكن أن يتصرف مثل معظم الآباء الفكتوريين المتزمتين . ومع هذا فإنه في الأغلب يكون مغازلاً ومُغْوِياً ؛ والغزو الجنسي من أهم مصادر التقدير الذاتي عنده . وعنده عادة الانغماس في كل انفعال دون أن يعبأ بما في

المسألة من محاسن أو مضار . وإذا ووجه بالنقد فإنه يصبح عنيفاً . ولقد أسماه فان فوغت (رجل الصواب) أو الذكر العنيف .

ومثل هذا السلوك غالباً ما يفضي إلى نزاع في الأسرة وإلى طلاق . لقد انطلق رجل صواب إلى العمل خمس مرات مستخدماً نقوداً ورثتها زوجته ، وفي كل مرة يفلس . وعندما انطلقت زوجته للعمل لمعاونة الأسرة تحدث الزوج عن الطلاق وطلب من الأطفال أن يعيشوا معه ، ولدهشته رفضوا . وعندها جمعهم وأخبرهم أن امهم لم تكن عذراء عندما تزوجها منذ عشرين عاماً . وقد صُعقت زوجته لهذه الخيانة ، وأشارت إلى أنه (هو) كانت له أمور نسائية (منذ) تزوجا . وهنا انتابه الغضب الشديد مؤكداً أنه ليس لها حق أن تكشف ضعفه للأولاد .

هذا النوع من الأمور يبدو فكهاً ، ولكن أي إنسان يعيش في منزل فيه ذكر عنيف (أو أنثى عنيفة) يعرف أن المسألة يمكن أن تكون مأساة ممتدة . وهي محاولة عقيمة لإرغام الآخرين على التشكّل حسب أحواله العقلية .

وكل البشر عندهم ميل لحلم اليقظة والانغمار في الخيالات التي تتملق الأنا . وإنسان الصواب يحاول أن ينفّذ خيالاته ويستخدم سلطته لإرغام الآخرين على تعزيز التمثيلية . واذا حدث - كما هو الواقع أحياناً - وكان له مركز سلطة ، فإنه يصبح معرضاً للفساد من جراء الانغمار الذاتي ، مثل العديدين من الطغاة والديكتاتوريين في التاريخ . وهو يستطيع أن يطلق العنان لخيالاته بأنه عليم وقدير بكل شيء ؛ وهو يعدّ أي إنسان يعارض ارادته مجرماً يستحق العقاب . لقد كان ستالين وهتلر رجليْ صواب ؛ ويحتمل كذلك ماوتسي تونج . وقبل وفاة ماو بوقت قصير تظاهر الصينيون في ميدان السلاح في بكين ضد سقوط المعتدل تنج هسياو بنج . وعندها أُلقي القبض على الكثيرين ؛ وقد أعدموا أو سجنوا لفترات طويلة . لقد كان ماو عجوزاً ومريضاً ولكنه كان لا يزال قادراً على أن يستثار غضباً لأية علامة على الاعتراض .

غير أن الميل للعيش في عالم خيالي يمكن أن يكون سقوط رجل الصواب . لقد أقام مملكة من الخداع الذاتي ، أقام قلعة من الرمال يمكن أن تجعلها الحقيقة تنهار في أية لحظة . والخضوع التام من جانب زوجته - سواء كان حقيقياً أم فيه تظاهر - غالباً ما يكون حجر الأساس في الشطح الخيالي . ولقد اكتشف فان فوغت أن الزوجة اذا عزمت أمرها على هجر رجل الصواب فإنه ينهار انهياراً تاماً ؛ وقد يعاني من انهيار الأعصاب أو قد ينتحر .

والآن ، يؤكد فان فوغت أن انسان الصواب ليس بكل بساطة كذاباً معتاداً على الكذب . « إن لديه رغبة حارة في الصدق ، لكن قصة حياته صورة مشوّهة بشيء لا شعوري ، مما يُظهر أنه على صواب بنسبة مئة بالمئة وكل إنسان آخر

(١) في الحقيقة أثبت البحث التالي الذي قام به في بنسلفانيا الدكتور بول توبمان أن القصد الأساسي لبيرت صحيح (بالفعل) : الوراثة واردة أكثر مما ترد البيئة (بالفعل) (انظر : التايمز ١٣ مايو (أيار) ١٩٧٧).

مخطىء . ». ومن الأمور المليئة بالانفراق أو التناقض الظاهري أن هذه (الرغبة الحارة في الحقيقة) قد تجعل رجل الصواب عالماً أو فيلسوفاً ممتازاً . وحيث يدور اهتمامه (هو) فحسب يتشوه إدراكه للحقيقة ؛ بجانب هذا ، فإن السعي إلى المعرفة التجريدية يزوده براحة لطيفة من حَصره مع نفسه .

وها هو مثال يوضح المسألة برمّتها . لقد كان الراحل س . إ . م . جود فيلسوفاً من فلاسفة التطور وتلميذاً للفيلسوف الفرنسي برجسون والكاتب المسرحي الايرلندي شو . وخلال الحرب العالمية الثانية أصبح مشهوراً كعضو في فريق الإذاعة البريطانية لاختبارات صدق العقل . وحالته كانت حالة نزق واسع المعرفة مستبد ، من النوع الذي (يجب أن يكرهه الجمهور) . وهو في حياته الخاصة كان يحب المغازلة . وذات مرة تحدث أنه لا يبدي اهتماماً بالحديث مع المرأة إلا عندما تكون راغبة في النوم معه . وواضح أن زوجته كانت تتقبل هذه (الأمور) . .

ولقد صُعق قراء صحف المساء يوم ١٢ أبريل (نيسان) عام ١٩٤٨ عندما شاهدوا العنوان الرئيسي : « تغريم الدكتور جود لركوبه القطار دون تذكرة ». ففي القطار من ووترلو إلى اكستر ، حاول أن يوفر سبعة عشر شلناً وبنساً فقال لقاطع التذاكر إنه ركب القطار من سالسبوري ، وتبين فيما بعد أن من عادته أن (يزوّغ) في ركوب القطارات . وقد أبعدته الإذاعة البريطانية عن برامجها وحطمته الفضيحة ؛ ومات بعد أربع سنوات من السرطان .

واضح أن هذه الحالة مشابهة لفضيحة بيرت ؛ ولكن بالنسبة للدكتور جود تحسن هناك بعض الاجابات . لقد ظهرت شخصيته بوضوح في كتبه ، وفي اختبار التعرف[2]. بل حتى عناوين كتبه تكشف انشغالاته الذاتية المليئة بالحَصرَ النفسي : (كتاب جود) ، (شهادة جود) ، (اللذة في أن تكون نفسك) . ويتفق معظم الأصدقاء أنه كان سريع الغضب يمكنه أن ينخرط غاضباً لأية إهانة ـ حقيقية أو متخيلة ـ تمس كرامته . ولكن أي إرضاء تافه له يمكنه أن يتسبب في الغفران السريع . وهو شأن معظم رجال الصواب لم يكن مهتماً تماماً بشخصية الآخرين ؛ إنه يفضل أن يفرض عليهم أفكاره المفرطة في التبسيط حتى أنه يسمي كل عشيقاته باسم واحد هو مورين .

إذن لماذا يخاطر برسالته العلمية من أجل ثمن التذكرة الزهيد هذا ؟ وعندما طرح عليه أحد الأصدقاء هذا السؤال فيما بعد اعترف نادماً : « عنف الكبرياء ». غير أن هذا لا يقول لنا شيئاً . إن ما نحتاج إلى معرفته حقاً هو أن رجل الصواب ينقصه كل شعور بالأخلاق الشخصية لأنه يستطيع أن يجد دائماً ألف سبب وسبب للاعتقاد بأن ما يفعله هو صواب . إنه طفل فاسد يعتقد أن رغباته يجب أن تكون قوانين للطبيعة . ولقد كتب جود بالفعل بعض الكتب عن الفلسفة الخلقية ، وليس هناك شك في أنه حيث تكون البشرية مقصودة بصفة عامة فإن إحساسه بالأخلاق دقيق وعميق . وان أي انسان يعتقد أن رجل الصواب لا يمكنه أن يكون فيلسوفاً ممتازاً عليه أن ينظر إلى مؤلفات جود ؛ فأفضلها بارعة مليئة بالفكاهة والذكاء وذات أسلوب رائع . إن عماد جود الخلقي لا ينطبق إلّا على نفسه . وان (صوابيته) هي شيء عليه أن يعيش به كما يعيش الانسان مع المرض الطويل .

والتضمينات المقلقة حقاً لنظرية إنسان الصواب تظهر عندما نحاول أن نرسم خطاً بين الناس (غير المتزنين) مثل جود والناس اللطاف العاديين مثلنا . فمن المستحيل رسم هذا الخط . إن الحاجة للتقدير الذاتي رغبة أساسية في الطبيعة الإنسانية ، ونقصها مماثل لنقص كُرّيات الدم البيضاء في الدم . وكل الناس الأصحاء العاديين يكرهون أن يكونوا مخطئين ؛ ونحن جميعاً نشعر بالحرج عندما نخطىء و (نُشاهَد) ونحن نخطيء . والخطأ عند رجل الصواب هو أنه لم يقهر ـ اطلاقاً رغبة طفولية بأن يصبح كل شيء ملكه وأن ينحني الكون لرغباته . ولكن هل يوجد أي انسان خالٍ تماماً من هذه الرغبة ؟ مثلاً ، هل يوجد إنسان لا يسبّ عندما يدق أصبعه بمطرقة ؟ أو لا يشعر بالغضب عندما ينادي على تاكسي فيتوقف على بعد عدة ياردات ويقفز فيه إنسان آخر ؟ غير أن المطرقة شيء غير حي . والشخص الآخر له حق مماثل لك في التاكسي . ومع هذا فإن الاحباط يدفع الدم بالغضب مما كان يدفع أجدادنا في العصر الحجري الحديث لأن يلجأوا إلى فؤوسهم الحجرية .

إننا نتهم جود بأنه غير مهتم أساساً بالآخرين ، ولكن هذا القول منطبق على أي منا . فمثلاً ، نحن يستحيل أن نقع في حب شخص (بتمامه) ـ إننا نقع ببساطة في حب ابتسامة لطيفة ، صوت موسيقي ، بشاشة جذّابة . وهذه المسائل تقدم أساساً لنوع من الصورة ؛ ونحن نضيف بقية الرتوش إلى الصورة بأنفسنا فنرسم الصفات الأولى من صورة ذهنية عن نوع الشخص الذي نحب أن نقع في حبه . وهناك العديدون الذين يزوجون طوال حياتهم بشخص لم (يعرفوه) مطلقاً لأنهم لا يعيشون أي حالة حقيقية للفضول عن ماهية هذا الآخر حقاً . وهناك مئات الزوجات المتزوجات من قتلة يؤكدون للبوليس بإخلاص شديد بأن زوجهم عاجز عن ايذاء ذبابة . وما لم يتطابق الشخص الآخر مع صورتنا الذهنية فإننا لا نلقي بأية أسئلة .

ويشير فان فوغت إلى أن هناك الكثير من رجال الصواب حولنا أكثر مما نعرف . فهم يعرفون كيف يخفون الأمر عن الآخرين وعن أنفسهم . والأمر نفسه ينطبق علينا . والناس الذين يلفتون نظرنا بأنهم أنانيون أو متمركزو الذات هم الاستثناءات ، ولكن بمجرد أن نعرفهم تماماً نصبح على وعي بأنه حتى الناس اللطاف يمتلئون بأوهامهم وخزعبلاتهم وتفاهاتهم . وبالنسبة لي فأنا

(٢) أنظر على سبيل المثال ما أدرجه فرنتون برسلر في (سلم العدالة) .

اعترف بمنتهى الحرية أني أستطيع أن أضبط جيوباً قذرة (اللصوابية) في شخصيتي وإن كنت أشك فيما إذا كان أصدقائي على علم بها . ونحن مثل بعض الفراشات قد تعلمنا كيف نتأقلم مع البيئة . وهذا يساعدنا على الشعور بأننا نعيش في مجتمع الناس المتزنين العاديين الذين هم على غرارنا .

ولا يحدث إلا عندما نبدأ في التقاط تضميناتها أن هذه البصيرة تصبح مقلقة تماماً . وفرويد يجعلنا ندرك أن الجنس يلعب دوراً اكبر في الحياة الإنسانية عما اهتم بأن يعترف به الفيكتوريون (بالرغم من أنه يتبين الآن أنه قد أوصل المسألة إلى حد العبث) . وانجاز فان فوغت مثير بالمثل ؛ فقد بيّن أن الأنانية يمكن أن تنتج شكلاً من الجنون المعتدل وأننا جميعاً نعاني من هذا إلى حد ما . وهذا يقوّض في التو فرضاً من فروضنا الأساسية عن الطبيعة الإنسانية : وهي أن الإنسان يمكن الاعتماد عليه إذا ما تصرف من (المصلحة الذاتية العقلية) . إن الصوابية تعلو على المصلحة الذاتية ؛ إنها تستطيع أن تجعل الإنسان أعمى عن تدمير نفسه ما لم يسبب الدمار لعدوّه - أو يجعله خاضعاً تحت رحمته . ونحن إنما نعيش في مجتمع كل واحد فيه يعاني - من الناحية العملية - من درجة من درجات (الصوابية) . إن العادات الطيبة والقناعات الاجتماعية قد تطورت إلى تقليل الهامش . ولكن حيث تفشل يظهر الصراع . والحكومات تصدر الانذارات وتحدد بالحرب والأمم كلها راغبة في الاتفاق على أن وفاة بضعة ملايين هو ثمن بخس لدفع إهانة .

ونحن ندرس الخوارق نجد أن كل هذه الأمور ترتبط بها . وليس هناك موضوع أثار ردود فعل متطرفة أكثر من موضوع (الخوارق) . فمعظم العلماء يشعرون بأن (المشتغلين بالخوارق) مجانين ويجب اعتقالهم ، ويردّ المشتغلون بالخوارق بأن العلماء متحاملون غير أمناء . وكلا الفريقين يتحدثان عن العقل والمنطق والبداهة ولا يؤمن أي منهما بأن الجانب الآخر يعرف معاني هذه المصطلحات التي ظهرت .

وعلى العموم ، يبدو أن العلماء في موقف أقوى ، فهم يقولون إن العلم هو بكل بساطة محاولة لفهم الكون بطرح أسئلة معقولة . إن العالم ليس معه فأس يحفر بها ؛ إنه يجلس متطلعاً إلى الواقعة أشبه بطفل صغير - حسب الكلمات الشهيرة التي قالها ت . هـ . هكسلي - ويسير وراءها حسبما تقضي به . والمتديّنون و (المؤمنون بالخوارق) هم الذين يشوهون الوقائع لتتمشى مع تفكيرهم المرغوب . انهم يتنصلون من العقل لأنه يهدد خرافاتهم ومعتقداتهم الجامدة . ويمكن قراءة القصة المخجلة الشاملة في كتاب أندرو هويت الرائع (تاريخ النزاع بين العلم مع اللاهوت) الذي نشر عام ١٨٩٤ ، ولكنه يظل الكتاب النهجي حول الصدام بين الخرافة والعقل . فإذا نظرنا إلى المسألة من هذا المنظور ، فإن (أصحاب الخوارق) هم بكل بساطة البقايا المتبقية من قوى محاكم التفتيش التي أحرقت جيوردانو برونو وأرغمت جاليليو على التراجع بتهديده بالتعذيب .

وهذه تعدّ حجة قوية ومقنعة . ولكننا في موضع يسمح لنا بأن نتبين ضعفها الأساسي . ومعظم العلماء المتمازين هم أفراد بارزون ، والأفراد المتمازون يميلون إلى أن تصبح لهم طريقتهم الخاصة . وهذه الصورة للعالم ، باعتباره باحثاً منفصلاً مستقلاً يبحث عن الحقيقة بقلب متواضع ونقي ، إنما هي صورة طيبة للغاية . قد تكون للعالم خيرة المقاصد في العالم ؛ ولكن ما لم يكن على وعي بميله الفطري نحو (الصوابية) فإنه لن يحقق مطلقاً الانفصال والاستقلال العلميين .

وعندما تقرأ كتاب (تاريخ النزاع بين العلم والتكنولوجيا) في هذا الضوء فإنه يستحيل إلى كتاب مختلف تماماً . إن المؤلف هويت يحكي قصة مروّعة عن اضطهاد العلماء الأمناء من قبل رجال الكنيسة القطعيين في معتقداتهم . ولكن عندما نقرأ بين السطور أو نتعب أنفسنا بدراسة سير رجال مثل برونو وجاليليو فإن القصة لن تعود قصة العقل ضد الخرافة وتصبح قصة (رجل الصواب) وقد غرق في الصراع العنيف .

عادة ما يعد جيوردانو برونو الذي أحرق عام ١٦٠٠ شهيداً من الشهداء المدافعين عن العقل ، ويكشف كتاب (جيوردانو برونو وتراث هرمس) لمؤلف فرانسيس يتيس أنه لم يكن فحسب متبجحاً ورقيق الإحساس ومصاباً بجنون العظمة بل لقد كان أيضاً داعية لشكل من السحر معادٍ للمسيحية . ولم يكن جاليليو العالم الرقيق المتفاني الذي صوره الكاتب المسرحي الألماني برتولت بريخت في مسرحية تحمل اسم جاليليو ؛ فقد كان عالماً صاحب نزوات متقلب المزاج محباً للتهكم . ولسوء الحظ دخل في تصادم مع خصم من رجال الكهنوت كان هو الآخر (رجل صواب) . لقد تناطح برونو مع الكاردينال روبرت بيلارمين وهو جزويتي مستشار لمحاكم التفتيش وُسِمَ قديساً فيما بعد . وقد وصف كاتب السِيَر المتعاطف جيورجيو دي سانتيلانا شخصية بلارمين على أنه رجل « شديد الطموح معرض للانفجار غضباً وصريح . . مغتر فيما يتعلق بمواهبه العقلية » وهو في الحقيقة مثل برونو نفسه تماماً . ولما كان يرى أنه أروع نفس في العالم فانه ما كان ينتقد برونو . ولكي يتمكن برونو من النجاة من المحرقة كان عليه أن يقر ويعترف أنه كان آثماً - إذا تكلمنا من الناحية اللاهوتية . ولقد رفض أن يعترف ولم يكن لدى بلارمين خيار مشروع سوى أن يعدمه .

ولقد كانت قضية جاليليو من القضايا التي نالت المزيد من سوء التصوير . ففي الحقيقة لم تكن الكنيسة الكاثوليكية من الناحية العقائدية معارضة للإيمان بان الشمس هي مركز المجموعة الشمسية . فلقد كان أول من قال بهذا عام ١٥٤٢ كوبرنيقوس الذي كان من رعايا الكنيسة ؛ وكتابه (حول ثورات المجالات السماوية) قد أهداه بالفعل للبابابولس الثالث . ولقد كره البروتستنت هذه النظرية لأنها تلقي شكاً على الكتاب المقدس .

قد يكون الكاثوليك قد شكوا من أن النظرية لغو ، ولكن لم يكن هناك من يعدها خطراً على الإيمان . وفي السياق العادي للأحداث تسللت الأفكار الجديدة عن المجموعة الشمسية داخل الكنيسة إلى أن جرى تقبلها بصفة عامة ولم يكن هناك من يصنع ضجة بشأنها .

وأوقف هذا السياقَ العاديَّ صدامٌ بين اثنين من نوع (رجل الصواب) وهما جاليليو والبابا أوربان الثامن . وهاكم وصف يعقوب بروتوفسكي للبابا أوربان الثامن : « إنه يتمتع بعقلية متناهية الثقة في قدرتها مع نفاد صبر شديد . ولقد كان يقول عن نفسه : (إنني أعرف أكثر مما يعرف الكرادلة مجتمعين. . .) غير أنه باعتباره بابا هو رجل مصطنع تماماً ، يحابي وهو متهوّر متسلط متقلب في خططه أصم بالنسبة لأفكار الآخرين . بل لقد أمر بقتل الطيور في حدائق الفاتيكان لأنّها تزعجه » . ولا نجد أفضل من هذا لوصف رجل الصواب . ولكن جاليليو كان كذلك ، وإن كان بشكل أقل من برونو . لقد كان انساناً رفض أن يتحمل الأغبياء ، ولقد جعل زملاءه في جامعة بيزا ينفرون منه عندما كتب فيهم أشعاراً هجائية . وفي عام ١٦١٦ سمع جاليليو شائعات تقول إن الكنيسة على وشك تحريم تعاليم كوبرنيقوس ، ومن ثم مضى الى روما وتحدث مع الكاردينال بلارمين فقال له هذا الأخير إنه لا يستطيع في الحقيقة أن يقول إن مذهب كوبرنيقوس (حقيقة ثابتة)، ولكنه (يستطيع) أن يستخدمه كفرض من الفروض . وعندما أصبح بربريني البابا أوربان الثامن عام ١٦٢٣ أسرع جاليليو لرؤيته . ولقد كان البابا متعاطفاً لكنه لم يشأ أن يمضي في المسألة إلى أبعد مما ذهب اليه بلارمين (الذي كان قد مات حينذاك) . وجرى الترحيب بجاليليو لبحث افكار كوبرنيقوس على شكل حوار ، طارحاً القضية العكسية ، وكذلك قضيته . لكن عليه ألا يقرر جازماً أن كوبرنيقوس على حق . ولقد أصر أيضاً بصفة خاصة على ضرورة أن يقرر جاليليو بخط يده أن من العبث بالنسبة لأي إنسان أن يحدد قوة الله وحكمته ، واقترح أشياء أخرى بشأن الحوار وعد جاليليو بإدراجها .

وبعد ثماني سنوات رأى البابا عام ١٦٣٢ نسخة من كتاب (حوار حول المذهبين الرئيسيين عن العالم) واستشاط غضباًعندما وجد أن جاليليو لم يقف في صفّه في الجدال ؛ فقد جاء في صف مذهب كوبرنيقوس . غير أن ذروة الإهانة هي أنه طرح إحدى أفكار البابا على لسان غبي اسمه سمبليكيو . ولم يكن هذا تحدياً للبابا فحسب بل كانت لوياً لأفكاره ؛ فاستُدعيَ جاليليو إلى روما وأُمر بالتراجع . وعندما تراجع لم تكن هناك محرقة ولا حتى سجن . وسُمح له بالعودة إلى منزله ، وقد حددت إقامته فيه ؛ وارغم على أن يعد بعدم الكتابة بعد هذا . وقد تجاهل هذا وكتب مؤلفاً عن الفيزياء طبع في الأراضي الواطئة ؛ غير أن السلطة المقدسة لم تقم بمحاولة لعقابه على خرقه لكلمته .

وما هو واضح تماماً هو أن جاليليو (كان في استطاعته) أن ينشر كل حججه لصالح مذهب مركزية الشمس بالنسبة للكون لو كان قد جعل نهاية كتابه قوله (بطبيعة الحال ، الله وحده يعرف ما إذا كان كل هذا صحيحاً) وكان سيحصل على نفس التأثير للكتاب كما كتبه بالفعل ، وكان هناك احتمال أن تتقبله الكنيسة خلال عشر سنوات أو نحوها . وبدلاً من هذا مضى معانداً من غير أن يتخذ موقف المناورة ، وهو ما يتصف به (إنسان الصواب) ، وأغضب البابا الذي أعطاه كلمته . ولما كان البابا اقوى الرجلين ، أُرغم جاليليو على الاعتذار . وقد خرج البابا بلا ثقة كبيرة وكذلك جاليليو .

وبطبيعة الحال انتصر جاليليو على المدى الطويل ، فقبل نهاية القرن السابع عشر جعل كتاب نيوتن (المبادىء) نظرية كوبرنيقوس مما لا يطالها الجدال ، ووجدت الكنيسة صعوبة كبيرة تفسر بها لماذا عارضته أصلاً . ومنذ ذلك الوقت بدأت تحجم عن التدخل في مسائل العلم . وفي الحقيقة ، لقد كانت مسألة جاليليو آخر تدخل كبير لها .

واستناداً إلى ما جاء في كتاب (تاريخ النزاع بين العلم واللاهوت) استمرت الكنيسة تناضل لقرنين تاليين وهي تبذل المستحيل لتبطىءمن تقدم الجيولوجيا وعلم الفلك ونظرية التطور . ولكن عندما نرجع إلى كتب التاريخ نكتشف مرة أخرى أن هذا سرْد من جانب واحد . فما أحجم هويت عن إدراجه هو أن العلماء أنفسهم هم الذين كانوا يعرقلون العلم بالوقوف ضد بعض الاكتشافات الجديدة ويعارضونها بكل ما لديهم من تحامل . ويضرب هويت مثلاً ببرنارد باليسي ، الذي اتهم بالهرطقة عندما اقترح أن الحفريات هي عظام حيوانات ماتت منذ أمد طويل (مات في سجن الباستيل عام ١٥٨٩) ولكنه فشل في إضافة أنه عندما يقوم جوهان شوشزر ، وهو أحد الهواة في علم الجيولوجيا ، بالدفاع عن الفكرة نفسها في كتيب عام ١٧٠٨ ، لا تجده الكنيسة مخطئاً ؛ لقد كان العلماء هم الذين رفضوا الفكرة وأدرجوا آراء أرسطو لتدعيم آرائهم في أن الحفريات هي مجرد صخور تبدو أشبه بالحيوانات الحية . واشترك العقلاني فولتير في الجدال في صف العلماء ؛ فقد قال إن العظام التي وجدت في الحفريات في الجبال قد تكون أسماكاً ميتة رماها الرحّالة .

ونظرية التطور لم يخترعها شارلز داروين بل ولا حتى جده اراسموس داروين . فالذي اخترعها هو الدبلوماسي الفرنسي بنو دي ميليه الذي ولد في اللورين عام ١٦٥٦ . فقد كتب ميليه حوالي عام ١٧١٥ كتاباً اسمه (هيليم) [اسمه بعد عكس الحروف] وهو يعرض فيه وجهة نظر دقيقة عن التطور . لقد جاءت جرثومة الحياة من الفضاء ، ويقول إن هذه الجرثومة قد تطورت تدريجياً إلى أجهزة متعضونة بحرية بسيطة في المحيط الأولي . وزحفت الأسماك إلى الأرض وتطورت إلى حيوانات وطيور . ويقول إن هذا حدث على فترات شاسعة من الزمن .

وقرر ميليه عدم نشر كتابه أثناء حياته ؛ فقد كان يمكن أن يعرض وظيفته الحكومية للخطر . وظهر الكتاب عام ١٧٤٩ بعد وفاته بإحدى عشرة سنة . غير أنه كان هناك الكثيرون الذين قرأوا المخطوطة وجرت مناقشة فكرة التطور على نطاق متسع في سنوات ١٧٣٠ . ومرة أخرى كان الذي رفضها هم العلماء وعلى رأسهم عالم الاحاثة المتخصص في دراسة الحياة القديمة كارل ليناوس ، أحد مشاهير العلماء في القرن الثامن عشر ، وقد بدأ كتابه الضخم (نظام الطبيعة) (١٧٣٥) بالتأكيد التالي : « توجد الآن كثرة من الأنواع شأن الكثرة التي كانت موجودة في بداية الخلق » . (وقد رفض أيضاً الحفريات في صفحة واحدة تتناول المعادن) وصب فولتير أيضاً احتقاره لنظرية ميليه باسم العقل والحس العام المشترك .

ولم تكن الكنيسة خارج الحلبة تماماً . ففي عام ١٧٥٠ نجد العالم الطبيعي الكونت بوفون ، المشرف على الحدائق الملكية ، يكتب مؤلفاً بعنوان (نظرية الأرض) أكد فيه أن الأرض كانت أصلاً جزءاً من الشمس وأن الحفريات هي بقايا أجداد بدائية لمخلوقات اليوم . ولقد تلقت الكنيسة صدمة ، وأعلن الرقباء أن آراء بوفون لا تتفق مع ما جاء في الكتاب المقدس عن الخلق . وفي جزء تال من (التاريخ الطبيعي) اخطر بوفون إلى أنه لا يوجد شيء أبعد عن تفكيره من مناقضة الكتب المقدسة لكنه استمر في عرض نظريته عن التطور ولم يعان من أي اضطهاد آخر .

ولسوء الحظ كان العنصر الوحيد في نظرية بوفون والذي ترك أثراً عاماً هو تفسيره لماذا بادتْ هذه الأنواع القديمة . ولقد وقع الفيلسوف المادي لامتري على الجواب الصحيح : لأنها فشلت في معركة البقاء وماتت . ولقد رفض بوفون هذا ؛ وبدلاً من هذا اقترح أن الأرض قد تعرضت لسلسلة من الكوارث العنيفة - الفيضانات والزلازل - دمّرت الحياة كلها . ثم ظهر (جيل تلقائي) وبدأ الأمر من جديد . وهذه النظرية عن الكوارث أصبحت عقيدة أخرى تسببت في متاعب عديدة خلال الخمسين عاماً التالية أو نحو ذلك .

وخاطر الشاعر جوته أيضاً في نظرية التطور وخرج بمعظم الاجابات الصحيحة . ففي سنوات ١٧٨٠ كان يعيش في فيمار باعتباره وزير البلاط في هذه الدوقية ، وأصبح مهتماً بعلم الإحاثة أي البحث في الحياة القديمة . وقد استرعى انتباهه بصفة خاصة ما قاله عالم الاحاثة الهولندي بيتر كامبر من أن الإنسان يختلف عن الحيوانات الدنيا في أنه ليست له عظمة في الفك العلوي الذي به القواطع . ومال جوته إلى الاعتقاد بأن الإنسان مختلف تماماً عن الحيوانات الأخرى ، ومن ثم انطلق في دراسة جماجم عديدة بقدر ما استطاع أن يستعيدها من متحف فيمار . وفي مارس (آذار) ١٧٨٤ أعلن لصديقه هردر أنه اكتشف عظمة الفك العلوي في الإنسان ؛ وكتب عن هذا الموضوع بحثاً وأرسل به إلى كامبر ؛ غير أن كامبر لم يكن حفياً بالشاعر المشهور وصديق الدوق كارل أوغست ؛ لكنه بيّن أن جوته ليس في استطاعته أن يكتشف آثار عظمة الفك العلوي في الإنسان لأنها ليست موجودة . وحاول جوته ارسال دراسته إلى بلومنباش الذي أعقب بوفون وهو يعرف عنه رحابة الأفق ؛ غير أنه استاء عندما وجد بلومنباش يستبعد نظريته بالمثل . ولقد ذاق جوته بهذا أول مذاق لغرور العلماء . لقد فشل في أن يفهم أنهم يعتبرونه متطفلاً وهاوياً فجاً . ومن ثم قرر أن يمضي وحيداً لتطوير نظريته عن التطور ، بما في ذلك أن تنوع المخلوقات الحية قد تطور أصلاً من أشكال أو أنواع أساسية قليلة . وواصل العلماء تجاهله إلى ما يقرب من قرن إلى أن اعتبر الرائد الملهم قبل دارون .

وربما كانت أكبر مصيبة تدعو للحزن عن نظرية بوفون عن الكارثة هي صديقه ، وتلميذه جان - باتيست لامارك . لقد كان لامارك داعية متحمساً لنظرية التطور كما قال بها ميليه ولامتري وبوفون . لكنه لم يتبين سبباً يدعو لتقبل نظرية (الكوارث) . ومن المؤكد أن تنوع الأنواع يمكن تفسيره بتنوع الأحوال والظروف على الأرض . إن دبّاً في المناخ الثلجي لا يحتاج إلى أن يكون له فرو أبيض لإخفائه عن ضحيته ؛ أما دب الغابات فهو الذي يحتاج له لكي يتخفى بين الاشجار .

وفي عام ١٧٩٤ كان هناك شاب اسمه جورج كوفييه عُيّن في وظيفة بحديقة النباتات ؛ وأصبح من المحبذين للغاية للامارك . وفي الحقيقة برهن كوفييه أنه ولد كعالم لعلم الاحاثة بالطبع مثل ليناوس ، مع قدرة طبيعية على التشريح المقارن . وأكسبته نظرياته الجريئة شهرة واسعة باعتبارها نظريات ثورية . ومع هذا فهو من ناحية الجوهر أكثر محافظة من لامارك . لقد تقبل رأي ليناوس القائل بأن الأنواع غير تبادلية وإن كان ليناوس نفسه قد غيّر آراءه قبل خاتمة حياته . ولقد شعر أيضاً أن نظرية الكارثة عند بوفون هي مسألة خاصة بالحس المشترك العام . وفوق كل شيء فإن عيوننا تقول لنا إن العديد من الأنواع قد تلاشت الآن ، إنها لم تتطور إلى شيء مختلف . وقد استخلص أن الخلق قد تمّ في سلسلة من الخطوات - أولاها الفقاريات ثم الحشرات ثم الرخويات ثم الديدان .

وأضفت معرفته الواسعة الصدق على آرائه . ولقد اشتهر باستطاعته تكوين كل شامل لحيوان ما قبل التاريخ بدءاً من الحيوانات ذات العظمة الواحدة ؛ وقال إن الطبيعة متناسقة كلها وأن الخصائص الحيوانية تندرج في مجموعات (وأطلق على هذا اسم قانون الروابط) .

وأخيراً استخدم كوفييه قانونه عن الروابط للقضاء على سمعة وحياة صديقه القديم وناصره وحاميه . ففي ذات يوم حضر كوفييه احدى محاضرات لامارك وتحداه أن يبرهن على أن الحفريات هي أجداد لأنواع اليوم ؛ فرد لامارك بأن هذا مستحيل . وحينئذ اصطحب كوفييه الطلبة إلى حجرة محاضراته

هو وأعلن أنه قادر على أن يبرهن على أنه يعرف عن الحفريات معلومات تزيد عن معلومات لامارك . فاستخلص حفرية فيما قبل التاريخ عظمة واحدة منتثرة من صخرة . ثم بحرص شديد مرر الصخرة على الطلبة مدللاً على صحة كلامه . فحمله الطلبة وهو منتصر ، ومن ساعتها لم يكن يحضر أحد محاضرات لامارك . ومات بعد سنوات قليلة وقد هُجر ونُسي . ولم يلحظ أحد أن (برهان) كوفييه لم يكن صادقاً ؛ فالتعرف الصحيح على الحفرية من عظمة واحدة لا يبرهن ولا يدحض نظرية التطور .

ومفهوم عدم إدراج أندرو هويت هذه الحادثة . لكنه اضطر (بالفعل) إلى الاعتراف بأن كوفييه كان من أصحاب النزعات القطعية . وطريقته في هذا مهمة . لقد شرح أن كوفييه قد خاض الحرب (تماماً من أجل العالم ولكنه من الناحية اللاشعورية من أجل اللاهوت) ومضى موضحاً أنه (كان فيه كما في لينايوس بقية من الطرق اللاهوتية في النظر إلى الكون) . ولقد التزم هويت بالرأي القائل إن جميع اللاهوتيين قطعيون ومؤمنون بالخرافات ، وأن جميع العلماء مفتوحو العقل ومعقولون ؛ فإذا كان كوفييه ولينايوس قطعيين ولا يؤمنان بالعقل فلا بد أنهما لاهوتيان متنكران . ولرأي فان فوغت - على الأقل - ميزة رفع التناقض . إننا يمكننا أن نتوقع وجود عالم هو (رجل صواب) يتصرف تماماً مثل اللاهوتي الذي هو (رجل صواب) والعكس بالعكس .

وحتى في الموت كان كوفييه محظوظاً ؛ لقد مات عام ١٨٣٢ قبل أن تقضي على نظرية الكارثة اكتشافات علماء جيولوجيا من أمثال شارلز ليل . وكان لا بد أن ينقضي ربع قرن على العلم لكي يشفى من نتيجة خطأ كوفييه عندما قام شارلز داروين باعلان النفير من أجل المعركة القادمة في (نزاع العلم واللاهوت) .

الجدال الداروني إنما يمكننا من أن نتبين ما كان خاطئاً في العلم وما ظل سائداً كخطأ منذ ذلك الوقت . للوهلة الأولى تبدو المسألة بكل بساطة معركة بين قوى التقدم وقوى الرجعية . لقد كان الخصم الأكبر لداروين هو الأسقف ولبرفورس (ويُعرف باسم سام الصابوني لطريقته الناعمة) وواضح أنه متعصب حرون وقع فريسة مباشرة للعلماء . فعندما قال أحدهم إن داروين قد أمضى عشرين عاماً للبرهنة على نظريته في التطور رد ولبرفورس مكتسحاً : « إن شخصاً ذكياً لا يحتاج إلا لعشر دقائق تأمل ليتبين أن النظرية مستحيلة تماماً » . وفي مناظرة بجامعة أكسفورد استحق أن يسحقه ت . هـ . هكسلي بعد أن تساءل ما إذا كان هكسلي قد انحدر من قرد من ناحية أبيه أم من ناحية أمه . فرد هكسلي بعنف : « إنني ما كنت اخجل أن يكون اسلافي من القرود ولكنني كنت أخجل (بالفعل) أن أرتبط بإنسان يستخدم مواهبه الكبيرة لطمس الحقيقة » .

غير أن القصة تلقي ضوءاً على عدم دقة الرأي المعتاد عن المناظرة . ليست المسألة حقاً ما إذا كان الإنسان منحدراً من القرد ، فلو كان الأمر كذلك لكننا الآن اعترفنا بأن ولبرفورس كان على حق وهكسلي كان على خطأ ؛ لأننا نعرف الآن أن الكائنات الشبيهة بالإنسان انفصلت عن أسلافنا المشتركة منذ ٣٥ مليون سنة على الأقل . وقرد اليوم ليس سوى ابن عم بعيد تماماً ، وهو بعد مماثل لما بين الحصان والجمل .

لكن الجدال (لم) يكن يدور حول هذا . إن ما أقلق الكنيسة حقاً هو ما تضمنته نظرية داروين أنه لا يوجد شيء اسمه حرية الإرادة وأننا نعيش في كون بلا إله وبلا معنى . وقبل هذا بقرن تسبب الفيلسوف جوليان دي لامتري في فضيحة مماثلة بكتاب اسمه (الإنسان الآلة) (١٧٤٨) قال فيه إن النفس لا توجد وأن الإنسان يمكن تفسيره في الاطار الآلي فحسب . والغضب الذي انبعث من جراء هذا الرأي لم يكن يقوم على قناعة دينية بقدر ما كان يقوم على شعور بأن لامتري يتحدث عن لغو شديد ، ومع هذا يتحدى كل المحاولات لدحض مغالطته الأساسية . لقد كان داروين نفسه مسيحياً متزمتاً لم يقترح إطلاقاً أن الإنسان آلة أو أن الطبيعة لا غرضية . غير أن نظريته عن الانتخاب الطبيعي تجعل من حرية الإرادة شيئاً من نافلة القول . لقد اعتقد لامارك أن الأنواع تتطور لأنها (تريد) هذا ؛ إن الزرافة تطيل عنقها وتطيل حشرة آكلة النمل من قرن استشعارها بمحاولة الوصول إلى أماكن لست في المتناول . وداروين لا ينكر هذا ؛ لكنه أشار أيضاً أنه لم تكن هناك حاجة لبذل أي مجهود . ففي زمن نقص الطعام فإن الزرافات القصيرة العنق أو الدببة القطبية البنية اللون تموت ، ولا تعيش سوى الزرافات ذات الرقاب الطويلة والدببة القطبية البيضاء لتواصل أنواعها . وقد توصل صموئيل تبلر إلى نقطة معينة على نحو مباشر عندما قال ان داروين قد (ألغى العقل من الكون) .

إن موضوع القرد قد مكن الداروني من إحراز انتصار سهل على الكنيسة وعلى رجال مثل ولبرفورس ودزرائيلي (الذي أثار الضحك عندما قال إنه « في صف الملائكة »). لقد أظهرت النظرية هؤلاء الناس كما لو كانوا يقفون على كرامتهم غير راغبين في أن يصنفوا مع (الحيوانات الدنيا) ، مع أن اعتراضهم الحقيقي هو أنهم يُصنَّفون مع كتل الصخر وتربة الأرض . وهذه ليست مسألة كرامة بل مسألة حس عام مشترك . وأسرع طريقة لتدمير إنسان هو نزع شعوره بالحرية والمعنى ؛ والأمر نفسه ينطبق على الحضارات . ولو كان لبرفورس ذكياً بما فيه الكفاية للتوجه لقلب المسألة لكان قد أشار إلى أن العلم قد أدخل نفسه في تناقض رئيسي ، وإذا لم يكن العلم حريصاً فإنه سوف ينتهي بتعقيد نفسه . إن الناس يصبحون علماء للسبب نفسه الذي يصبحون من أجله مستكشفين : لذة الاكتشاف ، وإثارة المجالات والشعور بالامكانات المجهولة . فإذا أصر العلماء - انطلاقاً من مجرد إثارة الكنيسة - أنه لا يوجد شيء اسمه الإرادة الحرة وأن الكون بلا معنى وبلا غرض فإنهم يتسببون في ضرر

أكبر من ضرر عشرة من رجال محاكم التفتيش . إنه أمر مشين أن تدمر إحساس الإنسان بالحرية باسم تحريره من النزعة القطعية لدى اللاهوتيين الأشرار ؛ من الغباء محاولة اقناعه بأنه آلة لكي تحرره من خرافة أن له نفساً خالدة وقدرة على تقرير مصيره .

لقد كان العلماء مبتهجين للغاية عندما أتيحت لهم الفرصة للتلويح بقبضتهم في وجه الكنيسة . وما حدث بالفعل هو أن العلم أصبحت له السلطة كما تولى المتطرفون الفوضويون السلطة في فرنسا عام ١٧٨٩ والشيوعيون في روسيا عام ١٩١٧ . لقد ولّى النظام القديم ولم يكن لدى العلماء قصد أن يعطوه موطىء قدم في عالم أفكارهم الجديد .

ومقابل هذا نقول إننا لا نستطيع أن نتبين أن من حق العلم أن يتحدث عن مسائل حرية الإرادة والغرض ، بمثل ما أن البابا أوربان الثامن ما كان يحق له أن يتحدث عن المجموعة الشمسية . لقد كان دارون معنياً بالوقائع العلمية وهذه لا يمكن إنكارها ، غير أن عرضه لميكانيزم التطور لا (يبرهن) على المادية بمثل ما أن عرض لامتري من أن الإنسان آلة يدحض الإرادة الحرة . لكل إنسان الحق في أن يقرر أن الكون مصنوع من المادة ؛ ولكن ليس من حق أحد أن يقرر أنه ليس مصنوعاً إلا من المادة . من حق أي إنسان أن يقول إن الإنسان آلة (كرر هذا جوردييف) ؛ ولكن ليس من حقه أن يؤكد أنه (مجرد) آلة وعاجز عن أن يكون شيئاً آخر .

ولقد انزعج قليل من العلماء والفلاسفة إزاء هذا التيار الشمولي ؛ بل لقد كان لدى البعض منهم شجاعة لكي يصححوا هذا التيار . كان هناك عالم احياء شاب اسمه هانز دريش كان يعمل في محطة الحيوانات البحرية في نابلس ، في العقد الأخير من القرن التاسع عشر . وبدأت تنتابه شكوك إزاء تزمّت الموقف الميكانيكي . لم يكن يعبأ بجانبه الفلسفي بل بالاعتبارات العملية الخالصة . ولقد حاول تكرار تجربة على بيضة مخصبة سبق أن أجراها ولهلم روكس . وتقوم التجربة على الانتظار إلى أن تنقسم بيضة ضفدعة ثم يقتل أحد النصفين بإبرة ساخنة . والنصف الباقي يتطور - كما يمكن أن يتوقع الإنسان - إلى مجرد نصف جنين . ويقول روكس إن هذا يحدث لأن البيضة هي نوع من الآلة ويتطور النصف الباقي آلياً ، غير مدرك أن نصف أجزائه مفقود . وحاول دريش أن يجري التجربة نفسها مع بيضة قنفذ البحر ، ولدهشته تطوّر النصف الباقي إلى جنين كامل وإن كان بحجم النصف . واضح أن كل نصف من البيضة يحتوي على (طبعة) من الكل . ووجد دريش نفسه يتساءل كيف يمكن (لآلة) أن تعيد بناء الجهاز العضوي نفسه إذا انقسمت نصفين .

ولقد حاول تسطيح بيضة بين لوحين من الزجاج ؛ وعندما رفع الضغط استعادت البيضة شكلها البيضاوي . وإذا ضغط بيضتين معاً فانهما تختلطان وتنتجان يرقانة مضاعفة الحجم . ولقد حصل روكس على نتيجته من بيض الضفادع لأنها أبعد ما تكون عن التكيف عن الأنواع الأخرى ؛ ومع هذا فحتى بيض الضفادع يظهر سلوكاً (غرضياً) إذا ما عومل بعناية . بقول آخر ، من المهم ألا (نثبط همتها) . وفكرة عدم اثباط الهمة تطرح من جديد فكرة الإرادة الحرة .

لقد استنتج دريش أن الخلية الحية تستهدف نوعاً ما من (الكل) ، وقال إذا كانت تستطيع (أن تستهدف) فإنها لا يمكن أن تكون آلية تماماً . وانطلق من هذا فاقترح أن الأجهزة العضوية لا يمكن أن نفهمها إلا باعتبارها (كليات) تؤدي وظيفة ؛ والفيزياء والكيمياء لا تستطيعان أن تقصّا علينا كل شيء عن الجهاز العضوي الحي . وأخيراً ، بعد حوالي عشر سنوات من بداية شعوره بأخطائه، غامر وأعلن قناعته بأن الجانب الحيوي الغرضي في الكائن الحي هو (منفصل تماماً) بشكل ما عن كيميائه ، وأنه يتصرف من بعد آخر . ولم يضيِّع نقاده أي وقت للإشارة إلى أن (النزعة الحيوية) عند دريش ليست سوى عودة إلى الفكرة الدينية القديمة عن الجسم والنفس . ويعترض دريش ؛ لقد شعر بأن ما عليه أن يقوله أبعد من هذا تعقيداً وأهمية . وفي عام ١٩٠٨ وقع في خطأ التخلي عن العلم من أجل الفلسفة ، وبقدر ما يهم العلماء أظهر الآن نفسه في ألوانه الحقيقية ؛ فالفيلسوف لا يزيد إلا قليلاً عن كونه لاهوتياً متنكراً . ويمكن تجاهله بسلام ، واستمر العلماء يتجاهلون دريش حتى وفاته عام ١٩٤١ . وما حدث هو ما يمكن أن نتوقعه من نظرية (إنسان الصواب) عند فان فوغت . لقد حذا العلماء حذو اللاهوتيين .

والسخرية الكبرى في الموقف يمكننا أن نتبينها في التاريخ الغريب لظهور سقوط تروفيم ليسنكو . ففي روسيا في أواخر سنوات ١٩٢٠ كانت هناك اشادة بشكل من أشكال اللاماركية من جانب عالم الزراعة ا . ف . ميتشورين الذي أكسبه اشتغاله على أشجار الفاكهة استحسان ستالين . لقد اعتقد ميتشورين أن الخصائص المكتسبة (يمكن) أن تنتقل إلى الأجيال القادمة . لقد اعتقد أن القمح الشتوي (الذي يمكن أن يُعجّل إثماره) يمكن أن يتأقلم مع بذر الربيع بمعالجته بالمياه والتبريد . أما . ت . د . ليسنكو ، وهو عالم ماهر آخر في الفلاحة ، فقد أخذ بهذه الطريقة للاستخدام على نطاق عريض ، مع نتائج مفيدة للحصاد في أوائل ١٩٣٠ . وأصبح ليسنكو العالم المفضل لدى ستالين ، لا لأنه حسّن انتاج القمح فحسب (وهي مسألة يمكن الشك فيها) بل لأن فلسفته تبدو ملائمة لأغراض الدعاية . لقد آمن ليسنكو بأن الوراثة لا قيمة لها والبيئة هي كل شيء . ومن ثم فإن ما على كل الشيوعيين أن يفعلوه ليس إلا تحسين البيئة وفي خلال جيلين يكونون قد ربّوا نمطاً جديداً من الروس .

لقد كان التفاؤل لا ماركياً بكل تأكيد ؛ ولقد كان برنارد شو يقول بشيء شبيه بهذا منذ عام ١٩٠٠ . غير أن ليسنكو كان في

وضع فريد ، فهو يعيش في مجتمع قائم على المادية الجدلية ، ويروج لفلسفة قائمة على الإرادة الحرة والغرض . وفي مؤتمر علمي في عام ١٩٣٦ بدأ التناقض يظهر عبثاً . لقد أعلن ليسنكو أن نظرية الوراثة في التطور ـ القائمة على داروِن ومندل ـ لغو ، وأنها ليست سوى مؤامرة فاشية لتبرير الاضطهاد والقمع . وقال : إن علم الاحياء (المادي) السوفيتي يرفض كل هذه الأشكال (المثالية) . ومن ثم فإن العارض الأساسي للنزعة المندلية وهو ن . ا . فامنيوف قد ألقي القبض عليه واتهم بالتجسس والتخطيط للقضاء على الزراعة الروسية ؛ ولقد مات في السجن . وكانت الحرب عاملاً في إيقاف المزيد من الانقسامات بين علماء الإحياء الروس . ولكن حدث في عام ١٩٤٨ ، في اجتماع لأكاديمية لينين للزراعة ، أن اتهم خمسة علماء إحياء آخرون بالهرطقة المندلية وأرغموا على تقديم اعتذار والاعتراف بخطئهم .

لقد اكتمل الالتباس الآن : إن (الماديين) السوفييت الذين يؤمنون بالإرادة الحرة يندِّدون (بالمثاليين) الغربيين الذين يرفضون الإرادة الحرة . و (المثاليون) الغربيون الذين يؤمنون بحرية التعبير يندِّدون بزملائهم السوفييت الذين يسجنون الذين لا يؤمنون بالإرادة الحرة. ويبدو الأمر كما لو كانت الشعارات ترفع ثم ترتد على الناس .

وأخيراً مات ستالين وندّد به خروشوف باعتباره طاغية ؛ ونال ليسنكو التنديد نفسه الذي ناله أستاذه . وانتقل علماء الاحياء الروس من (المادية) المتفائلة إلى (المثالية) المتشائمة في الغرب . وهم مرة أخرى أحرار في أن يعتقدوا ما يشاؤ ون بشرط ألا يتضمن هذا ـ بالطبع ـ الإيمان باللاماركية أو الإرادة الحرة .

وواضح أن العلم والدين لا يمتلكان كلاهما احتكار الحقيقة . من الناحية المثالية يُعدّ العلم سعياً غير شخصي وراء الحقيقة ؛ وكذلك الدين كما يعترف بهذا جميع القديسين والمتصوفين . والسعي وراء الحقيقة يقتضي صفات معينة في القديس والمتصوف . والناس العاديون يتأرجحون بسهولة من جراء الرغبة في القوة والشهرة والتقدير الذاتي .

طوال الأربعة قرون الماضية والعلم ضحية الوهم بأن كل المطلوب ، وهو السعي وراء الحقيقة ، هو (المنهج العلمي) . ويكشف تاريخ العلم أن هذه النظرة خاطئة . فالعلماء يتنازعون بمرارة ـ ومراراً ـ مثل رجال اللاهوت وهم معرّضون لاستغلال السلطة الشخصية لقهر خصومهم .

فهل يعني هذا أن الحقيقة العلمية لا يمكن الحصول عليها ، واضح أن الجواب بالنفي . لقد كان نيوتن ـ على الأرجح ـ أكبر عالم كبير مصاب بالذهان وجنون العظمة ، ولقد كان دائم الشك في الآخرين حتى أنه رفض أن ينشر اكتشافاته خشية أن تُسرق . ومع هذا فإن كتاب (المبادىء) يعد صرحاً هائلاً (للحقيقة العلمية) . وهذا يبرهن على أن (رجل الصواب) يمكن أن يكون عالماً كبيراً ؛ لكنه لا يبرهن على أن جنون العظمة صفة عقلية مرغوبة ؛ وواضح أن المشكلة هي أن معظم العلماء لا ينقدون أنفسهم بما فيه الكفاية حتى يتبينوا متى يتصرفون مثل رجال اللاهوت .

وفي الدراسة الهامة (بناء الثورات العلمية) (١٩٦٢) يدرج المؤلف توماس اس . كوهن تجارب تنفذ إلى صميم الموضوع ففي ١٩٢٩ أجرى ج . ا . س . وبرونر وليوبوستمان تجربة مثيرة في الإدراك الحسي . فقد طلب من الذين أجريت عليهم التجربة أن يسموا أوراق اللعب التي يتم إظهارها لهم . وبعض هذه الأوراق قد صُنعت خصيصاً بها بعض (التغييرات) المتعمدة مثل القلوب السوداء والأسباتي الحمراء وعندما تكون الأوراق مكشوفة للحظة وجيزة فإن من تجري عليهم التجربة سيحددون القلوب أو الاسباتي دون أن يلاحظوا خطأً في اللون . وعندما يتم كشف الورق لفترة أطول يصبحون متحيرين ؛ على أنهم يعرفون أن هناك شيئاً خاطئاً ولكنهم لا يستطيعون تحديده . وإذا كان كشف الورق يستغرق مدة طويلة كافية فإن معظمهم يستطيع أخيراً أن يحدد الخطأ . ولكن هناك قلة لا تدرك ما الذي يجري ، وهؤلاء يعيشون في (محنة شخصية دقيقة) .

ويقول كوهن إن العلماء بمجرد ما يصبحون مستقرين على نظرية معينة فإنهم لا يرغبون الاعتراف بأنه يمكن أن يكون هناك خطأ . وإذا ازدادت الوقائع المتناقضة يزدادون استياء وغضباً . لكنهم غير مدركين قط أنه يوجد شيء غير معقول في رد الفعل هذا ، إنهم يشعرون بأنه غضب طبيعي لإنسان معقول في مواجهة أشكال العبث المضيعة للوقت .

ويدرج كوهن تجربة من أكثر التجارب دلالة في تاريخ البحث العلمي ؛ وقد جرت التجربة في كلية رادكليف في ١٩٤٢ وقامت بها الدكتورة جرترود شميدلر وأصبحت معروفة باسم (تجربة الغنم والماعز) . كانت الدكتورة شميدلر تختبر مجموعة من الطلبة لبحث الإدراك الحسي الخارق ، فكانت تطلب منهم تخمين البطاقات . وقبل التجربة كانت تسأل عمن يؤمن في امكانية الإدراك الحسي الخارق ، ومن يرد بالإيجاب تصنفهم على أنهم غنم ، ومن يرد بالنفي تصنفهم على أنهم ماعز . وأظهرت النتائج أن نسبة الغنم عالية ، غير أن الشيء المثير للغاية هو أن الماعز قد سجلوا نسبة منخفضة ، أي أنهم كانوا (يغشون) على نحو فريد لتدعيم رأيهم في أنه لا يوجد مثل هذا الإدراك الحسي الخارق ، فكانوا يتجاهلون تخميناتهم عن البطاقات . وفي هذا كانوا يظهرون إيماناً بالادراك الحسي الخارق شأنهم شأن الماعز ولكن على نحو سلبي . لقد كانوا واقعين تحت تأثير تصحيحهم (ألّا) يؤمنوا بالإدراك الحسي الخارق .

ولم يكن كوهن أول من حلل هذه السلبية اللاشعورية . فلقد وضع عالم النفس والفيلسوف الأمريكي وليم جيمس يده عليها في مقال له عنوان كله دلالة : (حول عماء معين عند الإنسان) .

وتعرف وليم جيمس على هذا (العماء) المتعمد الذي يشكل أساس عمل إنسان آخر من نيويورك أمضى حياته يخاطب العلماء حول نقص انفتاح عقولهم واسمه شارلز هوي فورت . وبسخرية شديدة أصبح هذا الجامع المنهجي الصارم (للوقائع المغلوطة) معروفاً كقديس للمجانين المهووسين .

لقد كان فورت الابن الأكبر لرجل أعمال ثري سيِّء الطبع ؛ ولقد نشأ ولديه حسّ بالجور وكراهية لوالديه . وعندما بلغ الثانية والعشرين بدأ كتابة القصص بأسلوب يشبه أسلوب مارك توين . وبدأ ينمي ايضاً اهتمامه بالقصص الغريبة - كتب عن الهرم الأكبر وقارة اطلنطيس وقنوات كوكب المريخ . وأول كتاب غير قصصي يؤلفه ، وهو في منتصف الثلاثين ، اسمه (هـ) قال فيه إن حضارتنا يتم السيطرة عليها من المريخ . وفي كتابه التالي (و) عرض لنظرية الأرض المجوفة ووصف حضارة داخل القطب الجنوبي . ثم فُقدت المخطوطتان ، ويبدو أنهما كانتا استباقاً لشيء جعل اريك فون دنكن انساناً مشهوراً في سنوات ١٩٦٠ ، والسبب في استبعاد هاتين المخطوطتين هو بالتأكيد أسلوب فورت المروّع ، ولا بد أنه أسلوب أقلق الناشرين عام ١٩١٠ بشكل أشد مما في سنوات ١٩٦٠ .

وفي عام ١٩١٦ ، عندما كان فورت في الثانية والأربعين ، مكنته أسطورة صغيرة من تكريس أيامه في المكتبات العامة بنيويورك بحثاً عن دوريات تتناول الأحداث الغريبة والتي لا تفسير لها . واستلفت نظره أنه بالرغم من أن الصحف العلمية (تدرج) غالباً أحداثاً غريبة ، إلا أنه لا يوجد من يفسرها . والقصص الغريبة الكثيرة بصفة خاصة هي التي تتناول الأشياء الساقطة من السماء : لا الشهب فحسب بل وابل الأحجار والفحم والأسماك والضفادع والرمل بل وحتى الدم . وقد أشار فورت إلى أنه حدث في ١٣ سبتنمبر (أيلول) ١٧٦٨ أن سمع فلاحون فرنسيون من الحقول بالقرب من (لوس) اصطداماً عنيفاً مثل العاصفة الرعدية ورأوا شيئاً حجرياً ضخماً يهبط من السماء . ولقد طلبت أكاديمية العلوم الفرنسية من عالم الكيمياء الكبير لافوازييه تقريراً عن الحادث ؛ غير أن لافوازييه كان مقتنعاً بأن الأحجار لا تسقط اطلاقاً من السماء ، وقال إن كل الشهود كانوا مخطئين أو كذابين . ولم يحدث إلا في القرن التاسع عشر أن آمنت الأكاديمية أخيراً بحقيقة الشهب .

وكتاب (كتاب الملعونين) هو مجموعة من مئات الأحداث الغامضة وهو كتاب جعل فورت من ضمن المشهورين من رجالات الأدب . ولم ينجح الكتاب في الوصول إلى الجمهور الواسع ، لان فورت يكتب باسلوب لا يكاد يصلح للقراءة ، وهو يتنقل من موضوع الى موضوع . غير أن الوقائع مذهلة بما فيه الكفاية . فقد وصف - على سبيل المثال - سلسلة غريبة من الأحداث التي وقعت في أوائل سنوات ١٨٦٠ . ففي يوليو (تموز) ١٨٦٠ سقط شهاب هائل مغطى بالثلج في دورمالّلا بالهند ، وقد وصفه نائب القنصل البريطاني في المنطقة . ولكن كيف يمكن لشهاب - يصبح شديد الالتهاب بالحرارة وهو يخترق مجالنا - أن يُغَطّى بالثلج ؟ ولقد شاهد نائب القنصل في المساء التالي أضواء تتحرك في السماء مثل البالونات النارية . وفي الوقت نفسه نشرت صحيفة في بنارس نبأ غريباً عن وابل من الأسماك الحية ، بينما في فاروكبهاد أمطرت مادة حمراء من السحب . وفي عام ١٨٦١ كان هناك زلزال في سنغافورة أعقبه مطر مدرار استمر عدة أيام ؛ وفي البرك التي تخلفت من المطر في الشوارع وجدت أسماك حية وهي تسبح . والنظرية الشائعة القائلة إن المطر تسبب في فيضان أحد الانهار تبدو متناقضة ، فقد وجدت أسماك في فناء محاط بسور عال .

اعتقد فورت أن هذه الظواهر الغريبة مرتبطة بشكل ما بالفضاء ؛ لقد كانت هناك تأثيرات قمرية في السماء مثل رياح الشمال الشفقية في وقت هذه الأحداث الغريبة ، فترة ظلام خلال ساعات النهار ، بقعة سوداء في الشمس ، وزلزال . إننا قد نعرف قدراً كبيراً عن سطح كوكبنا لكننا لا نعرف إلّا القليل عن بلايين الأجرام في الفضاء والتي تدور فيه الأرض . وقد مال دامون نايت الذي كتب سيرة فورت إلى اعتناق الرأي نفسه بعد أن أتعب نفسه بوضع قائمة كبيرة لكل الأحداث الغريبة التي جاءت في كتب فورت ووضع رسوماً بيانية تظهر أوقات حدوثها . ولقد اكتشف معامل ارتباط مباشراً بين العواصف والأشياء التي تشاهد في السماء والاشياء الساقطة في الجو وبين الأشياء التي تشاهد في الفضاء (مثل البقع الشمسية والمذنّبات) فمثلاً وصلت كلها الذروة في عام ١٨٨٧ ثم مرة أخرى في عام ١٨٩٢ . ويرى نايت أن مثل هذه الأحداث قد ترتبط بقوى تمارسها الأجرام السماوية - وهي قوى يؤمن بها المنجمون . غير أن فورت لم يبذل أي جهد لتقديم حجة متماسكة سواء في كتابه (كتاب الملعونين) أو في الثلاثة مجلدات التي ظهرت بعده . إنه قادر على أن يقول في احدى الصفحات إن هناك قارة طافية في السماء معلقة فوق الهند في عام ١٨٦٠ ، وفي الصفحة التالية يقول إن هناك كوناً مماثلاً لكوننا في (بُعْد) آخر . وتشعر أنه لا يأخذ بأي من الفكرتين مأخذاً جاداً . إن هدفه هو استثارة (الغضب والحنق) عند العلماء وإرغامهم على فحص فروضهم . غير أنه لم ينجح ، فلقد تجاهله العلماء .

وبعد وفاته عام ١٩٣٢ نُسيت مؤلفات فورت فيما عدا دائرة صغيرة من المعجبين الذي أسسوا (جمعية فورت) وبدأت كتبه تحظى باهتمام مرة أخرى في أواخر سنوات ١٩٤٠ بعد قضية كنيث أرنون الغريبة بعد مشاهدته لأجسام طائرة مجهولة بالقرب من جبل رينير في ولاية واشنطن . وعندما أصبح الطبق الطائر موضوع الساعة تذكر أحدهم أن فورت قد تحدث عن مثل هذه الأشياء من عدة سنوات . فمثلاً في كتابه (كتاب الملعونين) أدرج تجربة عالم فلك اسمه إ . و . موندر من مرصد

جـرينويتش : ففي نـوفمبر (تشـرين ثـان) عـام ١٨٨٢ لاحظ مـوندر نـوعاً من الشفق ووسـطه قرصـاً دائرياً ضخـماً من النـور الأخضر يمر عبـر القمر . وفي ذلـك الكتاب نفسـه قال إن هنـاك (زواراً) كثيرين للأرض بـل لقد أدرج أكبـر أفكاره شهـرة وهي أن البشر هـم (ملكية) أمثـال هؤلاء الغربـاء . غير أن فـورت لم يلزم نفسه بأي نظرية من ذات الطابع عنـد دنكن عن وجود آلهة من النجوم . وموقف فورت بالنسبـة للمعلومات التي لـديه يمكن وصفها كما لو كان جالساً على سور وأذناه إلى الأرض .

وإن تـزايد الحديث عن الأجسام الـطائرة والهبـوط عـلى القمـر وإمكان وجود حياة على الكواكب الأخرى قد جعل أعمال فورت تنتشر فجأة عـلى نطاق أعـرض من السابق . لقـد أصبح معـروفاً باعتباره نبي ما لا يُفَسّر . ويعد هذا سـوء تقديـر له . وإذا أمكن للعلماء أن يكتشفـوا نهائياً أن الأجسـام الـطائـرة (هي) زوار من الكواكب الأخرى أو من أبعاد أخرى فـإن هذا يمكن وصفـه بأنـه اكتشـاف علمي ، وفي هذه الحـالة يعـد فورت مجـرد رائـد بعيـد النـظر . ولكن هذا ليس مما يعنيه ؛ إنـه بـلا رغبـة في أن ينضم لركب العلماء . ان كتبه مثيرة للغاية لأنه يناضل لشن نقد أساسي لفكـرة العلم كلهـا . وهـذا النقـد هـو الـذي نبحثـه في هـذا الفصل : الشعور بأنه مهما (يعتقد) العلماء فإنهم مؤمنون بـأنهم لا يزالون متأثرين بالفروض (الـلاشعوريـة) المختلفة التي تحـول بينهم وبـين احراز المـوضوعيـة الحقة . وإذا عبـرنا عن المسألة في جملة واحـدة فان مبـدأ فورت يمكن أن يكـون على هـذا النحـو : النـاس الـذين لـديهم رغبـة سيكـولـوجيـة لـلإيمـان بـالعجـائب والمعجزات ليسوا من أصحاب الأحكام المبتسرة على نحو أكبر من الناس الذين (ليست) لديهم رغبة سيكولوجية للإيمان بالعجائب والمعجزات .

وهكـذا دعونـا نختم هذا الفصـل بإعـادة طرح حجـة فورت الأسـاسية التي حـدث أنها أيضـاً هي الحجـة الأسـاسيـة في هـذا الكتاب .

يعـد العلم منهجـاً لبحث الكـون . وأي بحث طيب يبـدأ بمحاولة (رسم أبعاده) . إنه يحاول أن يرسم خريطة ذهنيـة لنوع الكون الذي يعتقـد أنه يبحثـه (الخريـطة التي رسمها بـطليموس تـظهر الأرض في مـركـز الكـون والنجـوم والكـواكب تلف كلهـا حولها) . مثل هذه الخريطة الذهنية تسمى (الأنموذج) .

وعـندما نتـطلع إلى تاريخ العلم فاننا نرى النمـاذج تستبـدل وتحل محلها نماذج جديدة دائماً ، غـير أن هذه العمليـة ليست آلية كـما يتوقـع الإنسان ، فـالعلماء يبدو أنهم يكـرهون أن يتخلوا عن نماذجهم القديمة ويتمسكوا بها بقدر المستطاع عازمـين على تجـاهل النماذج الجديدة أو استبعادها .

إن لدينا جميعا حاجـة أساسية للاعتقاد بأن الكون مكـان ثابت ومرتب كما تمّ عرضه في تجربة قـام بها الـدكتور أنـطون هاجـوس بجامعة اينسبروك في أوائل سنوات ١٩٦٠ . لقد صنـع هاجـوس نظارة تجعل كل شيء مشوّهاً ، فالخطوط المستقيمة تصبـح منحنية والزوايا تلتوي خارج الشكل والخطوط الخارجية تتآطر بمنشـورات من الألـوان . والأشياء لا تصبـح في الموضـع المفـروض أنها فيـه وتكون هناك حركات غريبة عندما يستدير الإنسان برأسـه . ومع هـذا عندمـا يطلب من البعض أن يـرتدوا هـذه النـظارات طـول الـوقت سرعـان ما يتعـودون عليها . فـالخطوط تنفـرد عـلى نحـو مستقيم وألـوان المنشور تختفي ، وبعـد ستة أيـام يبدو العـالم مرة أخـرى عادياً تمامـاً . وعندمـا يتم خلع النظارة تبـدأ المشقّـة من جـديد ويقتضي الأمـر عدة أيـام حتى تعـود الأشيـاء إلى وضعهـا الطبيعي .

إن البشر يمتلكون آلية تثبت الأشياء تعمل على مستـوى نفسي تماماً كما تعمل على مستوى فيـزيائي . وهـذا يفسر السبب الـذي من أجله يستـطيعـون أن ينجـزوا عمـلاً بـطوليـاً مستحيـلاً وهم يركبون الدراجة . هذا يفسر ايضاً السبب الذي من أجله نجد أن الناس الذي اهتزوا من جراء كارثة ـ كزلزال مثلاً ـ يستطيعون أن يبدأوا من جديد . والشخص الذي يخاف خوفاً شديـداً من عدم الأمـان يكون خـائفاً من أن يبـدأ الحياة . و (ذلـك) هو السبب الـذي من أجله نميـل إلى تجاهـل الأشيـاء التي تقلب شعـورنـا الأساسي بالمعتادية والعـادية ـ أو ننسـاها بـأسرع مـا يكون . إنها ليست آلية لا اختيارية ، بل هي آلية لا شعورية .

فإذا أقررنا بهذا فإن عالماً مليئاً (بالاستثناءات) يصبـح أشبه بالكابوس ونحن نستطيـع معاً أن نتـذكر مصـاعب اليوم الأول في المدرسة الجـديدة أو التقلبـات الانفعاليـة للمراهقـين عندمـا تنهار ثـوابت الطفـولة من تحت أقـدامنا . ومـا من إنسان يستـطيـع أن يقاوم تماماً هذه (الثورات) . غير أن عـالماً (بـدون) استثنـاءات هـو بدوره عـالم قادر عـلى تحويلنـا إلى خضـروات أو يـدفعنـا إلى الجنـون . ومعروف أن الشعـراء يـدمنـون الخمـور أو المخـدرات للهرب من مثل هذا (الثبات) .

والمشكلة هي إقامة توازن بين التطرفين . إننـا نحتاج إلى عـالم فيـه من الغرابـة و (الجـدّة) مـا يجعلنـا متيقـظين ولكن ليس إلى درجة توليد شعور بعدم الأمان . وهنا علينا أن نعتـرف أن الناس المختلفين يستطيعون أن يواجهـوا درجات مختلفـة من اللايقـين . وكما رأينا فإن معظم العلماء يبدو أن لديهـم دافعاً قوياً للتمسك بنماذجهم القديمة . ومقابل هذا نجد أناسـاً مثل فـورت ولثبردج يجدون لذة في العالم ينفجر بالأشياء الشاذة . ومن الحق أن لثبردج قارن اكتشافاته بشعور الثلج وهو ينهـار تحت قدميـه ؛ غير أنـه لم يتأذّ من برودة الماء .

وعلى أية حال فشل لثبردج وفورت في تقديم أنموذج جـديد . لقـد حاول لثبـردج بجدية ولكن لا نجد شيئـاً في كتبه يـدل على وجـود عالم منفتـح العقل يبـدأ بـإعـادة تنقيـح نـظرتـه للكـون . ويعترف فورد صراحة أنه ليست لديـه نظريـة جديـدة عن الكون يقـدّمها . واسهـامه الأكبـر هو أن يكـرر مراراً وتكـراراً أن نماذج

العلماء غير دقيقة بالمرة . ويمكن أن نوجه إليهما اتهاماً بأنهما ليسا مطلعين بما فيه الكفاية (بمدى) مجال (الخوارق) .

وعلى سبيل المثال نجد أن ملاحظات لثبردج عن تصرف البندول يتضمن أن هناك جزءاً (آخر) من العقل يعرف أجوبة جميع الأسئلة . لقد كتب في كتابه (الإدراك الحسي الخارق : ما وراء الزمن والمسافة) : « بالرغم من أن هذا التأثير قد يكون بالمثل النفس عند يونج فليس يحتمل أن يكون لا شعورياً . وهذا الجزء يبدو في الواقع مستيقظاً للغاية وأكثر معرفة عن العقل ». إنه يعترف بأن يونج هو واحد من الرواد الرئيسيين لهذه المنطقة المجهولة من الوعي ؛ ومع هذا يبدو أنه لم يُعَنِّ نفسه إطلاقاً بقراءة يونج على نحو منهجي ليستخلص ما قاله عن اللاشعور الجمعي . وفي الحقيقة نجد أن دراسات يونج في الشخصية المتعدّدة ـ التي بدأ بها عمله كعالم نفس ـ قد سبقه بها بيير جانيه الذي تفسر أنظاره في بناء النفس كيف أن جزءاً من العقل يمكن أن يكون (لاشعورياً) ومع هذا يكون « أكثر معرفة من العقل ». وإلى أن نبدأ دراسة هذه الآليات الفعلية وكيف ترتبط بالادراك الحسي الخارق والتنبؤ والطاقات الغريبة التي تنتج نشاط الأرواح الشريرة فإننا لن نأمل في بدء انتاج نموذج يرضي العلماء .

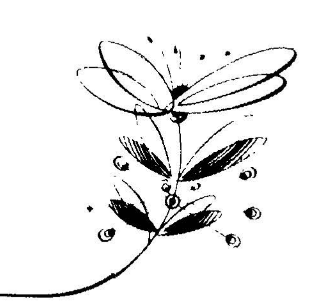
وهذا النوع من النقد يمكن أن يوجه إلى يونج . ففي مرحلة مبكرة من عمله أدرك أن اجزاء من العقل تهمه مرتبطة أيضاً بالمعرفة (الخارقة) والنظرة الثانية وما إلى ذلك . ولقد تبين أيضاً أن علم الخيمياء مليء بمفاتيح لهذه المناطق من النفس ، ومع هذا ، بالرغم من أنه كتب ثلاثة كتب كبرى عن الخيمياء ، فإنه لم يبذل أية محاولة لربط اهتمامه بالخيمياء باهتمامه بالخارق ، وذلك لأنه لم تكن عنده أية فكرة عنه . كان يمكن أن يجد مفاتيحه في عمل جورديف الذي أشار إلى منهجه كشكل من أشكال الخيمياء ؛ ولكن واضح أنه لم يعن نفسه لبحث الأمر .

ولا يوجد سبب لا يجعلنا نأخذ مفاتيحنا أينما نجدها ـ عند لثبردج ، يونج ، جانيه ، جورديف ، الخيمياء ، التنجيم ، بل وحتى السحر المليء بالطقوس . لهذا دعونا نر ما إذا كان في استطاعتنا أن نقدم ـ على الأقل بعضاً من الأجزاء الناقصة في أنموذج لثبردج(*) .

(*) فصل من كتاب «خفايا الحياة» الذي يصدر قريباً عن دار الآداب، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد .

صندوق الدنيا

سمير الخطيب



اعتراف:

نحن الأطفال شهود عيان
لم يطلب منا أحد بعد
شهادتنا،
لا نتوقع من أحد
ان يفعلها
ولذا جئنا داخل صندوق الدنيا
نروي القصة
من أولها.
اسمي: عادل
وابي: أحمد
يتجول كان
على الشطآن
يرتسم البحر
على عينيه:
بلون الشاطىء والموج
وبشكل اللهفة
في شفتيه
للقيا ضفته الأخرى.
ينقل كان
حديث البحر
على أوراق طفولته،
يصنع زورقه الورقي
ويمضي لحدود الدنيا: يمخر أصقاع الحلم.
وللأطفال المنتظرين
قرب الصندوق الخشبي ـ اقصد صندوق الدنيا ـ
فان البحر: عيون الرحلة.
والأمواج: شراع الزورق
والصندوق الأبيض: خشبة.

في صيدا، صور، والنبطية:
يعشوشب كان
على الأكواخ التنكية،
ويحاور كان الخضرة.
وبقايا منسية،
يتخلل نسغ الزعتر
والوطن المسبي،
يغويه «النهر البارد»
فيموج مع الأعشاب،
يحمل رمحاً بريا.

* * *

كل الأوقات
لديه سواء،
يظهر في كل الأزمان
ويقطع ازهار الوقت.
يرسم للأطفال
المرتحلين مع الصندوق:
أرضاً، وامرأة حبلى
وحدوداً من نفط أسود.
وخياماً تأخذ
شكل السيف
وتغرق في سحب الرمل

* * *

يبكي كان كطفل
حامل صندوق الدنيا،
ويبوح بسر الحزن
لساقية
ولغصن غادره الطير

حين اخترق النفط الأسود
عين الشجرة
فامتلأت رملاً
وانطفأت فيها الخضرة

* * *

اسمي: عادل
وأبي: احمد
كنا
من صندوق الدنيا
نأكل:
حين تجن فصول
تأكل فيها الريح الدنيا
وأبي يأكل بعض الحلم
الساكن في عينيه
رسوماً،
يغفو الشارع
في عينيه
والنهر البارد
في كفيه،
وفي الأحداق
وفي الصندوق.

* * *

اسمي: عادل
وأبي معروف
في كل الأرجاء
هو يحمل كل الأسماء:
من تحنان النهر البارد،
من صور، حيفا، يافا،

أو من صيدا .
يصبح وجه أبي
في شكل العرس
إذا مرت
أنسام المدن المسبية .
أحياناً : في شكل عقال . . . كوفية .
وإذا غابت .
يظهر في شكل شراع
يبحر شرقاً وجنوباً .
يتخطى مدن التفتيش
وموت الحلم العربي

* * *

اسمي : عادل
وأبي : صندوق الدنيا .
كانت صيدا
تنعم بالصحو الوردي ،
بطعم التبغ ،
بشكل البحر
الآتي من كل الأطراف .
كان الصندوق
مع الأطفال :
في الحلم يلاحقهم ،
في الصحو يعاودهم ،
ويكرر صورة حيفا
والوطن المصلوب .
على امرأة ،
وخياماً
تأخذ شكل السيف .

* * *

صندوق الدنيا
يحمل أطفال فلسطين
إلى صيدا ، والنهر البارد ،
ينقل أطفال النبطية
من وجع الكوخ التنكي
الى حيفا ،
ويعود اليها صبرا ،
يتوحد مع بيروت الجبلى ،
يتمايل فوق المدن
الزيتية .
صار هلالاً
في زمن غياب الشمس :
يعكس شكل خسوف الحلم
على الناصية العربية

* * *

قرص الشمس أتانا
في أحد الأيام :
بلون رغيف ،
فانسلت سحب
في حضن العشب ،
توارت
تحت سياط الشمس .
واندفع الوحش : مغنياً كان
له ذنب ليلي
وجناح مثل غراب البين
فتسمَّر خيط دخان
قرب الصندوق ،
وامتزجت رائحة الموت
بمخ الريح الهاربة
شمالاً
وجنوباً
وصلت حتى الحد الفاصل
مع وطن الزيت
الأسود ،
وبدا الصندوق الخشبي :
جرحاً يعلو
فوق الأسلاك
وبدا الأطفال المحترقون
عيوناً
في بئر النفط .

قصة قصيرة

في انتظار الصباح

ابو الشيماء البراق ع الجليل

يسطو الحزن عنيفا على ضحكتك . . . ويتمطط الألم الأسود فوق الأمل المنبسط على تقاسيم وجهك . . . تدك الأرض دكا في خطوات تبدو للناظر شريدة ومخبولة . . . ترتجف عيناك من الرد المرحين ترى المكتبة غاصة بالمشترين ، ويحتدم الصراع بداخلك في اللحظة التي ترتطم عيناك بالألواح الصغيرة المكتوبة عليها «الطلق ممنوع والرزق على الله » يتحول الريق في فمك إلى حنظل . . . تشعر بقشعريرة برد تسري في جسدك ، سرعان ما تحدث خللا في دقات قلبك ، يبدأ العرق يتصبب من جبينك ، وتخترقك من جديد أسئلة اطفالكِ الملحاحة البريئة :

ـ بابا . . . متى ستشتري لنا اللوازم المدرسية؟
ـ غدا إن شاء الله .

ترميك زوجتك بنظرات حزينة أقرب الى العتاب الخفيف ، تطرق برأسك الى الأرض وأصابعك منغرزة في شعرك . تشعل سيجارة جافة كجيبك بعدما تتهالك على السرير ، وتسرح ممزقا في البحث عن أقل أمل . الليل الملوث بالخوف من الغد أشبه بالغثيان الذي يسببه الجوع ، هكذا يحدث حين تمد يدك الى جيبك بحثا عن درهمين ثمن قهوة الصباح في انتظار أن يأتي صديق تسأله دينا من جديد . . . كأس قهوة الصباح والسجائر الرخيصة والأخبار الآتية من لبنان . . . الفان وخمسمائة راحوا ضحية لمجزرة رهيبة بالأمس . . . تحتسي مع القهوة أحزان الشرق الكبرى . . . و . . . وتتخلص من حزن اللوازم المدرسية .

عيناك تلتهمان بشراهة العناوين الكبيرة للصحف . . تكدس جوفك بكتل دخان السجائر، ووجهك يمتقع مع كل كلمة من خبر « القتل والهدم والاغتصاب . . . ولبنان اليتيم الوحيد ما يزال يستشهد ، و . . . وسيظل »

تفاجأ بتحية صباحية لصديق قديم من أيام الدراسة الابتدائية . . . وبحنكة وصبر ، تحول الامتقاع الجاثم على محياك الى ابتسامة رمزية جوفاء، يجلس الى جانبك ، ويخوض معك في حديث كالقطران ، فهو ، يحدثك عن تعادل ليفربول المشرف، وأرقام اللوطو ، وعن فيلم « فأر أمريكا » وبطلة شارلز نافور ، وعن زجاجة الويسكي التي شربها ليلا مع حبيبته والثلاث مائة درهم التي ناولها صباحا بعدما واعدها باكثر إن هي اقبلتْ في الغد ومعها واحدة اخرى لصديق له .

وكأي إنسان محتاج إلى دين ، تعرض عليه مشاكل الدخول المدرسي ، فيصغي اليك وعيناه زائغتان مع كل واحدة تمر أمام المقهى . تطلب منه نقوداً على أن يستردها في نهاية الشهر ، كم هي قاتلة هذه اللحظة حين يجيبك أن ما كان عنده دفعه بالأمس لصبية ، يعتذر بلباقة ، ويتركك متشرنقاً الى حد الاختناق مع احزان لبنان الصعبة وحزن اللوازم المدرسية .

ـ عبث . . . خبث . . . تفو على أولاد الحرام .

تمسح المقهى بالتفاتة مرخية متعبة ، وفي الركن المقابل ترى صديقا تعرفت عليه حديثا . . . تدلف نحوه ليعانق وجودك . يفرح ، وتخوضان في احداث لبنان والمنطقة العربية . . . يحلل وأنت تعلق ، تتشنج الأعصاب وينزلق حديثكما من الهمس إلى الجهر ، يجلس اليكما ثالث ورابع فخامس والحلقة تكبر وتتسع ، وأنت وحدك تعيش الأزمة / القضية .

تنتبه الى الساعة ، فاذا هي العاشرة والابناء سيذهبون الى المدرسة في العاشرة ، تنفرد بصديقك خارج المقهى . تعرض عليه مساعدتك ، يعطيك ما تريد، تهرول الى المكتبة ، وتشتري اللوازم المدرسية .

ـ كتب . . . كتب،كتب،دفاتر ،دفاتر ،دفاتر، اقلام وغلافات، منجرات ومسطرات . . . الخ . . .

تعود الى البيت ، تجد الأطفال يبكون وينتظرون ، وعلى وجه الزوجة تطفو صفرة كأوراق شجر هذا الشهر الملتاع . . . تمسح دموعهم باللوازم المدرسية، يفرحون . . . والى . . . الى المدرسة ينطلقون .

تشعل السيجارة المتبقية في جيبك . . . تستمر في احتساء القهوة ، تشعر من جديد بقشعريرة برد في جسدك ، وبالخلل في دقات قلبك ، وبالرغبة في القيء ، تنادي زوجتك المنهمكة في غسل ملابس الأطفال ، تقبل لتجدك ملقى بلا حراك ، تضع يديها على أذنيها وتصيح ؟؟ . .

في الهزيع الأخير من الليل، تفتح عينيك وتسمع أنات كثيرة متداخلة ، تحاول الوقوف، تسقط من السرير، يسرع اليك الممرض، يسعفك ويعيدك الى السرير، يقول :

ـ لا تتعب نفسك بالتفكير والكلام . . . لا تأكل أي شيء . . . ستجري لك عملية جراحية غداً أنت مريض بالمرارة .

تسأله عن احداث لبنان . . ينظر اليك برفق . . . ويمعن في التفكير كما لو يتذكر شيئاً ضاع من سنين . . .

يجيب :

ـ ريغان أرسل برقية الى بيغن ، يلتمس منه انسحاب الجيش الصهيوني من بيروت الغربية فقط .

يبتسم الممرض ابتسامة حزينة ذابلة جامدة صفراء، تهز رأسك المنفوخ وتقول :

ـ حاضر . . . سوف لن أتكلم . . . وسأمتنع عن الأكل في انتظار الصباح . . .

ابو الشيماء البراق ع الجليل

مكناس ـ المغرب .



امين مازن

لم تستطع علاقة المثقف العربي بالتراث، أن تتجاوز موقفين لا ثالث لهما . . . موقفا يرى في هذا التراث المثل الأعلى ، وما سواه مجرد عبث وتكرار ، وهو ما اصطلح على تسميته بالسلفية التي عجزت عن مواكبة روح العصر ، وظلت على الدوام تعيش حبيسة فلسفة معروفة ، مفادها أن ليس بالامكان ابدع من كان . . . وموقفا اخر قفز الى رفض هذا التراث ، وأمسى يرى فيه ضرباً من ضروب التحجر والرجعية وعدم القدرة على ابتكار الجديد ، وهو الموقف الذي يمكن وصفه بالموقف المتسلق الذي يتجاوز القواعد الأولى من الحركة ، فيكون مصير الآخذين به في الغالب السقوط المؤكد سواء في بداية المشوار او حتى بعد قطع مراحل طويلة من الرحلة !

وربما كانت هذه النظرة شاملة ، اتفق فيها من يدرس المجتمع ، مثلما وقع فريستها من تصدي لدراسة أطر لإبداع المختلفة .

غير انها بالنسبة لدارس التجربة الشعرية العربية ، كانت اكثر وضوحا ، واشد تأثيرا على تطور اسلوب الشعر ، وتجدد الرواية الشعرية .

اجل ، لقد كانت قراءة الشعر العربي لدى الكثير تقف دائماً في حدود الحماس الأجوف ، والحكمة السائرة ، والمثل المكرر وحتى عندما بدأت فكرة تقديم المختارات تطرق باب الأدب العربي الحديث، كانت النظرة التي تحكم أنظار الكثيرين ، أن الاختيار يعتبر من الأمور اليسيرة التي يمكن أن يقوم بها أي كان ، وبأي طريقة من الطرق ، ظناً منهم أن المسألة لا تعدو أن تكون نوعا من أنواع الاختصار، او الاختزال كما تقول المصطلحات الحديثة. وذلك بالرغم من أن فكرة المختارات كانت قد طرقت باب التاريخ العربي منذ القدم ، وبالتحديد منذ أن ظهرت مختارات الشاعر الخالد ابي تمام ، المعروفة بالحماسة الكبرى، والتي ينعقد الاجماع على تأثيرها في حفظ الشعر الحقيقي للأجيال .

ذلك يعني أن الموقف من التراث الشعري ظل في كثيرمن الأحيان لايجد الأهمية الكبرى ، حتى الأعمال التي ظهرت في عصر النهضة كثيراً ما جنحت الى المحدودية، او تعاني من التوسع غير الواعي ، او محصورة من جانب واحد من جوانب الشعر .

وهناك أمثلة كثيرة يمكن للمرء أن يتحدث عنها ، فشاعر مثل محمود سامي البارودي ، جاءت مختاراته وهي المؤسسة لهذا الفن ، تخلط بين الموضوع والتناول ، وتبعد عن روح الشعر في كثير من الأحيان بالرغم من أن هذا الشاعر كان في تجربته الشعرية معتمداً على القراءة الشعرية لا اكثر ولا اقل كما يقول الذين عاصروه ودرسوا شاعريته العظيمة . وكاتب مثل العقاد ، وهو من أكثر أدباء القرن العشرين اطلاعا على الشعر القديم ، واوسعهم إلماماً به ، وأقدرهم على تذوق كنوزه ، لم يعط كبير اهتمام لهذه المسألة ، اللهم الا من مختاراته المحدودة المتمثلة في الاستشهاد ببعض الأبيات الرائعة ، التي اعتمد عليها حين رفع عصاه الغليظة في وجه القصة القصيرة ، وهو يوشك أن يدخل مرحلة الشيخوخة من عمره الطويل . وكاتب مثل أدونيس، وهو اوسع الشعراء المحدثين دراية بالتراث الشعري واحتفاء به وتعويلا عليه واستفادة منه ، حصر اهتمامه من المختارات داخل الصورة الشعرية عندما قدم ديوان الشعر العربي في منتصف الستينات .

وهكذا ظل المجال فسيحا امام من يريد أن يتصدى للتراث الشعري بنظرة اوسع ، ومفهوم أشمل ، وظلت الحياة الأدبية العربية تحتاج الى مساهمة جادة في قراءة هذا التراث وتقدم منه ما يساهم في تكوين الشخصية الأدبية . وتجسد للأدباء ما يحقق سعة الاطلاع ، ويواكب روح العصر، ويزيل ما علق بأذهان الكثيرين من سوء الفهم وضحالة التكوين نتيجة الانصراف المفجع عن التراث الشعري .

وتلك هي المهمة الجليلة التي اضطلع بها الأديب المعروف الأستاذ خليفة التليسي ، عندما أصدر في مختاراته الضخمة روائع الشعر العربي وضمنه مقدمته المركزة ، ودراسته الموسعة حول قصيدة البيت الواحد ، تلك الدراسة التي كانت من الأصل مساهمة في اشغال ندوة ابن رشيق حول مشاكل النقد الأدبي سنة ١٩٨١ بتونس .

وقد انطلقت هذه المختارات من الشعر الحديث ، واخذت تبتعد قليلا قليلا حتى وصلت الى العصر الجاهلي ، كأنما اراد أن يقول لمن يريد أن يلج باب الشعر أن الطريق الطبيعي هو البدء من التراث ، وان القدرة على النبوغ في الجديد لا تتأتى الا باكتشاف العظيم في القديم .

ذلك أن التليسي كان في معظم مختاراته محكوما بتلك النظرة التي عرف بها باستمرار ، وهي البحث عن التجربة الشعرية الصادقة .

غير ملتفت الى الجوانب الأخرى من الشاعر . قد تكون التجربة الشعرية قصيدة غزل جميلة . وقد تكون تصويراً للحظة حنان أبوي على طفل من الأطفال . وقد تكون بكاء على لحظة من اللحظات الحياتية خاصة كانت ام عامة . وقد تكون فخراً بمجد من الأمجاد أو تخليداً لمعركة من المعارك .

إنه المفهوم الذي طالما طبقه في الكثير من الدراسات النقدية التي أسهم بها في المحافل الأدبية. ذلك المفهوم الذي كان باستمرار موضع حوار وصراع فكري، انتزع التأييد مرة ، وأثار الخلاف مرات . على أنه كان دوما موضع تقدير واحترام لا حد لهما من كل من طرق باب الفكر ، وعني بمسائل الأبداع .

ولسنا نريد هنا أن نمعن من مناقشة هذا المفهوم النقدي ، او نذهب في تحليل أصوله ومنطلقاته ، فلقد طالما تعرضنا لجهود التليسي مبرزين ما اتفقنا معه ، وما كان موضع خلاف ، منذ أن اصدر كتاب الرائد «رفيق شاعر الوطن» قبل ما يقرب من عشرين سنة .

على أننا بعد كل ذلك ، نحب أن نلاحظ أن الكاتب وان كان قد ألمح الى أنه اقتصر في اختياره على القصائد التي دخلت من تكوين وجدانه الشعري ، الا أنه في الحقيقة قد جسد موقفا نقديا واضح السمات ، شاء ذلك ام لم يشأ.

وهذا الموقف النقدي ، يظهر في الحقيقة إزاء الشعر الحديث أكثر منه في الشعر القديم ، بل إنه يظهر في موقف الكاتب من التجربة الشعرية الحديثة، ومن المدرسة التقليدية الحديثة كما يقول الدكتور محمد مندور .

لقد صرف الأستاذ التليسي النظر عن قصيدة رفيق المهدوي المعروفة «رحيلي عنك عز عليّ جداً » في هذه المختارات ، بالرغم من أنه قد أشاد بها في كتابه عن رفيق ، وذلك لأن رأيه النقدي يقول بأن المختارات لا تصلح أن تكون مقياساً لشاعرية الشاعر ، تماما مثلما صرف النظر عن قصيدة الشارف « رضينا بحتف النفوس رضينا » وهي التي سبق أن اعتبرها ـ وكان محقا في اعتبارها من الأدلة القوية على احتفاء الشارف باسلوبه الشعري ، فهل لم يترنم التليسي بمثل هاتين القصيدتين في أي يوم من أيام عمره المديد، حتى وهو في بداية قراءاته الأولى قبل اربعين سنة ؟! .

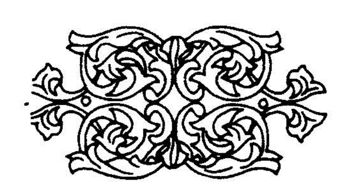
الحق أننا لن نظلمه اذا قلنا انه لا يزال محكوما برأيه النقدي القديم الذي أعلنه في دراسته لشهيرة « هل لدينا شعراء» التي نشرت سنة ٥١ . بالرغم من أنه قد علق عليه في كتابه « رحلة عبر الكلمات » بأنه لا يخلو من نزوة الشباب .

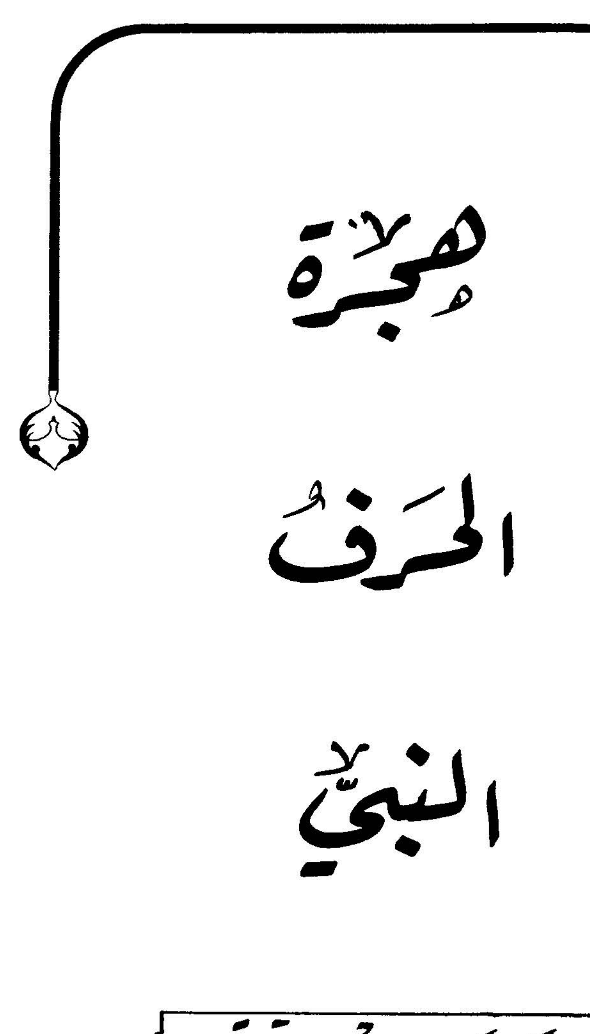
ثم ما هي الإضافات الجديدة التي أخذها هذا الكاتب من شعر نازك الملائكة ونزار قباني ، وعبد الرحيم عمر ، ولم يجدها في شعر آخر كتبه امثال البياتي والفيتوري وغيرهما من الذين أتى عليهم في مقدمته الجريئة عن الشاعر على الرقيعي سنة ١٩٥٧؟

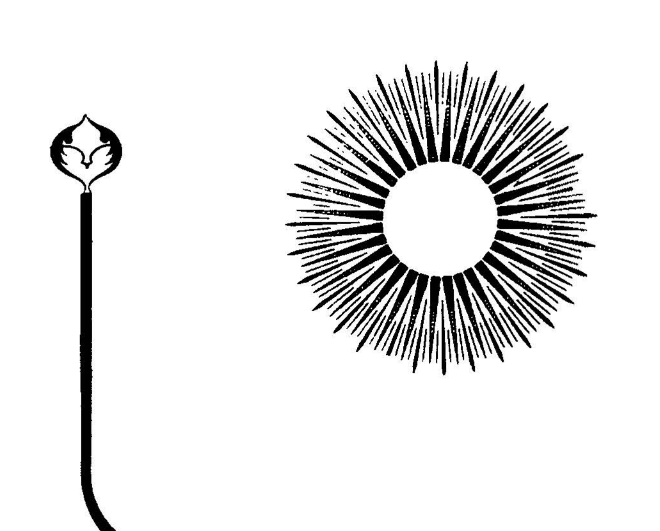
إننا نجد العذر كل العذر، ونقر الكاتب كل الإقرار ، لو كانت مختاراته قد توقفت عند الشعر المهجري ، ولم تقترب من الشعر الحديث، ونقبل تعليله بأنه قد انطلق في اختياره من التجارب التي أسهمت في تكوين وجدانه الشعري ، فالحق أن هذا الوجدان قد استفاد من الشعر المهجري بعد الشعر القديم ، وحسبنا ان نذكر درساته « هل لدينا شعراء » التي المحنا اليها منذ قليل ، وكان المثال المحبب لديه هو شعرفوزي المعلوف وغيره من شعراء المهجر . ذلك أن كل كتابات التليسي بشأن الشعر العربي كان تطويراً لتلك المفاهيم وتوسيعاً لها . اما المفاتيح الأساسية فقد تكونت منذ ذلك الزمان .

على أن كل هذه الملاحظات ، وغيرها من لا يتسع لها المجال ، انما هي تأكيد لأهمية هذا العمل الثقافي الضخم ، الذي يوفر سبل البحث والدراسة أمام كل من يريد الاقتراب من هذه الكنوز الشعرية الرافعة التي ظلت بالرغم من وجودها بعيدة عن الكثيرين حتى امتدت هذه اليد الكريمة التي ظلت على الدوام لا تمدّ لواقعنا الثقافي سوى المعدن النفيس والعسل المصفى .

طرابلس ـ الجماهيرية







كم ترجتك في صمتها الورقه ؟!
وأبيت،
انسفحت على نطعها .
وتقحمت أحزان وحدتها المطرقه . .
والتحمت،
فاذا الحبر فيها نبي ،
وإذا هي سجادة العشق محترقه

● ● ●

كم ترجتك في صمتها الورقه؟!
وأبيت،
كانت الكلمات عرائس تشعل في دمك البربري
كل فتنتها،
وتغنّي ، ،
فيأخذك السّحر في الأغنياتْ
ثم تضفر من شعرها الأشقر .
أدوع الخصلات . .
وتشدّ الجدائل للقلم المشنقه
فإذا أنت جرح يحزّ الهوى عنقه
كلمّا لامس الشمس غني .
وأثنى
علي يد من علقه . . .

* * *

كم ترجتك في صمتها الورقة؟!
وأبيت،
فتحت دمائك ميناءتلهو الرياح بأبوابها المهمله
ورفعت جراحك ، ، ظلت مناديل مشتعله
ما تزال تلوح للسفن الراحله
ما تزال تلوّح للسفن القافله
ورياح الهوى ما تزال تجيئك من قارة مقبله
يا نبي ! . .
وما زلت وحدك نوحا غريقا
تطارد في دمه،
وجه من أغرقه . .
ولكن قد ترجتك في صمتها الورقه ؟!
وأبيت،

كان قلبك . . أتون عصر جديد
أنت والكون فيه معا
حطب اللهب المشتهى ، والحديد
يا نبيّ ! . .
ونصف قلبك كانت ،
وتبقى
صدى المطْرقة ، ،

* * *

كم ترجّتك في صمتها الورقة ؟!
وأبيت ،
فهاجرت في وضح الورقه
أين يشرب منك؟!
وحزنك كان رفيقا ، ،
يضيء بأوجاعه طرقه ،
أين يشرب منك؟!
هي الكلمات الجميلة كانت مغارتك الضيقه
أنت والحزن فيها معا
عنكبوت النبوءة ،
ينسج من دمه شرنقه . .

لا ، لتحيا ، ،
لتدلّ عليك عيونا لقتلك مرتزقه
أين يثرب منك؟!
ويثرب نائية ، ،
وخيول قريش تكرّ وراءك مستبقه ، ،
ولكم قد ترجتك في صمتها الورقه ّ !
يا نبيّ الحروف! . .
تكلم ! ، ،
حنينك لما يزل من حنيني ،
يمدّ ليشرب درباً ،
وينشر في يثربٍ ، ، أفقه ، ، ،
فتكلم ! . .
يا نبيّ الحروف! . .
تكلم! . .
وسيورق حرفك ، ،
يكبر ، ،
يزهر . . في يثرب . . زنبقه . . .

ـ تونس ـ

إلياس كانيتي راحلاً في أصوات مراكش

بقلم
كامل يوسف حسين

« إنها كتابة تمنح موضوعها سيولة تتيح لأجزائه أن تنتقل وتتقاطع وتتوالد وتتآلف، إنها كتابة يلعب الهواء الحرّ بين سطورها تقرأ على إيقاع التنفس الصباحي ».

بهذه الكلمات اختتم ما يمكن أن نصفه بأوفى محاولة للرحيل في النسيج العقلي لإلياس كانيتي بقلم عربي ، مع ذلك فإن الإنبهار والاحساس بالمفاجأة اللذين يضمنانها لم يقتصرا على صاحب هذه الكلمات وحدها ،وإنما كمنا في الحقيقة في صلب الجانب الأعظم من محاولات تلمس أبعادعالم كانيتي .(1).

تضم أعمال كانيتي رواية طويلة ، وثلاث مجموعات من المقالات ، ودراسة هائلة للظاهرة الجماهرية استغرق إعدادها ربع قرن من الزمان ، وعدة مسرحيات ، وسيرة حياة ذاتية . مع ذلك فحينما أعلنت لجنة جائزة نوبل فوز إلياس كانيتي بأعظم جائزة للآداب في العالم تساءل النقاد والكتاب المتخصصون على امتداد العالم في غير قليل من الحيرة : من الرجل ؟ ما هي أعماله ؟

حين صدرت رواية كانيتي الموسومة «أوتو - دارفي» لأول مرة عام ١٩٣٥ مفجرة في إطار من الكوميديا السوداء هجوماً بالغ العنف على الفاشية ، وموجهة نقداً شديد المرارة للقوى التي ساهمت في انهيار النزعة الانسانية الليبرالية ، صدر قرار فوري بحظر تداولها في ألمانيا ، وقدر لها أن تنتشر كاللهب في سبع عشرة دولة ، لكن ناشر الترجمة الانجليزية في لندن ، حيث يقيم مؤلفها ، أسقطها من قائمته في عام ١٩٧٨ خلال المراجعة الدورية المعتادة ، ولم يقدر لأعماله التالية أن تجتذب اهتمام الكثيرين من النقاد أو الكتاب دع جانباً القراء، الأمر الذي ترك الكاتب البلغاري المولد وسط ظلال جابه محاولة الرحيل عبرها عقب فوزه بجائزة نوبل بقوله : « من يرد الإلمام بشيء عني فعليه بقراءة كتبي ».

غير أن مذكرات كانيتي الموسومة «اللسان طليقاً» لا تفض أسرارها بسهولة للقارىء، وإنما تدعوه لرحلة طويلة عبر شعاب وعرة .

ولد كانيتي في عام ١٩٠٥ في بلغاريا ، تم انتقلت اسرته عقب ذلك الى انجلترا . تلقى تعليمه في هذه الأخيرة ، وكذلك في النمسا وسويسرا وألمانيا ، وحصل على درجة الدكتوراه في الكيمياء من جامعة فينا عام ١٩٢٩ ، غير أنهه قرر أن يشق مجرى حياته في عالم الكتابة ، ورغم تملكه لناصية ثماني لغات إلا أنه آثر دائماً الكتابة بالألمانية التي كانت لغة الحديث في أسرته ، وحتى عقب نفيه من فينا في ١٩٣٨ إثر قيام النازي بضم النمسا ، واصل الكتابة بالألمانية ، ورغم حصوله على الجنسية البريطانية وإقامته في لندن منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية فلا يزال يكتب بالألمانية حتى اليوم .

يسود أعمال كانيتي شعور عنيد بالخصوصية الفردية المتدفقة بالأفكار ، وتدل كتبه على نطاق هائل من الاهتمامات ، لكنها تفصح كذلك عن انضباط عقلي صارم قل نظيره في عالم فكري يميل الى طرق أقصر الدروب، والى الانقياد من الاستسهال الى التسيب ، بحجة مواكبة ايقاع الحياة عند المنعطف الرابع للقرن العشرين .

رغم محاولات التعرف العربية التي بذلت عقب فوز كانيتي بجائزة نوبل ، فإن الرجل لا يزال في أذهاننا شبحاً ضبابياً ، ويظل دونما إجابة مقنعة سؤال محدد : ما هو جوهر العالم الخلفي الذي انبثق منه فكر كانيتي وبأي معنى يمكن لنا كعرب أن نلج مداخل هذا العالم ؟

- ٢ -

« إن وعي الأمة لنفسها يتغير عندما ، وفقط عندما ، يتغير رمزها ».

تلك كلمات كانيتي في أهم أعماله « الجمع والسلطان »، الذي استغرق إعداده قرابة ربع القرن ، والصادر في عام ١٩٦٠ والذي يتصدى للظاهرة الجماهيرية ، التي ظلت مبحثاً شديد المراوغة يتحدى محاولات الامساك به من جانب علماء الاجتماع ودارسي النظرية السياسية لا نقول منذ خصص أرسطو مبحثاً لأسباب الثورة في كتابه السياسة ، وإنما منذ حاول لوبون ضبط الظاهرة ومحاصرتها فراوغته حتى وصفها بأنها ظاهرة « نسائية »، إلى محاولات القائلين

(1) مقدمة المترجم لكتاب «أصوات مراكش»، لالياس كانيتي، الفائز بجائزة نوبل للأدب عام ١٩٨٢ .

بالمدرسة السلوكية لمحاصرتها في ضوء معطيات المعمل السياسي .

ا لكتاب يتغذى جنباته الواسعة بأصداء شتى لا يحصي القارىء

الكتاب يتغذى من العالم الذي عاصره ، لكنه أيضاً يستحضر تجارب القرون ، فتضج جنباته الواسعة بأصداء شتى لا يحصي القارىء الجهات التي تهب منها وتأتي ، يكاد الميدان يكاد يكون تاريخ البشر بكامله ، لكن الهم واضح وصريح ومحدد: محاصرة الظاهرة الجماهيرية، تشريح الجمع في اندفاعه، وحشيته، توقفه، سكونه، وانحلاله،

وعودة الى المقتطف الذي بدأ منه هذا الاستطراد ، يلاحظ كانيتي أن الرموز القومية هي على الدوام رموز للجموع ولسلطانها ، أو أنها رموز لخصائص الجموع في توليدها للسلطان .

يضرب كانيتي أكثر من مثال واحد للدلالة على ما يعنيه هنا ، فالبحر بالنسبة للانجليزي ليس حياة فحسب ، وانما هو تجاوز للحياة والموت معاً ، فكل انجليزي يرى نفسه قبطاناً بحرياً ، البحر مصدر قوته وميدان مغامرته، والبحر قبره الذي يضمه في النهاية ، البحر مصدر التحول تفاعلاً مع الدنيا ، وهو أيضاً مصدر الثبات صموداً في وجه الآخرين واتقاء لغيلة المهاجمين .

بالمقابل فإن السدَّ هو الرمز الجمعي لهولندا ، رغم كونها قوة بحرية بالأساس ، قارع أسطولها انجلترا على امتداد بحار العالم . لقد كان على الهولندي عبر البحر أن يكسب الأرض التي يقطنها ، فهي منخفضة الى الحد الذي اضطره للجوء الى السد لحمايتها من غائلة البحر وللخندق، وهو صورة اخرى من السد ، لدفع الغزاة عنها ، وهكذا الخنادق بداية حياة الهولنديين القومية ونهايتها ، وحينما يرفعون راياتها في أوقات الخطر فانهم بالمقام الأول يرفعونها ضد البحار الكامنة في صدورهم .

والرمز في المانيا مختلف تماماً، انه « الغابة الزاحفة » ففي المانيا تمثل الغابة الرحم العتيق الدافىء واهب الحياة ومانح القدرة على استمراريتها ، ومن صرامة الغابة الألمانية وانضباطها يستمد الجيش الألماني مقوماته .

لكن الرمز في فرنسا تتكاثف جزئياته الى حد التعقيد، انه الثورة ، وبالتحديد ١٤ يوليو ، حين انطلق جمع ظل طوال القرون ضحية للتصور الملكي للعدالة ليحقق العدالة بكفيه العاريين ، فيقتحم الباستيل ، منفجراً في المارسييز ، ومسجلاً تلك الحيوية التي لا تفتأ تتجدد مع كل استحضار للرمز القومي .

لو اننا سايرنا هذا الخط من التفكير- رغم ما قد يكون لنا عليه من تحفظات - فما هو الرمز القومي الذي يمكن أن نتصوره للعرب وكيف يتفاعل هذا الرمز مع حياتهم النفسية الجمعية؟

لأول وهلة لا يبدو التصدي لعلامة الاستفهام تلك أمراً يسيراً ، وهذه الصعوبة شديدة الأهمية في الدلالة على الوضعية الراهنة للرمز ، وعلى تمزق النسيج الذي يربط رمز الأمة بوعيها على نحو يندر أن نرى له نظيراً . مع ذلك فان نظرة مدققة كفيلة بأن توضح أن الرمز القومي للعرب هو الصحراء. حقاً إن الكثيرين منا قد يعيشون أعمارهم وأعينهم لا تكاد تلمح الصحراء الا في اطلالة سريعة ، وينطبق هذا القول على أبناء الريف النهري الذين لا يعرفون درباً الى خارج قراهم وقاطني المدن الذين ينفقون أعمارهم في سراديبهم الأسمنتية المعلقة كالقبور . ومع ذلك فالصحراء كامنة في صدورهم جميعاً ، حاضرة ذلك الحضور المتوهج الذي لا يملكه إلا الرمز . وما من دليل على ذلك أقوى من خروج العرب للصحراء وقت الخطر للقتال ، وهي تجربة - على عكس ما يتصور الكثيرون - من حسن طالع أبناء هذه الأمة أن خاضعوها مؤخراً ، ففي الصحراء، وفي أقل من نصف عقد من الزمان ، تهاوت في صدور جيل بكامله من الشباب العربي كل البنى والهياكل والتراكيب التي فرضت على الحياة العربية منذ وضعت الحرب العالمة الثانية أوزارها . ورغم كثافة غبار الانكسار ، فان الأعمى وحده هو الذي يعجز عن ان يتبين في مكب الركام ملامح ما هو آت .

مع ذلك فان ثمة ملاحظة دقيقة لا بد من تسجيلها هنا: حقاً ان الصحراء هي بالنسبة للعربي المنطلق، وهي أيضا الماب ، وهي بين هذا وذاك المعقل الحقيقي ، الذي يلاذ به وقت الخطر تلمساً للقوة، ووقت البلاء نشداناً للحكمة (هل لنا أن نتذكر أنه حتى في القرى النهرية يرحل السكان باطفالهم مع ميلادهم الى الصحراء التماساً لبركات الأولياء المدفونين في الصحراء، هكذا يفتح الطفل العربي عين الدهشة في مطلع حياته على الصحراء في تجردها الصامت كالسيف ، ثم يغمضها عليه أيضاً إذ أن معظم المقابر حتى في مثل هذه القرى وفي المدن موجودة في الصحراء) نقول حقاً ان الصحراء هي المنطلق والمآب ، لكن الخطير أيضاً أن هذا الرمز شرع في الشحوب ، وشحب معه الوعي القومي وسقط العرب في الأرض الخراب بين رمز قديم يجري هجرانه بضراوة ورمز جديد لم يتبلور، وليس ثمة ما يدل على أنه موشك على التبلور قريبا .

ولكن الا تنقلنا هذه الملاحظة الى صلب العمل الوحيد لإلياس كانيتي الذي يدور تحت سماء عربية وهو كتابه في أدب الرحلات الموسوم «أصوات مراكش »؟

« لم يكن هناك الا الهباء، انها الحقيقة ذاتها ، باحة موت ضائعة ، حينما تنظر اليها لا تحس بأدنى اكتراث بهوية الراقدين تحت التراب وموضع ضجعتهم الأخيرة ، لا تتوقف! لا تتأمل الأمر ! ها هم جميعا يرقدون كومة من حجار ، فتود لو تهرع فوقهم ، منطلقاً كالضبع ، انها برية للموتى ما عاد شيء ينمو في فيها ، البرية الأخيرة ، آخر البريات جميعاً ».

تدفق هذا الفيض من الشعور بالهباء، بالعدم ، في الموضع الوحيد من هذا العمل الذي تناول فيها إلياس كانيتي الحديث عن الصحراء، وربما كان في ذلك يعكس مشاعر الكثيرين من العرب أنفسهم الذين شرعت عرى الارتباط بينهم وبين رمزهم القومي في التحلل . اليس من العجيب حقاً ان هذه الاشارة تتناول رؤية للصحراء من خلال. . . مقبرة ؟ لكن كانيتي يملك تلك العين

الأسطورية التي تذكرنا ، في حيوية وتوهج ، بعين تشيخوف القادرة على الإلمام في لمحة بالتفاصيل، كل التفاصيل الدقيقة والانسانية التي وصفها نابوكوف مرة بأنها « تفاصيل إلهية »، فها هو ذا يعود ليخرج برؤ ية كلية من خلال التفاصيل متنسماً عبق الحياة الأشمل في غور المقبرة فيقول : « في طريق العودة لم تبد لي أحجار القبور الركام ذاته ، فقد أصبحت أدري أين يتجمع سناها وحياتها ».

ليس « أصوات مراكش » عملاً قاتماً كما قد يوحي المقتطف الأول ، وانما هو في الحقيقة أقرب الى معمار موسيقي شديد الرهافة والدقة ، يشف حد الشجن ، يصخب حدّ العنف ، يسافر راحلاً في الفرح ، يتماوج مخاصراً المدينة التي يعرف في رحابها ، ثم ينساب مختزلاً نبض مراكش في دقة مذهلة .

يمكن القول بأوسع المعاني بأننا في « أصوات مراكش » بإزاء ثلاث حركات متمايزة ومتناغمة في نسيج شديد التداخل والتركيب ، ومحاولة فصل جزئياته هنا إنما تعتمد التبسيط بهدف استشراف روح العمل .

تضم الحركة الأولى المقاطع الخمسة الأولى من الكتاب ، بدءاً من « وجهاً لوجه مع الإبل »، وانتهاء بـ « الدار الصامتة والأسطح النماوية » تبدأ بضربات قوية حتى لكأنا بين يدي خامسة بيتهوفن ، هي ذي جعجعة الإبل ترتفع في عتمة الغروب مجلجلة بكل ما في المدينة المشرقية من جبروت قدري يخيل للغريب أنه جبروت المدينة ذاتها ، يثور عنفوانه في مواجهة محاولته اكتناه أسرارها ، لكن المدينة التي ودعت العنفوان الحقيقي في مكان ما على الطريق الطويل الممتد من القرون الوسطى لا تلبث أنفاسها أن تتقطع، فلا تملك الاستمرار طويلا في التظاهر بالجبروت ، هكذا تصل أصواتها الى حد الموات في الدور الصامتة .

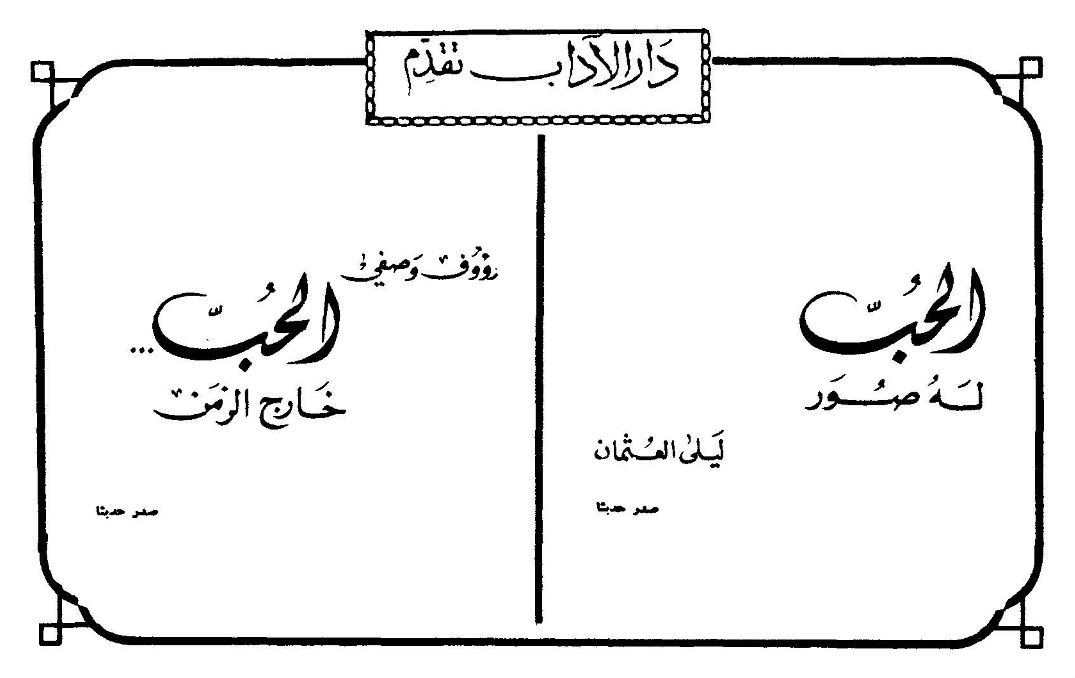
الحركة الثانية التي تشمل المقاطع الثلاثة الوسيطة المشكلة لأطول أجزاء الكتاب بدءا من « المرأة المطلة من النافذة » مروراً بـ « زيارة الى باب الملاح » وانتهاء بـ « عائلة الدهان » تبدأ أيضاً بلقاء مع القدر . ولا اظن القارىء يجد كثيراً في الأدب العالمي شجن هذا اللقاء ورقته وشفافيته، التي يعزف الكاتب الغربي أنغامها ، فينفجر فينا كشرقيين حزن وإحباط وتعاسة آلاف السنين ، المرأة الجميلة المهينمة عند النافذة مقدمة العطاء الانساني الوحيد في مدينة بلا قلب حين تتكشف عن نوازع الجنون إنما تقدم لنا بحدة وكضربة سيف دم عشقنا المهدور . ضياع ثوراتنا التي ركب موجاتها الانتهازيون ، فننا الذي تحول الى تلاعبات بلهاء بالشكل تخفي موات المضمون ، ديننا وقد تحول من ثورة اجتماعية الى « دروشة » راحلة في الغياب ، وبكلمة تقدم لنا اغترابنا وقد فشلت كل أساليب الانعتاق في تحريرنا من إساره .

في الحركة الثالثة التي تبدأ بلقاء مع « الحكواتية والكتبة » لتنتهي أمام أحجية « المحجب » نحن في لقاء مع القدر أيضاً ، هاهم الحكواتية يعيدون بأقاويلهم الطنانة جعجعة الإبل في صدر الكتاب ، لكن محاولاتهم تجميل وجه المدينة المحتضر ببطولات الفرسان الراحلين لا تفلح في إخفاء الحقيقة ، هذه الحقيقة التي سرعان ما يقدمها لنا «المحجب» بصوته الأحادي المقطع، المتردد أبداً ، الذي تحار مع الكاتب في تفسيره : أهو ندب صامت للموات الشرقي الذي كان مدينة يوماً أم هو بشير بانبعاث الآتي ؟ إنه على أي الأحوال «الرفع» المذهل للجبروت الصاك عند أسوار المدينة وللموت المهموس في قرارها .

وحدها المدن التي تملك عبقرية الانبعاث من موات القرون ، لتمتد باتجاه تجاوز الأسوار لا الغرق في رحاب المقابر ، تستطيع أن تجعل « المحجب » رمزاً للغد الآتي واهب الحياة .

فتسمع ما حولك !

تسمع ما حولك!



الطوفان

قصة قصيرة

هاشم غرايبة

(١)

الشمس المائلة غرب شرفة البيت الكبير لا تؤذي العين.. ريح باردة تنحدر من فوق التلة التي تلي البيت الكبير تبشر القرية بليلة ماطرة. اعمدة رقيقة من الدخان تتصاعد من الطوابين فترتفع قليلًا ثم تزحف مع الريح نحو الشرق ولا تلبث ان تتحد في غيمة صغيرة وتنداح مبشرة برطوبة الجو.

رائحة حوارة: خبز ونار.

هذا المساء الشتائي حافل بالاصوات. الرجال يفرشون الحظائر بالتبن ويتفقدون مواشيهم، بعضهم يحفر قنوات لآبار الجمع، النساء يلقين بالقش الى النار بكرم وينادين الأولاد، الاطفال يغنون للغيث.. الاصوات مختلطة بتباشير المطر، فرحة، مندمجة، متناغمة مع صوت الريح، فتشكل خلفيّة رائعة لصوت مزمار دحام الذي وزع القطيع وأسند ظهره للصخرة الكبيرة القائمة بين البيت الكبير وخرابه مراغة، دسّ مبسم مزماره تحت شاربه الكث الذي خطّه بياض خفيف.

عزف المزمار اشواقاً عتيقة في قلب دحام وسكبها دافئة ناعمة في اذن ست الحسن فاختلج الألق في عينيها وتحركت الستارة على نافذة (العلية) في البيت الكبير، هذا البيت الذي لم يتأثر يوماً بتبدل الفصول، لا حين كانت ايامه كلها حصاداً ولا حين استكان لتساقط الاوراق.

اليوم كل شيء في البيت الكبير هامد الّا (قاف) البيك المفخمة، وعيون ست الحسن الجميلة وإن كانت القاف المفخمة قد تراجعت كثيراً امام الألق الجديد الذي تفتح في عيون ست الحسن، الا انها ــ اي القاف ــ ما زالت تقلقل السكون في هذا المكان الهادىء.

دحام كان يربت على مخارج اللحن في مزماره وعيناه معلقتان بالشرفة، ساعة ارتفع صوت خليل في القرية باحثاً عن ثوره. دحام حين يرنو الى ست الحسن يشعر وكأنه يرنو الى عالم آخر، ليس عالم البيت الكبير الذي يجهله، لكنه عالم خال من المجانين. عالم بريء من مرض الخوف الذي حطّ على القرية ولا يعرف له علاجاً، ويثير مرآها مشاعر غامضة غائرة بعيداً في نفسه، هكذا كان يراقبها كالمسحور، حتى انه لم يتنبه لصوت خليل الّا حين وقف امامه صارخاً.

ــ الثور. الثور قيقب يا دحام.

ــ ثورك ما سرح اليوم مع العجّال!

دحام غير راغب في ان ينقطع عن عالمه المسحور، اعاد مبسم المزمار الى فمه.

غضب خليل لأنه تعود من دحام ان ينفذ ما يطلب منه دون استفسار ولا رد.

ــ يا ثور إلْحَق الثور قبل ما يبعد. الثور قطع الوادي.

رد دحام بلهجة عالم:

ــ الجردان نقلت بيوتها من بطن الوادي للشفا. وأخاف السيل يطفح.

سحبه خليل من كمه فنزل دحام عن الصخرة، صاح خليل:

ــ عامل حالك فهيم يا قاروط البين. إلْحَق الثور لا تجنّني.

نتر دحام يده.

— بقول السيل لا بد يطفح، اذا ما صار طافح.
استشاط خليل غضباً ورفع قبضته في وجه دحام.
— قول بتخاف.
امسك دحام بزند خليل، لمعت عيون دحام بغضب مفاجىء، لم يدر خليل كيف يردّه، صاح خليل علّه يرهب دحام.
— جبان.
لوى يده ورفعه بيد واحدة، قذفه الى الارض فتدحرج خليل المسكين مع المنحدر، المسكين لم يدرك انه يحدّث دحام على مرأى من ست الحسن!
دحام طرح الرجل وراح يخب مثل جمل هائج عنى الارض الباردة الرطبة، رآه الناس يركض باتجاه الوادي فعرفوا انه ذاهب للبحث عن ثور خليل.
تصرف مؤذ لم يعهده احد بدحام من قبل، صحيح ان له جسم ثور ورأساً من صخر لكنه لم يستعمل قوته تلك لاثبات حق له، او ازهاق باطل وقع عليه، كان يستكين مثل طفل اذا ضربه احدهم، كائناً من كان قوياً او وجيهاً، ضعيفاً او مستضعفاً. لم يفطن احد الى ان هذه القوة الهائلة التي يمتلكها دحام ممكن ان تستعمل لغير العمل وحمل الاثقال وترويض الثيران او للوقوف في وجه خيول المهاجمين الحوارة. والصمود تحت لسع سياط الدرك ولكمات الآخرين او القفز من امام نار طبنجاتهم وبنادقهم.
أن يستعمل دحاّم قوته ضد احدهم! هذه ظاهرة تستحق الوقوف وتستحق ان يعاد تقييم الرجل على اساسها، وقد يعطي اعتباره ويعترف له بحقوق كالتي لهم اذا اصر على فرض نفسه عليهم.

(٢)

كان ابو دعاس يرعى مهرته المدللة على جانب الوادي ويتنشق الهواء الرطب معللا النفس بليلة ماطرة حين رأى دحام يسوق امامه ثور خليل على الجانب الآخر من الوادي. فجأة توقف دحام وارتمى يلصق اذنه بالارض.
صاح به ابو دعاس:
— اقطع الوادي يا لعين الحرسي، الشمس غابت والليلة شتّاية.
رفع رأسه عن الارض وهدر صوته:
— السيل هادر يا بو دعاس.
امسك ابو دعاس شكيمة المهرة التي انتصبت اذناها وأخذت تدق الارض بحافرها الامامي وصاح:
— استعجل، اقطع انت والثور يا دحام.
— المد وصل والوادي عريض.
— صاير تخاف يا دحام؟
— دحام ما يخاف.
(دحام ما يخاف) همس بها لنفسه وأغمض عينيه فاهتزت ستارة شباك ست الحسن في مخيلته، صاح:
— ما نا جبان.
دفع دحام الثور امامه، ومع اندفاعهما اهتزت الأرض بقوة. وصل المد وكأنه على موعد مع دحام.
صهلت المهرة وصرخ ابو دعاس مذعوراً:
— ارجع يا قاروط ارجع.
لكن الماء غمر ساقي الثور، حاول دحام ان يرد الثور عن التقدم، الثور احس الخطر وحاول ان يرجع لكن دفقة الماء التالية كانت تتهاوى مسرعة وانهدت مثل جبل المهد: غصت جنبات الوادي دفعة واحدة وغمرت دحام والثور.
امتطى ابو دعاس مهرته الجموح وركض الى القرية صائحاً:
— يا هابين الريح وين راحوا..! دحام جرفه السيل.
خليل كان اول القادمين، صاح بمن معه:
— الثور يا الربع، الحقوني.
طار خليل على صهوة فرسه ولحقه اثنان من الخيالة وتبعوا الثور الذي تقاذفه الموج، صاح اول من وصل الى حافة الوادي:
— اصمد يا دحام اصمد.
تشبث دحام بصخرة كبيرة تقوم في مجرى الوادي ارتفع الماء العكر محاولًا زحزحة اقدامه فمال متكئاً على عصاه الغليظة القوية الطويلة، اشتد هدير التيار وارتفع منسوب الماء يفترق من بين ساقيه مراوداً اياه عن وقفته المتصلّبة لكن دحام يزداد تشبثاً، وتزداد عصاه توتراً تحت ثقل جسمه وقوة ضغطه.

المياه المتدفقة تتطاير اسهماً غليظة تضرب جسمهُ الكبير، التيار يضغط على فخذيه ويمزق سروالـه الفضفاض، يمسكه التيار من جذعه ويضغط محاولًا جرفه. فتتقوس العصا كثيراً بين صدره والصخرة، مثل شلال يندفع الماء على ظهره... يخضلُّ رأسه ويندفع شعره الكثيف الطويل مع التيار للأعلى ويعود قوس الشلال نازلًا الى مجراه على بعد من الصخرة التي يرتكز اليها دحام.

ــ الامطار غزيرة جداً على جبل عجلون.

هذا ما قدّره أحد الرجال الذين وصلوا لنجدة دحّام، هذه الظاهرة معروفة جيدا لدى اهالي حوارة، يصل السيل قبل ان تهطل الامطار، واحياناً يفيض الوادي ولا تهطل الامطار. اما هذا المساء فيلمع عند الافق الغربي بريق يضيء وجوه الناس المجتمعين بلون ازرق للحظة وينطفىء مخلفاً وراءه نور النهار الذاوي. يقصف الرعد فيهتف الناس.

ــ سبحان من سبح الرعد والملائكة من خيفته.

ــ اصمد يا دحام اصمد.

يقول صوت متوتر النبرات.

ــ وادينا وإحنا عارفينه اول دفقة تظل قوية.

تضاء السماء بوهج البرق المقترب فتلهج الحناجر:

ــ رحمتك يا رب.

مع الغسق الهابط يبدو دحـام منحنيـاً على عصاه، وعصاه تنحني لتصنع مع جسمـه نصف دائـرة فوق الصخرة. فيتزحلق التيار من فوق رأسه مجرداً اياه من ملابسه ومحاولًا سلخ جلده اذ لم يستطع اقتلاع جسده.

يدا دحام تتيبسان على العصا والعصا تكاد تنقصم على ضخامتها ولا من يستطيع ان يتقدم بحل ناجح او عملية انقاذ جريئة.

من يجروء على الخوض في هذا التيار الجارف؟ ومن يجيد السباحة في حوارة البعيدة عن الاماكن الوفيرة المياه. فقط هناك من يجيد العوم في غدير صغير او من تعلم مبادىء اولية للسباحة في نبع (راحوب).

عملية انقاذ مثل هذه لم يكن ليقدم عليها الا مجنون مثل دحام، والمشكلة ان دحام هو الضحية الآن.

كانت الحبال تدور وتقذف في تيار الوادي فلا تكاد تصل نصف المسافة بين الضفة ودحام. محاولات كثيرة باءت بالفشل، ربطوا الواح الخشب بالحبال وقذفوها، لكن التيار كان الأقوى، وعزمهم قصر عن المسافة.

تجهمت السماء وهوى قرص الشمس وهبط الغسق ثقيلًا بطيئاً وخفتت ضجة المجتمعين على ضفة الوادي وارتفع هدير التيار مختلطاً بقصف الرعد وصوت هطول المطر. ذعر الناس وكأن المطر فاجأهم، رموا حبـالهم وأخشابهم بعشوائية يائسة والتيار يجرف كل شيء.. الحبال ترتد خائبة، وتمر من امام الجمع اغنام اتى بها التيار من المناطق العليا، وأخشاب وأثاث بسيط.

مرة، نشبت خطافـة حبـل بصنـدوق كبير مرصع بالصدف يستعمل لحفظ الملابس، فرح به من ناله: تشجع الآخرون على الاصطياد في التيـار الصاخب، احدهـم اصطاد شاة ما زال بها بقية حياة وآخر انتشل باباً خشبياً صالحاً وارتفع صخبهم من جديد حتى انهم لم يأبهوا للمطر المنهمر بغزارة.

تلهوا باصطياد ما يحمله التيار الجارف من اشياء حتى اسفّوا وتزاحموا يلتقطون كل شيء.

(٣)

ست الحسن؛ تناهى اليها في عزلتها صوت الجلبة التي دبت في القرية، وعرفت ما حدث، فوقفت على شرفتها تستطلع التطورات.

من بعيد من عند الوادي جاءتها اصوات مبتورة لم تستبن منها حقيقة ما يجري.

ــ سرير جديد.

ــ دحام.

ــ العنز طافية.. اتركها..

ــ إلحق الحبل.

ــ اصمد.. امسك.. ابتعد.. اقترب..

ــ شلال.. صخرة..

ــ دحام.. يا ناس.

اعتملت في نفس ست الحسن الرغبة في عمل شيء ما. لم تشعر بمكانة دحام عندها كما تشعر بها الآن. تحس انها تكاد تعمى لو لم ترَ عينيه او تختنق لو انقطع صوت مزماره، ان انغامه المسائية على تلك الصخرة هي الخيط

الذي يربطها بالحياة. ان صورته هي الرديف الحي للبطولة والنقاء اللذين كونتهما لها مطالعاتها وأحلامها.

الحيرة والتردد والخوف القديم من الناس الذي رضعته، الرعب من الحياة الذي ضخمه لها فقدان اخيها وموت امها وتصرفات ابيها.. هذا الماضي كاد يكبل محاولاتها لشق الشرنقة وشعرت بالاختناق، كتلك اللحظات الرهيبة التي عاشتها تحت الماء في طبريا حين هددها صديقها الاول بالموت اذا باحت بسرة. وعاشت اللحظات التي يعيشها دحام تحت الماء فارتجفت.

ظلت لوهلة غير قادرة على التماسك. والآن هي تراه بعين روحها بطلًا يقاوم الماء، تراه الآن كما رآه الاطفال دائماً. بطلًا قوياً ترتسم صورته على خلفية من النقاء والتجرد كونتها في حزمة الشعاع المتسرب الى داخلها من وهج الحياة.

— لن تخرجي.

صاح بها البيك مخترقاً عزلتها وكأنه يقرر ما يجول بخاطرها.

ارتجفت، ازاحت يده من طريقها وهبطت الدرج مجتازة لحظة التردد والخوف. لحقها البيك وتهالك على الدرج، امسك ذراعها...

— ارجعي.. لا تفضحينا.

لفّت شالها حول وجهها وقالت بحزم:

— الفضيحة! إي حدث أهون من التعفن هنا.

— هل تسعين لانقاذ راع لا يأبه له احد؟

— بل اسعى الى انقاذ نفسي.

— لكنه دحام (قال والدها برجاء بعد ان عرف صلابة تصميمها).

— لن ينقذني من عفن بيتك الكبير الا رجل كانت الشمس هوايته.

— ابنتي، حبيبتي، اقبل رأسك، انه الموت هناك...

— الموت هناك افضل من الحياة هنا.

وفتحت الباب الكبير فأصدر صريراً عتيقاً واندفع تيار هواء قوي الى الداخل

— الموت بلا فضائح افضل.

صاح بها والدها وهي خارجة تقطع القنطرة الى القرية، صرخت:

— الموت هو الموت.

حرك الهواء الباب الكبير فأصدر صوتا مزعجا جعل البيك يلتصق بجدار البوابة هلعا:

— لن تتمكني من انقاذه.

كان صوت البيك مخنوقا بالخوف، وتهاوي مكتوماً على عتبة الباب الكبير.

— اني انقذ روحي.

عبارتها الاخيرة ذرتها الريح في طرقات القرية ولم تصل الى اذن ابيها، اشتدت الريح واصطفق الباب الضخم بقوة، طقطقت عظام عيسى البيك بين الخشب الثقيل والعتبة الحجرية ولم يسمع أحد انينه الواهي الذي ما لبث أن همد. وظلت البوابة نهباً لعبث الريح.

(٤)

عاد الصغار يجرون غنائم ذويهم، تبعهم النساء، بقي الرجال وبعض العجائز يتقبعون بالخيش ويتشاورو فيما يفعلون: ايسلمون امر دحام للماء ويعودون؟ ام ينتظرون علّ الماء يخف ويهبط عنف التيار، يتساءلون اذا ما كان دحام ما زال صامداً ام ان التيار جرفهُ؟ اذ ان الظلام حلّ وحال بينهم وبين رؤية ما يفعل طوفان الوادي. لكن صوت الشلال المنحدر عن جسده كان مسموعاً.

رجع خليل الى حيث يتجمع الناس، وكان معه فارسان آخران، كلهم يلهثون وينزفون ماءً فوق خيولهم المتعبة.

قال خليل: الثور يسبح.

قال الثاني: لولا الخيل لما لحقنا به.

صاح الثالث بالناس المبحلقين بهم كالبلهاء:

— دحام يا ناس! شو صار له؟

لم يكن من شيء ينبيء عن دحام سوى صوت شلال الماء المندفع فوق جسده العاري، والغسق بدا داكناً اكثر من المعتاد ومبكراً بهبوطه.

— لا حول ولا قوة الا بالله.

— ضاع دحام!

— وصوت الميّ؟

— المي تضرب بالصخرة الكبيرة!

هموا بالعودة لكنهم رأوا شبحاً قادماً. لم يدركوا في البداية من يكون، افسحوا لها مكاناً على الضفة دون ان

ينبس بكلمة.

همست عجوز:

ــ ... انها تجيد السباحة..

قالت اخرى:

ــ ... طبريا..

قالت ثالثة:

ــ استغفرن الله يا عجايز.

قالت رابعة:

ــ كرامات اولياء الله كثيرة..

حاول احد الرجال ان يرد ست الحسن عن حافة الماء:

ــ لا يجوز، الزلم وين راحت؟

قرأوا في حركتها تصميماً على فعل ما.

قال الرجال كالمعتذرين:

ــ بعد قليل يهبط التيار:

ــ الوادي بعد الدفقة الاولى، اشوي ويهمد.

ــ وادينا وإحنا عارفينه.

سارت ست الحسن بمحاذاة الماء، لحقوها مشدوهين. اشارت بيدها، جمدوا، نظرت الى مكان صوت ارتطام الماء بالماء، رأت ذاك الشكل المعتم يقاوم خلال الغسق الداكن وبدا وكأنها تراه ملفعاً بالظلام، كانت تنظر بعين نفاذة قادرة وكأنها ترى ما وراء قدرة العين المجردة. كانت تراه بوضوح كاف بينما ظلت عيناها متيقظتين، وكأنها تعتقد لو انها رمشت لحظة في هذا الليل الهابط بكثافة وبشاعة لفقدته.

راقبته بدقة وهو يقاوم وركزت عليه بصرها ببطء شديد كانت تراه يغوص اكثر وأكثر في الماء. الماء الى وسطه.. ثم، ثم غاب عن نظرها فلم تكد تستطيع رؤيته.

هتفت:

ــ دحام.

وهرعت الى العمل. مشت ست الحسن على الضفة بعكس التيار تحركت جمهرة الناس وراءها فأوقفتهم دون ان تستدير لهم. مشت فمشوا. وقفت فوقفوا ثم عاودت المسير فلم يتبعها احد، الكل هادىء صامت، وصار واضحاً انها سيدة الموقف، الجميع يبدو عليهم الذهول وأنهم رهن حركتها وأوامرها غير المنطوقة وكأن الناس مسحورون بحضورها.

على بعد كاف ربطت الحبل بشجرة ضخمة. امسكت بالحبل وانزلقت في الماء، جرفها التيار، قاومت، قذفها الماء على جانب الوادي، ارتطمت بالصخور، سال دمها، ترنحت وتشبثت بالحبل، بدقة ركزت وجهها تجاه الصخرة الكبيرة في الوسط وقذفت جسمها في عمق اللجة، كان التيار سريعاً، قاومته، ارغمت التيار ان يجرفها تجاه الصخرة الكبيرة التي يقف عليها دحام، حاولت التشبث بظهر الصخرة، لكن التيار دفعها امام الصخرة فخلصتها نتوءات الصخرة من معظم ثوبها فصارت حركتها أسهل.

الدوامة الصغيرة المتشكلة امام الصخرة الكبيرة من دوران الماء العنيف حول الصخرة ابتلعتها. للحظة فقدت توازنها، مرتعبة مختنقة شدها التيار نحو القاع ثم قذفها، استطاعت ان تطل برأسها فوق الماء، كانت وجها لوجه مع دحام، ظنته ابتسم لها، جذبتها الدوامة الصغيرة للأسفل، تشبثت بالحبل، غاصت وغالبت بجنون، حين قذفها تيار الدوامة للأعلى كانت بعيدة عن دحام، كانت على الجانب الآخر من الصخرة جذبت الحبل وحاولت الاقتراب فاكتشفت ان الحبل ناشب بنتوء صخري. اطمأنت الى متانته، الدوامة انجزت مهمة كان من الصعب ان تخطر على بالها!...

تنشقت ست الحسن الهواء فأحست بلذته مضاعفة لانه كان مختلطا بانفاس دحام. تمنت لو يراها ويقذف بجسمه على الحبل، لكنها شهقت وتمنت الّا يفعل ذلك، لقد ادركت ان عليها المحافظة على الحبل مشدوداً، فلم يسمح لها التيار بفرصة ربطه، أكملت الدائرة حول الصخرة الكبيرة، ما السبيل الى بقاء الحبل متوتراً؟ الناس على الضفة لا يرونها، ولا تستطيع ايصال صوتها لهم، لفّت الطرف السائب على كتفيها العاريتين، واعتمدت على توتر الطرف الآخر القادم من الضفة والملتف حول الصخرة، سبحت مبتعدة عن الصخرة، الطرف السائب مشدود الى جسدها ويزداد طولًا كلما تقدمت نحو الضفة. كانت تفك دائرة من طياته عن كتفيها. لقد كانت تسبح متلولبة على طرف الحبل القوي بطريقة عجيبة، مهمة ليست سهلة على دحام نفسه لو كان يجيد السباحة، كانت دوائر الحبل تنحل عن جسدها كلما تقدمت وتفقدها الأشياء التي

يحملها التيار ما تبقى من ثيابها.

قرب الوصول الى الضفة ارتطمت بجسم صلب، كانت خزانة كبيرة سرقها التيار من مكان ما. غاصت ست الحسن في الماء واهتز الحبل وفلت الطرف السائب عن جسدها وتراخى الطرف الآخر الذي كان متوتراً، غالبت وارتفعت فوق التيار، غالبت وارتفعت فوق الماء، تنشقت الهواء، تلمست الحبل فوجدته متراخياً يحاول الانسياب مع التيار، شعرت بأنها خسرت المعركة وودت لو يجرفها التيار وتضيع الى الابد، لكن خشبة طويلة كانت تمتد من الضفة وصوت يصيح:

ــ تمسكي، وصلت الضفة. هاكِ الخشب.

غطست، امسكت بالحبل السائب، طفت على مسافة اخرى للأمام حيث جرفها الماء. هناك كانت مئات الايدي بانتظارها ممتدة بالحبال والاخشاب، أمسكت، انتشلوها، رمت عليها احدى النساء قطعة خيش مبلول لتستر عريها، أخذ الرجال الطرف السائب وربطوه بالشجرة، فهموا ان عليهم شدّة بقوة، شدوا جميعاً على الحبل حتى توتر الى آخر مدى على سطح الماء بين الصخرة والشجرة.

ــ ما الخطوة التالية؟

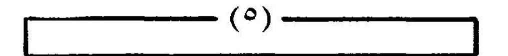
حين سألوا لم يجدوها. كانت قد رمت بنفسها للتيار مرة اخرى سبحت بين طرفي الحبل المتوازيين والتيار يؤرجحها فتزوغ بمهارة عن طريق ما يحمله التيار من اشياء، تنز دماء جروح جسدها المزرق من برودة الماء.

ــ دحام.

صوت ملائكي قادم من عالم آخر، تراخى، تهاوى، ارتعبت، تراجعت، خافت ضخامة جسده، هالها الجرح الذي احدثه تيار الماء في ظهره، لقد كان ينزف.

ــ امسك جيداً.

أمرته وسبحت تجره بين طرفي الحبل المتوازيين، كان التيار يذهب سريعاً بدماء جروحهما فلا يبين لدمائهما اثر في الماء العكر.

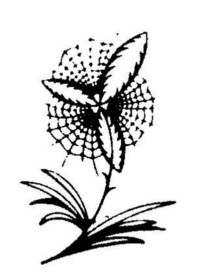

(٥)

شعرا بالامان وأمتلآ بالراحة. خرجا من رعب السيل الجارف، حطّا على الضفة مترنحين منهكين.

كانا ينظران الى بعضهما بعجز. خفّت حدة الارتعاش في جسديهما وبدا كأن الحياة عاودتهما من جديد.

كانت الفوانيس تشكل دائرة واسعة من نقاط الضوء حولهما. تقدم بعض الجريئين ورموا عليهما قطع الخيش التي كانوا يتوقّون بها المطر. والتأمت دائرة الفوانيس من حولهما، شعرا ان نوعاً جديداً من الحياة قد عاودهما: حياة قاتمة ومجهولة ولكنها قوية.

عمان (الاردن)



تداعيات في مرحلة الردّة

قصة قصيرة

علي سعد الرحال

(١)

أَلَمُّ جراحي فتتناثر من بين اصابعي في مساءات طوكيو الباردة. أَلُمُّها مرة أخرى واركض وأتعثر واركض واتعثر. اركض لأنطح برأسي الصخور الجراح، أفتتها وتفتتني. ثم أجمع بقايا رأسي لأبحث عن قلبي. امشي عكس تيار النزيف لأجد كومةً جرحاً ولكن لا زالت تنبض وتنتفض وترفض الذل. كانت بيروت هناك. وكان بيجن وشارون بكرشه هناك. وكان جرح كرامتي كعربي هناك. أَلُمُّ جراحي واضعها داخل القلب الجرح بعناية. والبس قميصاً أبيض. ثم أضع ربطة عنق انيقة حول عنقي وابتسامة على وجهي وأمسك ربطة عنقي بيدي أنا، ثم أمشي في المساءات الخالية من الهواء الطلق وانا ارى بوضوح اين اضع رجلي.

(٢)

مشيت في حُمَّى عينيها بتحدٍ، شفتاي قربتان عتيقتان يابستان تتربع فوقها السيجارة. وقلبي نبع جف ماؤه. مشيت في حمى العينين وهي تتهزع وتتثنى، تتلوى وتتكسر تصعد وتهبط في تعبير جسدي منسجم مع الموسيقى الصاخبة وقفت وابتسمت وقبل أن اجلس تفحصت الكرسي. كان صناعة امريكية، مستديراً، ومغطى بجلد ناعم فاخر، ولكن لا ظهر له. ويرتفع على قائم من فولاذ لامع يشبه الخازوق أما الإضاءة فقد قسمتني الى شخصين.

قال الأول (بهدوء): - ان شفافية الوان هذه الإضاءة ساذجة تمنح الاشياء بعداً واحداً. ترى ما الفرق بينك وبين الكرسي والمصباح. ابصق على المكان، حطم محتوياته وارحل.

قال الثاني (بخبث): - ان حدة الوان هذه الإضاءة مثيرة للاعصاب ولكنها تفضح شيئاً معيناً انت لا تعرفه. على وجه التحديد يجب ان تهدأ وتعمل جاهداً لتحديده بدقة.

جلست ثم خطر لي ان الذي كان يبتسم قبل لحظات ليس أنا. فجلافة الصحراء التي تتكوم عندي في اللاوعي لا تمنح ابتسامة بمثل هذا التهذيب. وبينما انا افكر انتزعني صوت دافىء (اسمي شينوبو) تشرفنا قلت ونظرت مباشرة في العينين الملتهبتين، انتعشت ثم اخذ حديث معلب يوغل في العادية يدور بيننا الى ان انكفأت مرة اخرى على صوت في داخلي:

ونشرب ان وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطينا
ملأنا البرَّ حتى ضاق عنا وظهر البحر نملأه سفينا

التفت بحدة الى مصدر الصوت في داخلي وبصقت ثم قلت تباً لك يا ابن العم هل تمجد بيجن والصهاينة؟ لا اعرف بعد هذا ما حصل (احتجاج شديد اللهجة - شجب - استنكار - رسائل ذليلة - البيت الابيض - الامم المتحدة). كل هذا الضجيج في داخلي وبيجن في بيروت يسرح ويمرح، يحصد طفلاً وردة، ويقتل عجوزاً شجرة، ينهب عرقاً، ويستبيح امرأة والرجال يفتحون الصدور للقذائف.

(٣)

كان منظري مضحكاً وانا احك رأسي كأن به قملاً وعلى وجهي علامات القرف والغضب عندما ايقظني صوت شينوبو مرة اخرى:

- ترى ما رأيك لو نسج في هذا الصخب فالموسيقى

تستوعب جميع انفعالات الانسان، والتعبير بالجسد فن راق يساعدك في التنفيس عن همومك؟ فقلت: [لو فعلت لتطاير جسدي فهيكلي العظمي الضعيف لا يحتمل همومي].

فقالت: - انا لا افهمك. الا يوجد عندكم موسيقى. ترى من أين أتيت؟

(عندها عرفت ان الإجابة ستسحبني الى لعنة النفط ولذلك

قلت: - (بهدوء) عندنا قليب ماء في (مصدة) وأمي تصنع القهوة لوالدي الذي لا يعرف القراءة ويقضي وقته في الشتاء في المشراق وفي الصيف في ظلال الجدران متلفعاً بعباءته يلوك الاحاديث المكررة ولا يهمه المستقبل ولكن شعوان يدور حول القليب (شعوان كلب من نوع السلق) وينبح كنوع من الانذار المبكر اذا رأى أجنبياً. أنا أتيت من هناك. وعندما أتيت قالت لي امي وهي تحلب الغنم (مع السلامة انتبه لصحتك).

فتحت فمها - شفتاها رائعتان - ثم سألتني عن أم شعوان وابوه وجدته وشهادة ميلاده ولون شعره.

فقلت: (بحدة) شينوبو عليك اللعنة، الناس يموتون في بيروت. ثم قلت عفواً انا لا الومك فانت كما يبدو لم تسمعي صوت النـاي في حقول الأرز ورضعـت حضـارة الاصبـاغ الاستهلاكية الأ..... [ثم عدت للحدّة مرة اخرى وقلت: ترى هل تعرفين اين هيروشيما؟]

قالت: - ترى هل تتناول (الحشيش) بكثرة؟

فكرت قليلاً (هكذا اذاً كوني اتناول الحشيش مسألة لا جدال فيها بالنسبة لها والسؤال هو هل أتناوله بكثرة).

راجعت حديثنا بسرعة ثم عرفت ان الوصول الى ذهن هذه اللعينة يستدعي الهدوء. ولذلك قلت: - شينوبو هل نلتقي مرة أخرى؟

ملاحظة: - لم أعد التقي انا وشينوبو الا عندما تمطر السماء يوميا على بيروت ومخيمات الفلسطينيين قذائف انتجت حديدها ووسائل توجيهها الالكترونية شينوبو.

علي سعد السرحال

المهمة

قصة قصيرة — الدكتور خليل فاضل

كانت مديحة تحاول اللحاق بالقطار، زلت قدمها وسقطت في حفرة ترابية رملية، ظلّت تغوص وتغوص حتى دفن جسمها كله عدا الرأس.

صرخت بأعلى صوتها طالبة النجدة..

ولأن القطار كان قد تحرك، مطلقاً صفارته المزعجة محركاً آلته الضخمة، حاملاً بين جنباته مئات البشر من كل الأشكال والالوان والأعمار، فإن فرص مديحة في النجاة كانت ضئيلة، لهذا كفت عن الصراخ.. وبدأت تفكر.. أخذ الرمل الترابي الساخن يضغط على بطنها وفخذيها، ناقلاً إلى أحشائها سخونته الشديدة، حاملاً إلى ضربات قلبها عبئاً لا يتحمل.. تصبب عرقها غزيراً، امتصه التراب الرملي ولم يرتو. ازداد تنفسها، وتحركت الرئتان من صدرها كوابور الطحين.

فجأة، بان في الأفق مجموعة من الرجال، حوالي خمسة، اقتربوا منها حتى بانت ملامحهم.. أحدهم كان يرتدي قميصا مزركشا، في فمه سيجار ضخم، وعلى رأسه قبعة ويرتدي بنطالاً قصيراً وصندلاً في قدميه... والآخرون يرتدون الكاكي وفي أقدامهم أحذية ضخمة، مدّ الأول يده وقال:

– أنا أحمد.. مهندس مدني.. أقوم ببناء فندق حديث في نهاية هذا الطريق الطويل.. سنساعدك على الخروج من الحفرة شريطة أن تساعدينا..

تساءلت مديحة في لهفة: كيف؟!

بلع أحمد دخان سيجاره، نفثه في الهواء..

قال: – أنتِ فنانة قديرة.. لكِ ذوق وإحساس مرهف.. هاك علبة الألوان.. وها هي الفرشاة. وما عليك إلا أن ترسمي هذا الطريق بلوحات رائعة مختلفة الألوان..

نظرت مديحة إلى الفرشاة الدقيقة الحجم، زاغ بصرها، ودّت لو تكلمت، لكنها فضلت الصمت قائلة: – أوافق..

مدّ الرجال المتحلقون بأحمد أيديهم الغليظة إلى مديحة، شدّوها في قوة، سمعت صوت احتكاك جسدها بالرمل الترابي، ارتعشت أحشاؤها.. وتنفست الصعداء..

تحلق الرجال بأحمد، ومضوا إلى سيارتهم الخفيفة.. واختفوا من اتجاه الفندق..

جلست مديحة تدقق النظر في الفرشاة الصغيرة وفي علب الألوان، مدّت بصرها في اتجاه الطريق الضخم الذي أكلته حرارة الشمس.. كانت تحاول جاهدة ان تقدر مساحته، وأن تحدد حجم المجهود والزمن الذي يمكن أن تنجز فيه مثل هذا العمل..

قررت أن تبدأ العمل دون تردد.. شرعت ترسم الورود والزهور، البحيرات والاشجار، النخيل والقمر والنجوم، الجبال والصحراء وكافة الاشكال الهندسية، تشنجت أصابعها على الفرشاة، تصبب عرقها غزيراً، أحست بالإرهاق، وبالعطش.

وما ان مضى اليوم السابع حتى كانت مديحة قد انتهت من مساحة لا تكاد تقدر بالواحد من الألف من مساحة الطريق. تنبهت إلى أنها قد أغفلت رسم البشر والبنايات في لوحاتها..

لكن.. هل هناك وقت؟!

سارت في اتجاه الفندق..

ظلّت تعدو، وتعدو، وتعدو...

سقطت متعبة عند موقع عمل يتقدمه نموذج ضخم مصنوع من المطاط المنفوخ بالهواء، على شكل رجل سمين جداً.

أخرجت من جيبها سكيناً، وظنت تمطع به، شهقت قائلة- هذا بالضبط ما اريد..

كانت أمامها ماكينة كبيرة مجهزة بكل شيء، أماكن لصب الطلاء، فرش أتوماتيكية، عقل الكتروني ضابط، منظفات...الخ ركبت الماكينة، حركتها في مهارة في اتجاه الطريق الضخم تلونه بسرعة فائقة.. حتى انتهت عملها في ظرف ساعات..

وقف الناس في شرف الفندق يتأملون الطريق الضخم الملّون والذي بدا على شكل علم كبير!

سأل أحدهم: علم أي بلد هذا!

عدل آخر من وضع طاقته وقال: أي الوان تلك؟!

ابتسمت سيدة سمينة قائلة: إن له رائحة المسك!

وقف أحمد وسط رجاله ينفث دخان سيجارة وهو في قمة غضبه قائلاً: هذا ليس اتفاقنا؟!

رددت مديحة في جرأة:

- وهل يرضى إنسان بالموت صبراً وانتظاراً؟

عدّل أحمد من قبعته. وتبادل النظرات مع رجاله وقال:

- سنعيدك إلى الحفرة مرة أخرى..

ابتسمت مديحة وقالت:

- الحفرة غير موجودة!!

...لحظتها اندفع الآف الأولاد من على جانب الطريق، أخذوا أماكنهم فوقه كما لو كانت مواقع محددة لهم.. تشابكت أيديهم.. تهدّج صوتهم، وهدلوا بنشيد دوّى بقوة، شقّ صدر السحاب، وتغطّى بدماء القلب.

خليل فاضل

آفاق الأدب العالمي

قصص عن أوهام المنفى

كتبت نيكول زاند في جريدة « لوموند » الفرنسية (١٥ شباط ١٩٨٥) مقالاً عن كتاب ديمتري سافتسكي الذي صدر حديثاً بعنوان «قصص قصيرة عن اوهام المنفى » نورد ترجمتها في ما يلي :

القصة القصيرة فن راقٍ يخلق نكهات أكثر ندرة وقوة ودقة من الاستغراق في كتب غليظة ومغذية . هي خطة كبيرة مبروزة بدقة تنبش حتى اقصى العمق . وقد تكون بالنسبة للكاتب تمريناً في الطهارة .

ذاك هو الشعور الذي يُستخرج من قراءة هذه القصص القصيرة الست للكاتب « دمتري سافتسكي » الصادرة حالياً عن مؤسسة «لاتس» هي ملذَّة حقيقية للحواس والذكاء، واقتناع ملكة تتوكد فيها وراء الحكاية وخط السير الشخصي .

لقد سبق ان تعرفنا على « سافتسكي » تحت اسمه المستعار « الكساندر ديموف »، عندما أصر ان يفهمنا ، بطريقة افضل وبنظرة كانت لم تزل سوفياتية اللون ، حقائق الاتحاد السوفياتي والعالم الصغير للمثقفين واصحاب الامتيازات والمتمحلين. كما أفهمنا الأسلوب المتبع هناك لاكتشاف التراث الثقافي الروسي او موسيقى «الجاز» الأميركية ، اذا بذل المرء بعض الجهد ، وكذلك طبيعة الانسان السوفيتي المزدوجة التي ترغمه ، منذ دخوله دار الحضانة ، على ان يكون « انساناً مزدوجاً » يمارس اللعبة المزدوجة لكي يستمر في النظام. وقد ارسل لنا سافتسكي ، غير المتأقلم لا للحياة السوفيتية ولا للحياة الغربية مُدُ قبلاتٍ في روايته الأولى «قبلات طيبة من لا مكان » هي نوع من الوداع لروسيا ، مطبعة بالوطان واليأس . . . وسيلة جذرية (أو على الأقل هذا ما يتمناه) لإستئصال الأرض، مسقط رأسه ، دونما امل في العودة .

هذا الرجل البالغ من العمر الأربعين ، مهاجر روسي (طلب حق الإلتجاء السياسي سنة ١٩٧٨) وشاعر وصحافي وروائي لا يدخل ضمن صنف معتاد : فهو ليس منشقاً ولا غير منشق . فهم باكراً جداً انه سينتهي بمأزق إن بقي في روسيا ، ولكنه ادرك ايضاً أنه يستطيع ان يبقى كاتباً روسياً في أي مكان آخر في العالم. وستكون باريس بالنسبة له ، في نهاية المطاف ، مكاناً حيادياً يمكنه العيش فيها وممارسة هوايتيْه : الكتابة ولعب التنيس .

إن مجموعة القصص القصيرة هذه تكشف جيداً وضع الكاتب كلاجيء محصور بين عالمين ، أي في لا مكان . . . قصة « رقصة فالس لكاف »، وهي عنوان الكتاب ، تجري في موسكو وتجرفنا دفعة واحدة الى عالم نصف واقعي ونصف خيالي .

يتمتع صاحب الراوي المفضل ، الذي يسكن غرفة مليئة بالكتب في منزل مشترك ، بموهبة السرقة . وسيتعلم منه بطلنا كيف ينام في الهواء الطلق ، كأنه احدى شخصيات «شاكال » ، وكيف يحلق فوق موسكو ، كما حلق « المعلم وماركاريت »، بحثاً عن التأثر بكل شارع صغير ، وكيف يجامع في السماء الصافية ، بل كيف يرحل ويطير الى الأبد . باستطاعة السلطات ان تعاقب بشدة انتشار هذا الشذوذ الخطير ، هذا العطش الغريب لمكان آخر «يبعدكم عن الطبقات الشعبية » . . . لكن المنفى هو ، بالنسبة للجميع ، عودة قاسية الى الحقيقة (لقد حذر « مهندس سابق سوفيتي الأصل أصبح ، بملء ارادته متشرداً في باريس ، من أنه يقال إن الرجال الطائرين يفقدون الى الأبد طاقتهم على الطيران عندما يصلون الى الغرب »).

كيف يمكن العيش والاستمرار خارج شرنقة الوطن الواقية ؟ تروي قصة «شاطيء الستيكس الغربي » حكاية احتيال مضحكة قامح بها ، بواسطة بطاقة اعتماد ، صديق طفولة في جادة « روديستفينسكي» . وقد اصبح هذا الصديق مستخنثاً . «عرفت « ناثان اندرو » عندما كان لا يزال امرأة ، قال الراوي . كان ذلك في روسيا في الدتشاكنا نصنع بعض المربى ». كان « ناثان اندرو » يسمى حينئذٍ « ناتاشا اندريفانا » .

كانت شبيهة بأوزة بيضاء في الثامنة عشرة من العمر . أما الآن ، « ومع احتمال التغير ، فقد اختارت ان تتغير حتى النهاية » لم يتوصل الجميع الى هذا الحل الجذري وأكمل البعض تجارات صغيرة غير مشروعة مثل تحويل طوابع تمثل «لينين» أو أوراق نقد في العهد القيصري الى عملة حقيقية او قطعاً من كوبكس الى «فيش» للهاتف النيويوركي . «كيف لأشخاص ألاّ يتوقفوا عن التفكير في المجيء الى هنا!»، يقول الراوي بضحكة هازئة وهو يتخبط في هذا « العالم الآخر » الذي هو العالم الغربي وينظر اليه دون حقد ولا

حسد . مستعداً لأن يسد أذنيه بواسطة «أقراص لوديوك فان» المتناغمة . هو مسكون ابداً بالموت الذي يأخذ النساء اللواتي يقترب الراوي منهن واحدة تلو الأخرى . انه مأخوذ برؤية جثة فظيعة ، جيفة كلب لمحه على شاطيء افريقي .

يملك دمتري سافتسكي شراسة طريفة وشهية في وصف عالمه : نيويورك وافريقيا وموسكو ومالطا وباريس . ليس عالمه بجنة ولا جحيم ، بل هو مزيج معقد لا يدري سافتسكي كيف يحفر لنفسه حفرة فيه . يقول : « كان من الواضح اننا ارخينا القلوس واننا تركنا الشاطيء الآخر . لكني رفضت ان اصدق اننا لم نرسُ في اي مكان » . تابعوا دمتري سافتسكي . لن تندموا .

بنات الدكتور زن الخمس

كتب غابرييل رولن في جريدة «لوموند» (١٥ شباط ١٩٨٥) مقالاً عن كتاب «اسطورة بلود سمور» للكاتبة الأميركية جويس كارول اوتس نورد ترجمته هنا .

لم تكن نساء العصور الماضية تتنفس البتة . كانت « تجسد الشخصية التي نسبها الله لها » ، اذا صح التكلم عن شخصية ، والأصح التكلم عن دمية تُحَرَّكُ بالخيطان ، أو عن امعة . هل لهنَّ جسدٌ فحسبُ تحت طبقات تنانيرهنَّ وتنانيرهن الداخلية او تحت مخصرهنَّ المشدود؟ الويل للواتي يطرحن على انفسهن هذا السؤال الذي يتسبب في ايقاظ «الحيوان» ونسيان فرضهنَّ ومهمتهنَّ الوحيدة المقتصرة على بقاء الجنس البشري . بالرغم من هذا ، كانت الصبيات الخمس يتساءلن . فقران الأخت الكبرى جعلهن كئيبات . شعرن بلغز لم تكن كتب التربية - « مرشد السلوك للشبان المسيحيين » أو«رزنامة الزوجة الصبية ص» - لتبوح بجواب له .« آه! كم اريد أن . . . كم أريد أن . . . لا ادري ماذا . . » ويتنهَّدْن !

سوف تأخذ الحياة على عاتقها ان تعلمهن . كلٌ منهن ، امام عين الراوية الناقمة اوالمذهولة، ستنجز قدرها ، ستهرب الكبرى من السرير الزوجي قبل «الكشف»، وستشنقُ الوسطى ، التي لا عيب فيها، زوجها الداعر ، مصادفةً. اما الثالثة فستعرض نفسها لنيران المذلة وتغرق في الفسق وستتجنب الرابعة ، المثقفة ، العزوبية وتعقد زواجاً لا يلائم ظرفها الاجتماعي . وأما خامستهنَّ ، التي تقع فريسة الأرواح التي تستدعيها ، فتكاد أن تلامس الجنون .

وهل الرجال أكثر اتزاناً ؟ بالطبع لا . فانظروا الى أحسنهم ، «جون كونسي زن » ، والد اولئك النسوة . فهو ، كجميع الأميركيين ، «المؤتمنين على التقدم » ، واعٍ لمهمته في احياء العالم . قد كرس نفسه للاختراعات الانسانية . ينجرف احياناً بعواطفه فيعيده «الكونجرس» الى النظام : انه من غير المستحب ان يخفف حكم الأعدام . وقد شرح له أحد أعضاء مجلس الشيوخ قائلاً : « يجب ان يكون الموت لامعاً وظاهراً وحاذقاً . . . ان يكون مؤلماً » . . وهكذا خلق الدكتور زن الكرسي الكهربائي . ولكن المؤسف أن اختراعه الأخير والأعظم، أي صيغة «الآلة ذات الحركة الدائمة المخصصة لإحداث انفجار لا يمكن لشيءٍ ان يوقفه » ، تلاشى في احدى الحرائق .

ان سخرية جويس كارول اوتس الكونية تطلق لنفسها العنان . تأتينا حشمة تلك السخرية المتصنعة بتفاصيل مشاهد فجة (آه ، الملذات الزوجية الشنيعة) . وتطلعنا الراوية على ما لاتستطيع تسميته ، « بواسطة تلك الكلمات البدائية التي تشير الى بعض اجزاء الجسد ، كلمات غريبة الى حد انني لا استطيع ان احزر كيف كُتبت » . تصف لنا الراوية ، الأكثر سادية من بطلات باتريسيا ونتورث واغاتا كريستي ،جرائم وتعذيبات لكنها تنحني امام الخالق المذنب لتكشف لنا جحيم البراءة الأميركية.

الرواية في اميركا اللاتينية

كتب «اغناسيو رامونيه » في جريدة «لوموند ديبلوماتيك»(١ شباط ١٩٨٥) مقالة عن الرواية في اميركا اللاتينية بمناسبة صدور رواية » ذاكرة النار ، للكاتب ادورد جاليانو . وهذه ترجمة المقالة :

هناك طريقتان او مدرستان في التحدث عن « العالم الجديد المولود من اغتصاب » حسب رأي الكاتب الأوراجوي ادوردو جاليانو . الأولى تمحص، نوعاً ما ، استغلال هذا العالم وتشرح لنا كيف استنزفت هذه الأرض من ثرواتها عبر الأجيال ، وهذا ما سبق ان ذكر به الكاتب في دراسة قوية ووجدانية وانفعالية بعنوان : « شرايين اميركا اللاتينية المفتوحة » (باريس ١٩٨١) .

لكن باستطاعتنا ايضاً ان نطير من ذكرى الى اخرى في ذاكرة بناةِ العالم الجديد المضطربة . هذا ما اقترحه الكاتب في كتاب «ذاكرة النار» الذي يكون الجزء الأول من ثلاثية عن تاريخ الرجل الأميركي .

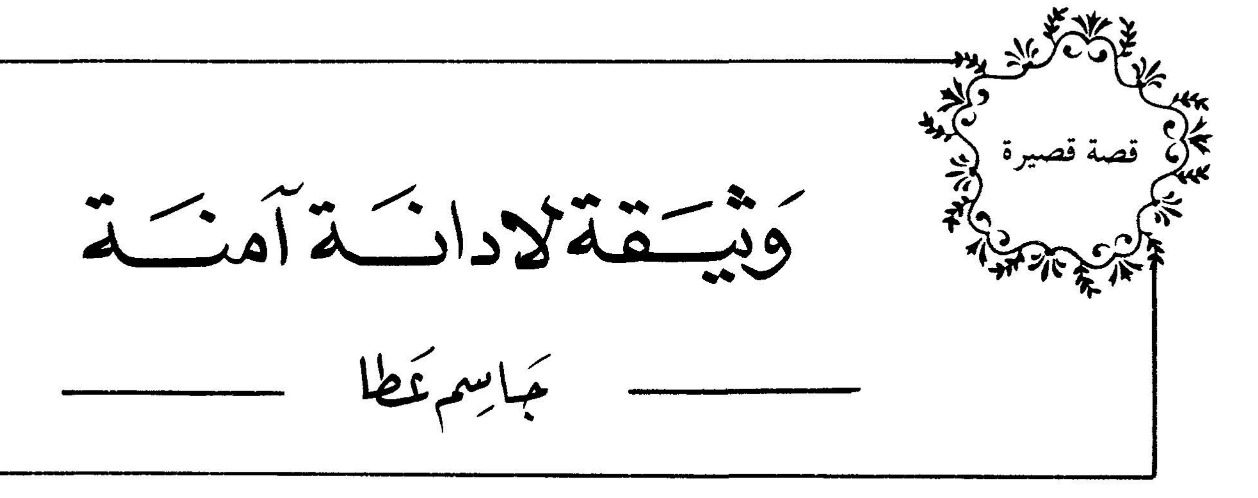
هل كتاب ادوردو جاليانو رواية ام دراسة تاريخية ام شعر منثور ؟ الواقع أن كتابه لا يندرج تحت أي من هذه التصنيفات بالرغم من اشتراكه في ثلاثتها . هو نوع من الزجاجية المتعددة الأصوات والفسيفسائية . بالاختصار انه تتابع مقاطع يستدعي فيه الكاتب ، بواسطة لغة جد خيالية ، الأحداث والأفكار والرجال الذين اختلقوا اميركا .

ان اسلوب هذه الرواية الغريبة مرتبط بالطبع ، بالتقليد الملحمي والملحمة . غير ان ادوردو جاليانو يلجأ ، أيضاً ، الى مدرسة اميركية لاتينية صحيحة، الى الأدب « الواقعي - الخارق » الذي نظر له الكاتب الكوبي الأصل «آليهو كاربنتيه» . هذا النسب

شرعي ، ذلك لأن الأدب الأميركي اللاتيني ولد ، بالتحديد ، أثناء « الاكتشاف » عندما حصلت معادلة شاذة بين « الخارق » الذي توقعه الاسبانيون و« الواقع » الذي اكتشفوه . ان عالم « الأنتبي » مثلاً - هذه الكلمة التي تم استعارتها من الروايات الفروسية التي قرأها الغزاة ، شأنها شأن كلمتي «كاليفورنيا» و« الدورادو » - يظهر لهم وكأنه يطابق وصف جنة عدن مطابقة تامة . وماذا يقال عن هؤلاء الرجال الصغار الذين ولدوا في هضبات «الكاستيل »أو «الاسترامادورا » القاحلة عندما اجتازوا المناظر الأكثر جسامة في العالم : الآند والأمازون والباسيفيك ؟ . . .

« كطيران سنقر »، انهاروا على هذه الأراضي الأسطورية وغالباً ما سحقوا الرجال والحضارات « في سبيل مجد الله الأكبر ». ان ادوردو چاليانو يجد سحر اللغة لكي يصف الكونيات المتناغمة للعالم ما قبل الكولومبي وطعم العنف الذي تذوقه المحتلون والباحثون عن المجد والطامعون في الذهب ، وهؤلاء يأتون من كل مكان ، ومن اسبانيا والبرتغال بالطبع . لكن الكاتب يذكرنا بان «تهديم الهند» سببه القراصنة الانكليز ومستوطنو اميركا الشمالية وجزاروها وتجار العبيد الهولنديون او الفرنسيون . . . لقد غرست اوروبا بأكملها السيف في جسد أميركا الهادىء لإفراغها من ثرواتها وروحها .

يحول ادوردو چاليانو الشخصيات التاريخية الى شخصيات روائية . ويفهمنا بطريقة افضل ، بواسطة الانفعالات والأحاسيس، مولد عالم متميز . ما يقوله الكاتب عن الغازي الثائر - هذا الشخص الأصيل والمذهل « لوب دي آجير » الأعور الأعرج ، يكاد ان يكون قزماً ذا جلد حرقته الشمس، هذا الشخص الذي ألهم المخرج السينمائي الألماني ورنر هيركوز (آجير، غضب الله ١٩٧٤) والروائي الڤنزويلي هيجال اوتيرو سيلفا (لوب دي آجير، امير الحرية . باريس ١٩٨٠) - يلخص بذاته عقدة المشاعر المتناقضة . ففي هذه العقدة تختلط الاثارة والغزو والندم على التهديمات بالثورة ضد التاج والطموح الاستعماري . ويعلن الكاتب ولادة انسان جديد سيحمل ، في بداية القرن العشرين ، راية الاستقلال الأميركي اللاتيني الذي سيخبرنا عنه ادوردو چاليانو في المجلد القادم .



وثيقة لادانة آمنة

جاسم عطا

ـ ماذا تطلب؟

ـ شكرا . . . لست جائعا .

جبان . . . لماذا لا تصرح بالحقيقة ؟ قل عدلت عن رأيي . . . ولا أريد الاستمرار بهذه الرحلة ، فهل تسعدك العودة الى آمنة وأنت محمول على جناحي الألم والشوق ؟ لا أظن أنك نسيت القلق . . . الشك . . . الرعب ، انهم أصدقاؤك وأحباؤك الدائمون في آمنة . . . أم «جينا» استطاعت أن تنسيك كل هؤلاء؟ ولعل حبها أيضاً قتل ذاكرتك ! الحب !! اننا لا نعرفه مطلقا ، ليس لدينا الوقت للاحساس به . . . فكل منا يخرج لهذه الدنيا للبحث عن حجر يؤويه . . . ويفلت العمر من بين أيدينا وكل منا يجري خلف وثائق السفر . . . الحب ليس له أي دور في حياتنا مطلقا ، سوى أنه كلمة رومانسية . . . بل كلمة غطائية ممتازة . . . لذلك نتخذها مصطلحا مركبا لحب آمنة ، فنجند جزاري البشر . ما هذا الكلام ؟ أصبحت فيلسوفا ناطقا يا راضي السهل . . . سبحان مغير الأحوال . . . أنت خائف يا راضي ولا تريد العودة أليس كذلك ؟؟ بل أريد . كذاب . . أخرج الكبسولات من جيبك . . . أخرجها يا وقح، بماذا أجبت « جينا » لما رمقتك بأسى وهي تسألك ؟ :

ـ كيف ستواجههم؟ كيف؟

ـ لقد ابتسمت بمرارة ، وبصوت مخدوش من الألم أجبتها :

ـ اذا وجدت مستقبلين لي فسأبلع هذه الكبسولات ، انها تقتل الفيل خلال دقائق .

أتتوقع أن يكون استقبالك كاستقبال بطل ألمبي أو مغني كبريهات ؟؟ كن واقعيا يا راضي ـ نعم سيكون بانتظارك مستقبلون كما كان لك مودعون . . . دائما النهاية تكمل البداية ، وإلا كان شذوذاً أو تمثيلا ، ففي البداية وضعوا أمامك الخارطة وخيّروك بين بقاع العالم ، وأينما وضعت أصبعك ضربك محدثك بالعصا التي بيده وهو يقول :

ـ هنا علاقتنا سيئة . . . أما هنا فوكر لأعدائنا .

وأخيراً اختاروا لك الدانمراك . . . فهي غنية بالألبان والأسماك ، على فكرة السمك مفيد للصحة كثيرا ، ثم ماذا ؟ ثم صحبك مودّعون رسميون لباب الطائرة . . والآن هم بانتظارك يا عزيز وكلهم شوق لرؤياك . وسرّ هذا الشوق هو لسانك الطويل . . . إنه بحاجة للتهذيب ، فهو وأفكارك علّتك الوحيدة ، وبسببها خسرت أشياء وأشياء لا حصر لها ، خسرت وظيفتك وكل قرار لتعيينك . . . وأيضا زوجتك لما جاءك عمك غاضباً وهو يقول باصرار :

ـ لك أن تختار إما ابنتي أو أفكارك الخطرة ؟؟

وأنت « اسم الله عليك » صاحب مبادىء ، بل خيّل لك مرات أنك المسؤول عن كل شيء، ونسيت أنك مجرد رقم تافه وصغير في حضن آمنة الهمجية ، لقد نصحتك أكثر من مرة قلت لك ان آمنة بالنسبة لها القتل وسيلة وغاية، وأنا لا أعاتبك الآن ولكنني أود معرفة ماذا تعني لك آمنة ؟ مبدأ . . . عقيدة . . . أم وطن؟ فالمبادىء والعقائد يا صاحبي انعدمت أمام الخوف، والوطن ما عاد الا مصيبة ابتلي بها أمثالك أصحاب العقول الضعيفة ، فأبشع جريمة تعاقب عليها هي أن تكون آمنياً مخلصا ، واذا كنت تفكر بدخول التاريخ، فيؤسفني بأن أعلن لك بأن أبوابه أغلقت ، لأنه لم يعد به مكان شاغر، مسكين أنت يا راضي . . . لقد بال عليك الشيطان ! فأينما تذهب فأنت ملعون ، فبرغم من خطوات السنين الثقيلة فما زلت بترحالك كالغجري ، تبحث بذهول عن أمان انسانية حرمت ومنعت لأسباب لا يعلمها الا الله . . . تسير وخطواتك يسابقها الأسى، تعب الدرب منك وضاق العمر بك وأنت تقدس آمنة، بينما هي تفترس أبناءها وتلفظ كل المخلصين لها، فالى متى يا راضي روحك القلقة تتوجع ، وجسدك المتآكل يتسكع في المعمورة خلف الشعارات الجوفاء؟ تكلم ! والله خدعك هؤلاء الفلاسفة صناع المبادىء، صدقني كلهم كذابون من سقراط الى آخر فيلسوف معاصر . . . كلهم تجار لغو لم يصدق بهم أحد سوى « أنشتاين » بنظريته « النسبية »، فكل شيء في الوجود نسبي ، مثلا الصرصار عالمه وكيانه مختلف عن النحلة ، أي الأمر

نسبي ، فكيف تريد نقل ما تراه خارج آمنة الى داخلها ؟ ثم إن أهاليها تعودوا الوضع بل صار بالنسبة لهم شيئاً طبيعياً ، لذلك كل ما تفعله وستفعله سيكون كالمثل الشعبي والذي يقول : ـ « . . . في سوق الصفارين ضايعة » .

ان عشقك لآمنة تحول الى مؤامرة لاغتيالك . . . فأنت لست بحاجة للحب بل للحقد، فتعلم كيف تحقد ، فما الذي حفظ اليهود طوال تلك العصور من الانقراض بالرغم من كل المحاولات لإبادتهم ؟ إنه حقدهم ! انهم يكرهون كل شيء ، فالحقد يولد الغضب والعناد ، فاجعل حقدك كحقد البعير . راضي اعلم أنك لا تستوعب كلامي بل تراه جنونيا . . . ولكنني أنصحك أولا بالكفر بكل ما تؤمن به ، نعم ، نعم . يجب أولا التخلص من الانشقاق والانهيار اللذين بداخلك ، وبعد ذلك فكر بكلامي .

ـ أتشكو من شيء؟

ـ هه . . . لا أبدا .

ـ إن العرق يتصبب من جبينك بغزارة !

ـ لا . . لا شيء هذا الأمر اعتدت عليه .

أخبرها بالحقيقة ! قل لها إنني أعاني من هبوط في القلب وسقوط بالروح ، وهذا العرق هو عرق جبني وخوفي . . . لا تخف منها! فهذه المضيفة معجبة ومهتمة بك ، فأنت ما زلت وسيما بالرغم من الثلاثين سنة . . . بل وزير نساء، فالنساء يعشقن الرجل الفاشل لسهولة السيطرة عليه ، وامارات الفشل واضحة كسمرة بشرتك الصحراوية وسواد شعرك وعينيك ، إنك تثير شفقتي وعطفي يا راضي، واسمح لي بتعزيتك مبكرا لموتك القريب . ولم العجلة؟ لعلك ستعيش أسبوعا آخر ! لكنه سيكون مرعبا . . . مؤلما، وأخشى ألا تتكرر فرصة لتعزيتك ، فأنا واثق انهم اشتروا آلات وأجهزة ، بل واخترعوا وسائل وطرقا حديثة لم يحصل لك الشرف بتجريبها . باختصار ليس أمامك أي منفذ للنجاة . . . فلماذا لا تتخلص من كل هذا وتنتحر ؟ هراء، لست جبانا لهذه الدرجة أوهموك بخدع لفظية، ولا أعرف كيف تقنع نفسك بالأمر هذا ؟ فاذا متّ لأجلهم فأنت شهيد وإلا فأنت جبان . . . هل لك باقناعي ؟ كفى . . . كفى هذيانا . كفى أنت لا أنا واتكل على الله وتناول كبسولاتك . . . وأكتب وثيقة لادانة آمنة ، قم. لا قم الآن . لا . . لا لن أفعل . آه تذكرت لما سألتك « جينا» قائلة بعجب :

ـ لماذا تسلمهم نفسك بهذه السهولة ؟؟

ـ لأنهم يهددون سلامة والديّ العجوزين .

حسنا . . . انتحر واكتب بالوثيقة انك انتحرت احتجاجا على برامج التلفزيون . . . أو احتجاجا على تلوث البيئة، والناس سيخمنون السبب الحقيقي . اخرس. هذا أنت منذ طفولتك تعارض وترفض . . . أتتذكر اذ كنت في المرحلة المتوسطة، حين وقفت أمام مدرس العلوم لتقول بكل ثقة :

ـ لو كان للكرة الأرضية جاذبية على مر الأزمان الطويلة لتقلص حجمها .

« كوبرنيكوس » جديد لكنه معتوه ، لذلك كان جزاؤك عدة صفعات وركلة من مدرسك ، فمنذ نعومة أظفارك وأنت معارض، متمرّد، حتى صارت عندك مناعة ضد العقاب . . . واستمررت في معارضتك كل شيء . لست المعارض الوحيد الوحيد ، فأمثالي كثيرون طبعا أيوجد مجنون واحد في هذا العالم ؟ ولماذا لا تقول بأن كل المجانين في آمنة فقط؟ لعنة الله عليك حتى أنا ضميرك تعارضني وتجادلني . . . آه لوصوتي يسمعه الآخرون لصحت بأعلاه قائلاً :

« أيها السادة هذا راضي السهل المهندس المعماري والذي فشل فشلا ذريعا في بناء نفسه ، لأنه خدع نفسه بكومة مبادىء وقيم . . . وساند الآخرين في الوصول ، وأخيراً أهدوه وسامين من معدن النحاس الخالص . . . ولم يحمد ربه على الوسامين بل اعترض واحتج بصوت مرتفع لأن جاره ما زال جائعا » .

مهزلة . . . مهزلة ! تصوَّر نفسك يا راضي وأنت بملابسك الداخلية والوسامان حول عنقك . . . انهما ثقيلان . . . وحتما سيتعبانك كثيرا ، ولا تنس ما قاله لك الطبيب بعد اجراء الكثير من الفحوصات ، لا . . . لن تنسى كلماته ، انها كجرس الانذار الأخير . . . لقد قال لك :

ـ شرايين قلبك ليست سليمة . . . لهذا تعاني من عدم انتظام في ضربات قلبك .

ثم قدم لائحة طويلة من الممنوعات ، أهمها ، لا تجهد نفسك عضليا أو فكريا . . . تجنب الانفعال والمفاجآت راضي . . . راضي الرجل الذي يجلس في الجهة اليمنى. . . انظر اليه جيدا ، انه يشبهك كثيرا لعله أحد أقربائك . . . أرأيته ؟ أرى رؤيا غامضة. . . ألمح بها موتي الصامت يتهادى على أمواج تشردي، وشلالات الغربة تصب في تابوتي ، وأمنياتي كالذباب تتساقط على سطح مستنقع يأسي . لا تكن متشائما هكذا، فالموضوع لا يتطلب سوى القليل من التنازلات ، نعم . غير أفكارك وعش لنفسك ، فقمة السعادة والانسانية في عصرنا بأن تكون خارج الأسوار بأي طريقة وثمن ، فهم لا يستثنون أحداً من ضيافتهم ، فالمثقف والجاهل ، الكبير والصغير ، الغني والفقير ، كلهم سواء أمام شكهم ، والدليل كنت دائما تردده لعشيقتك « جينا » إنها حكاية الاسكافي الذي شاركك الضيافة في منزههم الشعبي . . . ألم يسألوه وهم يجلدونه :

ـ ايها الشيوعي اعترف .

فاعترض وهو يتوسل قائلا:

ـ أنا سني والله العظيم .

وهو بالفعل لم يكن يعرف قيمة الواو التي حذفها . . . كلنا عاجزون أمام الوضع. وليس باستطاعتنا فعل أي شيء ، أم تتصور

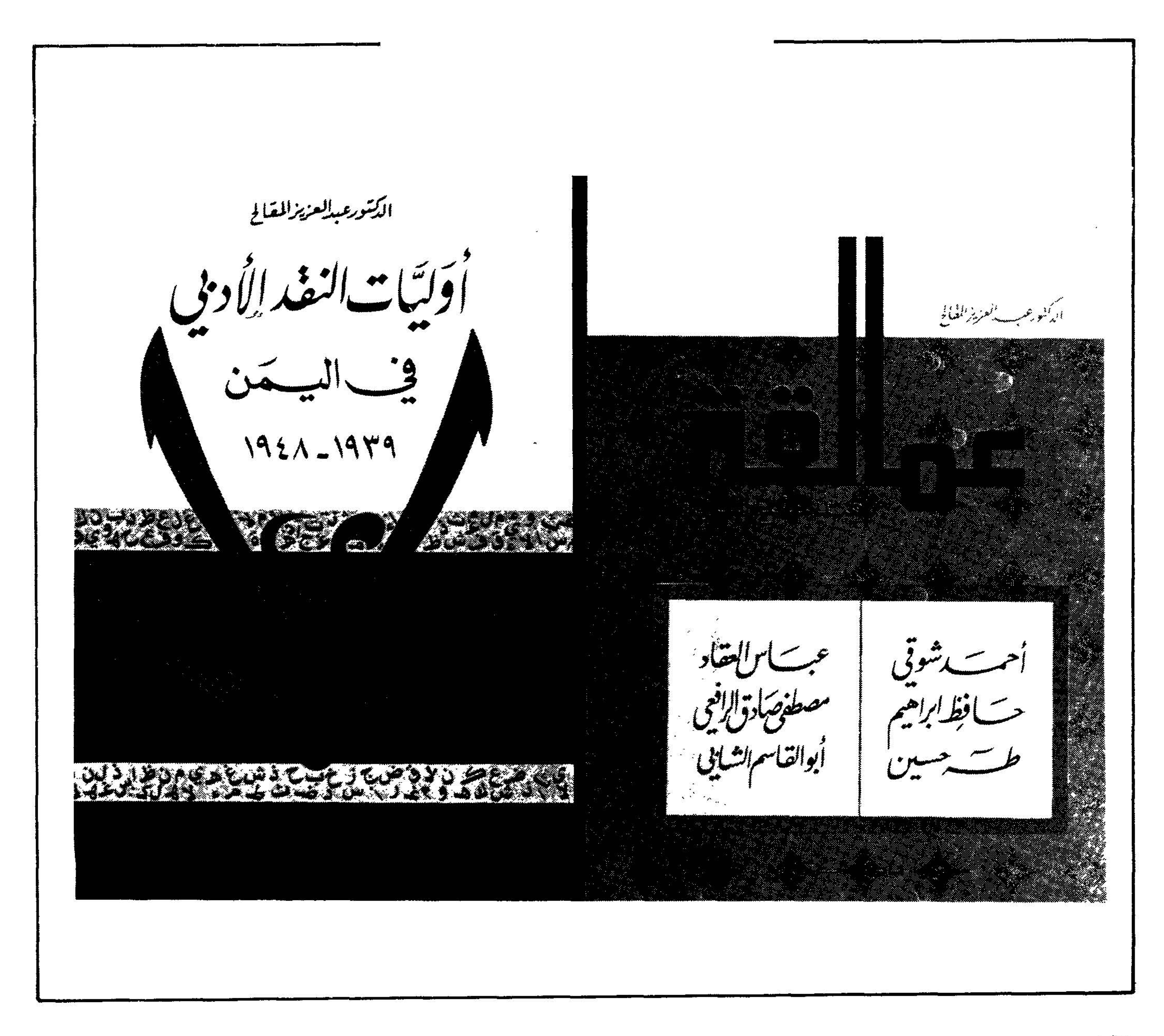
أنك قادر باحزان شتائنا وبأمطار صيفنا الشحيح زراعة صحراء آمنة؟ فهذا مستحيل ولا تصدق بأن أحدا سبقك وزرع شجرة واحدة ، فجميع الأشجار التي شاهدتها أو سمعت عنها في آمنة كلها اصطناعية . . . مطاطية، انها لا تعبر عن أي ارادة أو كرامة حقيقية . . . وانما هي لتغيير (الديكور) لا أكثر . . . وأعترف لك بأننا نعيش في العصور المظلمة ، فمحاكم التفتيش ما زالت تقوم بعملها عندنا على أحسن وجه ، والمشعوذون أطلق العنان لهم ليخدروا الناس بمفاتيح الجنة والترهيب ، لا مفر أمامك فإما الموت أو مدّ يدك واشتر صك الغفران بصمتك .

ـ نرجو ربط الأحزمة . . . اكرر نرجو ربط الأحزمة . . . وشكرا . .

صحيفة آمنة الرسمية ، العدد ١٠٩٥ للسنة الثالثة .

* آمنة : ـ توفي يوم أمس في الطائرة المهندس المعماري الكبير راضي السهل ، وذلك أثناء عودته من بعثة رسمية للدنمارك والتي استغرقت خمس سنوات .

* باريس : فرانس برس ـ آمنة ـ طاف آلاف المتظاهرين شوارع باريس وهم يحملون لافتات تطالب الحكومة بتشديد القوانين لحماية حقوق الحيوانات ، والجدير بالذكر كان على رأس المتظاهرين « المسيو فرانسوا سيزان » عمدة باريس والنجمة العالمية « بريجيت باردو »



الفهـرس العام للسنـة الثـانيـة والثـلاثـين لـ « الآداب » ١٩٨٤

راجع بريد الآداب تحت مادة « بريد » . والقصائد تحت مادة« شعر » . والقصص تحت مـادة « قصة » . والنتاج الجديد تحت مادة « كتاب » . والمناقشات تحت مادة « مناقشة » . والنشاط الثقافي تحت مادة « نشـاط » .

١ ـ فهرست الموضوعات

٢ ـ فهرس الكتّاب